تاريخ حضرموت السياسي

مزيّن بالخرائط والصور والرسوم الفنّية

تأليف

صلاح البكري

الجزء الأول

الناشر

مكتبة الصنعاني

مقدمة

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده على ما أنعم . ونصلى ونسلم على خاتم النبيين ،
وعلى آله وصحبه أجمعين

لايوجد فى الكتب العربية وغيرها كتاب وافٍ بتاريخ « حضرموت » قبل الإسلام وبعده . ولسنا نعرف من المؤرخين وأصحاب السير والأخبار واحدا أفرد كتابا خاصا فى هذا الموضوع الذى نحن بصدده . وإنما هى نتف متفرّقة ، وشذرات مبعثرة فى كتب كثيرة . لمؤلفين كثيرين من العرب والفرنجة ؛ على أن هذه النتف يناقض بعضها بعضا . ويخالفها من نواحى جمة ، وبعضها يبالغ فى وصفه القُصّاص ، ويتجاوزون حدّ المعقول . لاسيما فيما يتعلق بالتاريخ القديم (عاد ، وأقيال التبابعة ، وملوك حمير) .

ولقد بذلنا جهودا جبارة ، وتكبدنا متاعب شاقة فى غربلة تلك النتف وتصفيتها ، وحذف ما لايقبله العقل ، ولا تثبته المراجع المعتمدة ، والذى أوردناه منها أشرنا إلى عدم صحته . وأخذنا الخلاصة من ذلك وأبرزناها — بعد أن أضفنا إليها وثائق هامة من مذكراتنا التى لم تنشر بعد — فى ثوب قشيب . وبأسلوب غير مملّ ، ليتيسر للجمهور الاطلاع على تاريخ حضرموت ، وما جرى فيها من جلائل الحوادث ، وما قاسته

من فجائع الأهوال ، والوقوف على تاريخ الأسلاف من الآباء والجدود ، وما قاموا به من الأعمال العظام ، وما تكبدوه من الخطوب الجسام .

فكتابنا هذا هو أوّل كتاب من نوعه فى تاريخ « حضرموت » السياسى ، فهو أوّل منارة أقيمت لهداية أولئك السارين الذين يريدون أن يعرفوا الشىء الكثير عن تاريخ حضرموت ، وهو يعدّ خطوة لابأس بها فى تقدّم الحضرميين . ولقد التزمنا فى كل ما كتبناه العدل والإنصاف ، وقول الحقيقة بحذافيرها .

ويشمل الجزء الأوّل خلاصة جغرافية وجيولوجية حضرموت . وتاريخ عاد ، وأقيال التبابعة ، وملوك حمير وحضارتهم ، وما تركوه من الآثار والرسوم ، ودخول الإسلام فى حضرموت وكندة الإسلامية ، وهجرة الحضارم إلى بغداد ومصر والأندلس لطلب العلم ، وإلى سواحل أفريقيا الشرقية وإلى الهند للتجارة . ويتحدث هذا الجزء عن هجرة آل باعلوى من البصرة إلى حضرموت ، وعن إمارة نهد وآل راشد ، ثم ظهور الدولة الكثيرية ، فنشوء الدولة اليافعية ، وما قام بينهما من الحروب .

أما الجزء الثانى ، فيشمل النزاع الذى حدث فى العائلة اليافعية المالكة ، وامتداد فتوحات يافع فى البلاد السواحلية ، وفى دوعن وغيرها من البلاد الحضرمية ، ويتحدث عن معاهدة « عدن » بين الدولتين اليافعية والكثيرية ، وحرب الغرفة ، وعن المؤتمر الحضرمى بسنغافورة ، وإخفاق مساعيه ، ويتحدث عن نظام الدولتين السياسى ، وعن الحالة الاجتماعية فى الحواضر والبوادى . ويتحدث عن هجرة الحضارم إلى جزائر الهند الشرقية (أندونسيا) وما قاموا به من الأعمال ، وما حصل بينهم من النزاع والخلاف ؛ ويتحدث عن القريين وأحوالهم الاجتماعية ؛ وعن بنى كثير فى ظفار .

وأرى من الواجب أن أشكر السيدين الفاضلين D. Vän Der Meuler و H. Van Wissmann فقد سمحا لى بأخذ بعض صور من كتابهما Hädramaut

الذى كتباه عن رحلتهما سنة ١٩٣١ ، وأشكر أيضا من الصميم السيد الفاضل O. H. Little الذى أخذت من كتابه The Geography and Geology of Makalla بعض صور ، كما اعتمدت عليه فى كلامى عن جيولوجيا حضرموت .

وإنى لأرجو أننى بهذا الكتاب ، قد أدّيت بعض ما علىّ من الواجبات الوطنية والفروض القومية .

والله أدعو أن ينفع به ، وما توفيق إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

القاهرة { ١٦ ذى الحجة سنة ١٣٥٣
{ ٢١ مارس سنة ١٩٣٥

صلاح عبد القادر البكرى اليافعى

مقدمة

الطبعة الثانية

على الرغم من مضىّ أكثر من عشرين عاما على الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، فلم يقم كاتب بتأليف كتاب عن « تاريخ حضرموت » هذا الجزء من جنوب شبه الجزيرة العربية ، الذى كان له القِدْح المعلى فى إنشاء حضارة معين ، وسبأ ، وحمير . فكتابنا هذا « تاريخ حضرموت السياسى » لايزال محتفظا بالأولية . ولقد انتشر والحمد لله فى بلدان كثيرة ، واحتلّ أماكن بارزة فى المكاتب العربية والأجنبية .

ونحن إذ نشكره تعالى على هذا الفضل ، لاننسى أن نتقدم بالشكر الجزيل لحضرات القراء من العرب ، ومن غير العرب ، الذين أقبلوا بشغف على قراءة هذا الكتاب ، حتى نفدت الطبعة الأولى .

والله نسأل أن يهيئ به النفع ، وأن يجعل الجهد الذى بذلناه فيه خالصا لوجهه الكريم .

القاهرة { ذى القعدة سنة ١٣٧٦هـ
يونيه سنة ١٩٥٦م }

المؤلف

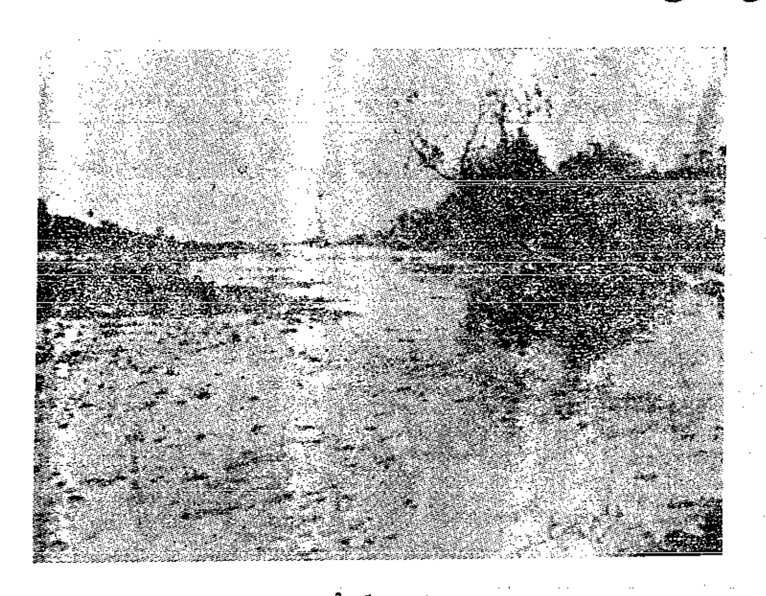
صلاح البكرى

١ – جغرافيا وجيولوجيا حضرموت

على بعد خمس عشرة درجة عرضا شمالى خط الاستواء ، وخمسين درجة طولا شرقى جرينوتش Greenwich وما بين ظفار شرقا وعدن غربا ، ورمال الدهناء شمالا والبحر العربى جنوبا ، تقوم سلسلة جبال صخرية جرداء ، وبين هذه الجبال أودية فسيحة منبسطة متصلة ببعضها من جهات . ومقطوعة من أخرى ؛ وتمتدّ هذه الأودية إلى الشمال حتى تبلغ ٤٩٫٥° طولا ، ثم تنعطف نحو الجنوب ، وتنتهى فى سيحوت عند خط ٥١° طولا شرقى جرينوتش ، وعلى امتداد هذه الأودية توجد المدن والقرى ، وتأخذ المزارع مساحات واسعة من الأراضى ، وأجود الأراضى الصالحة للزراعة هو الوادى الرئيسى بين القرط وعينات حيث تجتمع سيول الأودية العليا ، وتنحدر إليه وتنبسط فيه ، فتكسبه طميا كثيرا . وفى هذا الوادى الفسيح يزرع القمح فى الشتاء ، والذرة فى الصيف بماء الآبار الارتوازية ، والماكينات النازحة للماء ؛ أما بقية الأودية الأخرى فيزرع فيها الذرة بماء المطر ، لبعد ماء الآبار الذى لايحصل عليه إلا على عمق ٣٥٠ – ٤٠٠ قدم ؛ وتستعمل للشرب . وتشغل الكثبان الرملية مساحات كبيرة فى طريق القبلة (اليمن) وبين عينات وسيحوت ، وتهبّ الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، مشبعة ببخار الماء ، فتصطدم أحيانا فى طريقها إلى الشمال بجبال الشواطئ ، وتنزل هناك مطرا ؛ ولا يسقط المطر فى الهضاب الداخلية إلا فى النادر القليل ، ولذلك ، فقد يشتدّ الجفاف فى دوعن وعمد ووادى العين وبلاد نهد وسر وعدم ؛ ويشتدّ البرد فى الشتاء ، وترتفع درجة الحرارة فى الصيف ، فيشعر الأهالى بلفح الحرّ الناتج من إشعاع سفوح الجبال الجرداء ، ولا يشعر المرء بالرطوبة ليلا إلا على الجبال المكشوفة . والجوّ جاف وملائم للصحة . وفى الصيف تهبّ ريح ساخنة يقال لها السموم ، وهى تساعد على إنضاج البلح .

ويمتد الإقليم الساحلى من عين بامعبد غربا إلى سيحوت شرقا ؛ وهو عبارة عن

شكل غير منتظم مساحته نحو ٤٥٠٠ كيلو متر مربع ، وهو يمتد فى الداخل إلى مسافة ٨٠ كيلو مترا من رأس الكلب ، وعشرين كيلو مترا عند الحدود الشرقية ، وأعلى نقطة فيه تقع فى وسطه ، وارتفاعها ٢١٨٧ مترا ، وهى تتدرّج نحو الشاطئ شرقا وغربا ، وتتراجع فى الوسط ، فتضمّ بينها سلاسل جبلية ، احتفرت الأنهار لنفسها فيها وديانا إلى البحر . وعلى امتداد الوديان توجد متسعات من الأرض بها بعض المزروعات . ولكن الإقليم على وجه العموم يتكوّن من تلال ومنحدرات جرداء ، وتتدرّج سفوح التلال نحو البحر مكوّنة رءوسا فيها طبقات من الرواسب النهرية .



« نهر حَجْر »

ومن الظواهر الطبيعية فى هذا الإقليم ، ذلك النهر (نهر حجر) الذى يصبّ بالقرب من رأس الكلب ، ويكوّن دلتاه إقليم ميفع الخصيب ، وهو يشقّ طريقه فى ثلاثة خوانق ، وعلى امتداده توجد قرى بها أكثر مساحة ممكنة من الأراضى الزراعية ، وكلّ مياه الإقليم تنصرف فى البحر ، حتى تلك الأودية التى تسير فى شمال الهضبة الغربى ، إذ تصبّ فى وديان عرضية عميقة حفرت لنفسها طريقا إلى البحر ، وكل الوديان متوازية تقريبا ، وهى تمتدّ لمسافة تتراوح بين عشرة وعشرين كيلومترا عند منتهاها بين خطى عرض ٣٥° ، ٤٠° ، والوديان ملأى بالصخور المهشمة ،

وترتفع تدريجا ، وتصبح حافاتها شديدة الانزلاق ، ثم تعترضها جنادل وخوانق ، ثم تخترق عدة عقبات متتالية ، ويبلغ ارتفاع سفح العقبة من ٣٠٠ إلى ٥٠٠ متر ، وقمتها من ٦٠٠ إلى ٨٠٠ متر ؛ وعند رءوس بعض الوديان توجد كميات من المياه يحفر لها الناس القنوات على جانبي الوادى إلى مسطحات من الأرض ، وبعد ريّ هذه المسطحات تغوص المياه فى باطن الأرض ، ثم تظهر بعد مسافة طويلة ، إما من تلقاء نفسها ، وإما بحفر آبار تتباين أعماقها ، وقد يبلغ عمق البئر ٤٠ مترا ، وتوجد بين عين بامعبد وبرعم تعريجات عديدة ترسو فيها القوارب ، ولكنها غير صالحة فى إبّان هبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية ، وفى المكلاّ إلى الشحر يصبح الساحل رمليا ، ويتدرّج نحو البحر . وميناء المكلا عميق هادئ صالح لرسوّ السفن . أما ميناء الشحر فضحل ، وفى ديسمبر ومايو تهبّ الرياح على البرّ غالبا من الشمال الشرقى ، وعلى طول الساحل يشعر المرء بنسيم البرّ والبحر . ويمتدّ تياره إلى بضعة كيلومترات داخل الوديان ، ويشتدّ البرد عند ارتفاع ١١٢٠ مترا ، ويعتدل عند ارتفاع ٢٥٠ مترا ؛ وفى شهر مارس تصبح أشعة الشمس محرقة للغاية ، والجوّ جافّ ملائم للصحة فى أعلى الهضاب ، والمنطقة الوحيدة التى فيها خطر على الصحة ، هى منطقة ميفع المليئة بالبعوض . والتغير فى الطقس بين الساحل وداخل الوديان محسوس جدا ، ودرجة الحرارة فى الظلّ فى الظهيرة مرتفعة ، سواء على الساحل أو على الجبال ، ولكن درجة الحرارة فى الليل تنخفض كثيرا . وفى مدينة المكلا يبلغ أدنى حدّ لدرجة الحرارة فى شهر مايو ٦٥° فرنهيت . والليل فى الوديان أرطب منه على الساحل ، وفى بعض الوديان يهبّ ريح ساخن طول الليل .

الجيولوجيا الطباقية (Statigraphical Geology)

الصخور الرئيسية للإقليم نارية مركبة ، تعلوها طبقة من الحجر الجيرى من العصر الجوراسى (Jurassic) ثم تليه طبقة من الصخر من العصر الطباشيرى (Cretaceous) ثم قشور اردوازية (Shales) وتتلو الطبقة الطباشيرية طبقة من الحجر الجيرى من عصر الأيوسين (Eocene) مختلطة بصخور من الحجر الرملى من عصر الأوليجوسين

(Oligocene) وصخور اردوازية ، ويوجد الطفل الجبسى فى الأحواض ، وتتكوّن الطبقات الحديثة من الطمى والرمل ، وفى الوديان تتكوّن الرواسب الغرينية فى فتات الصخور الرملية الأيوسينية والطباشيرية . وفى بعض الجهات تتكوّن من فتات الصخور النارية والمتحوّلة ، وبقرب رءوس أغلب الوديان ، تصبح هذه الرواسب ناعمة ، وتتكوّن أراضى ميفع الزراعية من طفل رملى عبارة عن خليط من الرواسب النهرية والرمل الذى تسفيه الرياح ، وعلى بعد مسافة قصيرة من البحر يصبح قاع الوديان ، وكذلك مجارى المياه ملآ نة بالصخور ، وعلى طول الساحل تسفى الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الرمل على التلال ، وعلى الأخصّ عند رأس رحيمة ورأس شهابة حيث لاتظهر إلا قممها النارية على ارتفاع ٤٠٠ ، ٥٠٠ متر ؛ وفى الوديان تتراكم الرمال وتشغل الكثبان الرملية مساحة قدرها ٢٠٠ فدان ، ولقد أثرت فى أغلب سهول ميفع ، فقلت الأراضى الصالحة للزراعة .

عصر البليوسين (Pliocene)

فى وديان ومنخفضات الإقليم الساحلى توجد قطع مستديرة من الحجر الجيرى المتبلور ، وفتات الصخور النارية ، وهى توجد فى طبقات من العصر الجوراسى والطباشيرى والأيوسين والأولجوسين بدون توافق ؛ وفى واد صغير جنوب كنينة توجد حفريات من عصر الميوسين ، وهى تتكوّن من :

طبقة من الحجر الجيرى الأصفر	ارتفاعها ٣ أمتار
طبقة من الإردواز الأخضر	ارتفاعها ٥ أمتار
طبقة من حجر جيرى أصفر بها هذه الحفريات	ارتفاعها ٣ أمتار

وهذا الحجر الجيرى الأصفر أحدث تكوينا فى طبقة الجبس التى يبلغ ارتفاعها ٦٠ مترا ، وتكوّن التلّ القائم شمال كنينة . وفى وادى حويرة توجد تحت سطح الأرض طبقة من معدن اللجنيت (Lignite) كثافتها ٣٠ مليمترا ، وبها بعض القار فى حجم راحة اليد ، وبها حفريات من فصيلة ملانيا توبركبولا تامولروزونيكوس . وفى وادى الحرشيات توجد طبقات من الحجر الجيرى ، وحبيبات دقيقة من الكوارتز

والفلسبار . وفى وادى واسط عند سفح جبل شرج باسليم توجد طبقات جيرية ، وفى غرب فوّه توجد مدرّجات مكوّنة من صخور نارية ، كما توجد أيضا عند ملتقى وادى واسط بوادى كلبوت . وفوق الحجر الجيرى الذى يرجع إلى عصر الأيوسين الوسيط ، سلاسل من الطبقات تبلغ كثافتها نحو ٢٠٠ متر ، وهى ملوّنة تلوينا خفيفا ، وتتكوّن هذه الطبقات عند قاعدتها من حجر جيرى أبيض أو أصفر ، وحجر رملى باهت الصفرة ، وفى نهايتها تتكوّن طبقات جبسية وطفيلية تبلغ كثافتها ٥٠٠ متر ، وقد وجدت بعض حفريات ونظام الطبقات من مصبّ النهر عند نيفع إلى جول باحوّه ومنها إلى كنينة ثم جبل كساى إلى المكلا كما يأتى :

فى ميفع توجد طبقات من الصخر الرملى المسامى ، وفى نيفع تتكوّن الطبقات من الحجر الجيرى وطبقات من الإردواز الأحمر أوالأصفر والحجر الرملى الأسود ، ثم طبقات من عصر الميوسين مكوّنة من طبقات جبسية بيضاء .

وفى جزول طبقات مكوّنة من الجبس ، ونظام الطبقات هى كما ذكره الأستاذ العلامة لتل (O. H. Little)[١] :

طبقة من عصر البليوسين الجيرية كثافتها من ٥ إلى ٣٠ مترا مربعا .

طبقة من الجبس من عصر الميوسين كثافتها من ١٠ إلى ١٥ مترا مربعا .

مارل أبيض من عصر الميوسين ٣٠ مترا مربعا .

جبس أخضر أو أصفر من عصر الميوسين ٢٠ مترا مربعا .

حجر رملى داكن من عصر الأوجوسين ١٠ أمتار مربعة .

جبس ٣٠ مترا مربعا .

حجر جيرى أبيض مختلط بالمارل ٣٠ مترا مربعا .

جبس عديد الألوان ٥٠ مترا مربعا .

---

(١) فى سنة ١٩١٩ طلبت الحكومة القعيطية اليافعية إلى الحكومة المصرية أن ترسل إليها مندوبا ليعمل مساحة تفصيلية عن المنطقة الواقعة بين المكلا وحجر ويبحث عن المعادن فيها ، فأوفدت العالم الجيولوجى الأستاذ O. H. Little فنشر تقريراً وافياً بالإنجليزية طبع فى مصر سنة ١٩٢٥ .

حجر جيرى أبيض من ٢٠ إلى ٨٠ مترا مربعا ، ثم حجر جيرى من عصر الأيوسين .

كنينة : يوجد فى شمال كنينة جبس كثير يمتدّ مسافة عظيمة ، كوّن تلالا ارتفاعها ٥٠٠ متر ، وعلى بعد كيلومتر يوجد بقعة من الحجر الجيرى الأصفر محتوية على حفريات ترجع إلى عصر الميوسين ، ويوجد هناك عقبة على قمتها مخروط من الجبس كثافته ٦٠ مترا على طبقة من الصخر الأصفر الاردوازى كثافتها ٥٠ مترا وفى وادى مريرة (فى حجْر) يوجد حفريات ترجع إلى عصر الأولجوسين ، وعلى مقربة من مريرة يوجد واد يتصل بواد آخر به نماذج كثيرة من الحفريات التى ترجع إلى عصر الأولجوسين .

ونظام الطبقات هو كما ذكره الأستاذ لتل :

حجر جيرى رمادى اللون	كثافته ٤٠ مترا
جبس أصفر به حجر جيرى داكن	كثافته ١٥ مترا
حجر جيرى رمادى	كثافته ٥ أمتار
حجر جيرى أبيض به حفريات	كثافته ١٠ أمتار
حجر جيرى داكن به مارل أبيض	كثافته ١٠ أمتار
اردواز أصفر مخطط	كثافته ٥ أمتار
طبقات اردوازية مخططة بها طبقات من الحجر الجيرى	كثافته ١٠ أمتار
كتل من المارل الداكن	كثافته متران
حجر جيرى أبيض به ثقوب كثيرة	كثافته ٣ أمتار
اردواز أصفر مخطط	كثافته ٥ أمتار
حجر جيرى أبيض به مارل وحفريات	كثافته ٥ أمتار
حجر جيرى رمادى من عصر الأيوسين	كثافته ٥ أمتار

وفى جنوب وشرق الخراشيات تمتدّ طبقات ميوسينية بحسب النظام الآتى :

طبقات اردوازية جبسية وطفلية	كثافتها ٥ أمتار
حجر جيرى أبيض به مارل	كثافته ٥ أمتار

اردواز أبيض	كثافته متران
اردواز أحمر وأصفر	كثافته ٣ أمتار
اردواز مخطط أصفر وأبيض	كثافته ٥ أمتار
حجر رملى ناعم أحمر وأبيض	كثافته ٥ أمتار

وإلى الشمال عند المستنقعات الواقعة غرب تلاً السفلى توجد منطقة بها طبقات كثافتها ٨٠ مترا ، وفى غيل باوزير توجد طبقات اردوازية صفراء وبيضاء .

عصر الأيوسين (Eocene)

توجد فى المكلا مرتفعات عمودية ترتفع عن سطح الوادى ٥٠٠ متر . وتتكوّن طبقاتها العليا من صخور من عصر الأيوسين الوسيط . تغطى بطبقة من الحجر الرملى من العصر الطباشيرى . وفى بعض الأماكن التى تظهر فيها قاعدة هذه الطبقات توجد تحتها صخور نارية . وفى أماكن أخرى يوجد عدم توافق إذ توجد بين الصخور الرملية والنارية طبقة من الصخور الاردوازية بها حفريات من العصر الجوراسى ، وتتكوّن الطبقات العليا فى جبل شرج باسليم من كتل ضخمة من الحجر الجيرى المتبلور ، المختلط به رخام أبيض وأحمر ، فوق عروق حجر جيرى رملى ، به عروق من الحجر الجيرى المتبلور كثافتها ١٠ مليمترات . ترجع إلى عصر الأيوسين الحديث ويكوّن الحجر الجيرى الأيوسين الوسيط سطح الهضاب فى الداخل ، وهو شديد الصلابة ، يقاوم الالتواء . فيه عيوب كثيرة .

العصر الطباشيرى (Cretaceous)

تحت الحجر الجيرى طبقات من الحجر الرملى كثافتها ٥٠٠ متر ، وهى ذات ألوان متباينة ، ولكن يغلب عليها اللون الأحمر ، وتوجد بينها عروق من الكوارتز ملتصقة ببعضها ، وقد توجد بها طبقات اردوازية محتوية على مركبات فحمية أو جلنيتية ، ونظام الطبقات هو كما ذكره الأستاذ لتل :

طبقة من الحجر الجيرى من عصر الأيوسين الوسيط ، تتراوح كثافتها بين ١٠٠ ، ٣٠٠ متر .

طبقة من الحجر الرملى تتخللها عروق من الحجر الجيرى تتراوح كثافتها بين ٢ ، ٢٠ مترا .

طبقة اردوازية تتخللها طبقات رملية أو جلنيتية من ٥ إلى ٢٥ مترا .

حجر رملى به اردواز جرفته السيول من ١٠ إلى ٢٠ مترا .

حجر رملى صلد من ٢٠٠ إلى ٥٠٠ متر .

وتوجد بعض حفريات مشوّهة من الطبقات الاردوازية ترجع إلى العصر الطباشيرى ، وتوجد حفريات فى وادى عروس ، وتوجد طبقات من الحجر الرملى على جانبى الوادى تكوّن جزرا فوق سطح الطبقة الجيرية بها بعض حفريات ترجع إلى العصر الطباشيرى القديم ، ووسطها وقمتها من العصر الطباشيرى الحديث .

العصر الجوراسى (Jurassie)

على الشاطئ الجنوبى للنهر عند نيفع توجد حفريات فى منطقة يبلغ ارتفاعها ٤٠ مترا ، وتتكوّن المنطقة من صخور جيرية قائمة ،واردواز وصخور زيتية . وشرق حصن باقردان توجد بعض حفريات جيوراسية أيضا ترجع إلى العصر اللويزيتانى ، وعلى بعد ٤ كيلومترات فى ملتقى وادى عروس حفر الأستاذ العلامة لتل حفرة نصف متر ، فوجد فى قاعها صخور زيتية بها حفريات مشوّهة ، ونظام طبقات هذه المنطقة هو كما ذكره الأستاذ لتل :

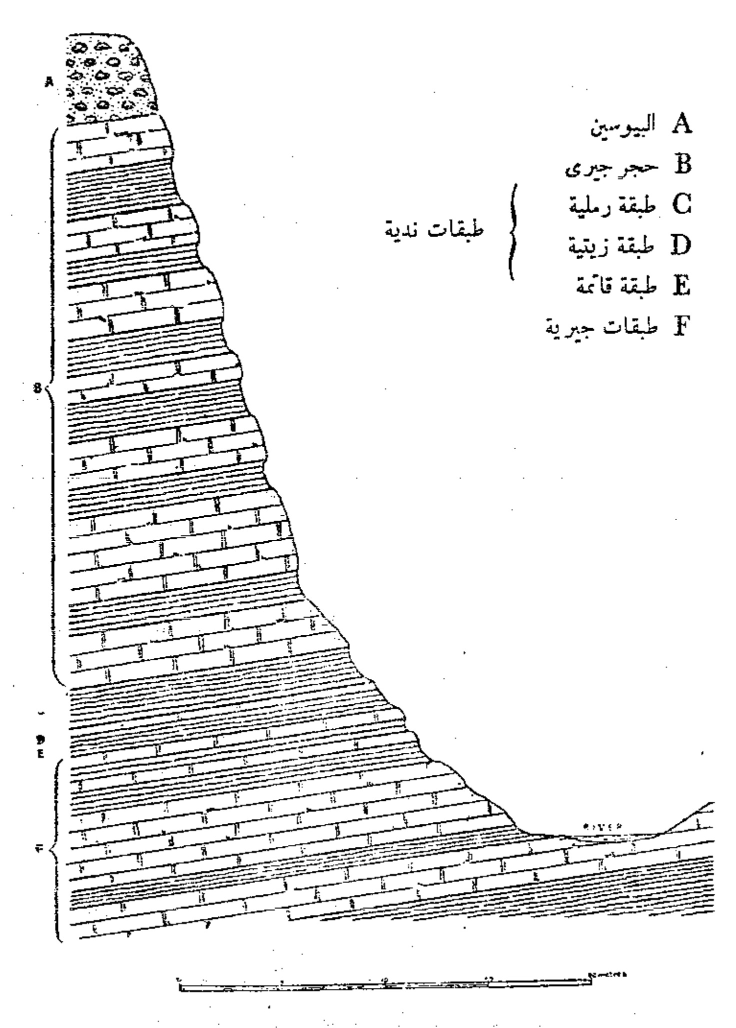
(١) طبقة من الحجر الرملى بنى مائل إلى السمرة من العصر الطباشيرى ، كثافتها ٢٠ مترا ب (أى مربعا) .

(٢) اردواز أخضر وأزرق طباشيرى كثافتها من ٢ إلى ٥ أمتار ب .

(٣) حجر جيرى أصفر مائل للسمرة به حفريات من العصر الطباشيرى القديم ، كثافتها من ٣ إلى ٥ أمتار ب .

(٤) اردواز أصفر ربما كان من العصر الجوراسى ، كثافتها ٢٠ مترا ب .

(٥) حجر جيرى رمادى . ربما كان من العصر الجوراسى كثافتها ١٠ أمتار ب .



مقطع كهف
فى الشاطئ الجنوبى لنهر نيفع

(٦) حجر جيرى أبيض ، ربما كان من العصر الجوراسى كثافته ١٠ أمتار ب ؛

(٧) اردواز أبيض به مارل ، ربما كان من العصر الجوراسى كثافته ٢٠ مترا ب ؛

(٨) عروق من الحجر الجيرى الأبيض من العصر الجوراسى كثافتها ٣٠ مترا ب ؛

(٩) حجر جيرى أصفر واردواز من العصر الجوراسى كثافته ٣٠ مترا ب .

(١٠) اردواز كلس وحجر جيرى به فحم وقمته مكوّنة من صخور زيتية من العصر الجوراسى كثافته أكثر من ٢٠ مترا ب .

وتشبه الطبقات ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، الطبقات الجوراسية التى بالقرب من حصن باقردان ، وربما كانت الطبقات ٩ ، ١٠ تشبهان الصخور الزيتية فى نيفع ، وطبقة الحجر الجيرى التى تكوّن سطح المنحدر عند سفح جبل الدعلية وجبل الغبر ورأس العقبة تشبه الطبقة الجيرية التى ترجع إلى العصر الطباشيرى القديم فى وادى عروس ، وعند رأس العقبة يبلغ ارتفاع الطبقة الجيرية ٨١٥ مترا ، وتفصلها عن الصخور النارية طبقة من الحجر الرملى كثافتها ٢٠ مترا . وفى جبل الدعلية يبلغ ارتفاعها ٧٠٠ متر ، ويفصلها عن الصخور النارية طبقة من الحجر الرملى كثافتها من ٣٥ إلى ٥٠ مترا ، وطبقة من الاردواز والحجر الجيرى كثافتها من ١٠ إلى ٢٠ مترا . وبالقرب من حصن باقردان طبقة يبلغ ارتفاعها ٤٥٠ مترا ، وتفصلها طبقة من الاردواز والحجر الجيرى كثافتها ١٣٠ مترا ، ثم طبقة من الحجر الرملى كثافتها ٢٠ مترا . وعند وادى عروس يبلغ ارتفاعها ٥٠٠ متر . وتفصلها طبقة من الحجر الجيرى الاردواز كثافتها ١٥٠ مترا ، ولكن لايوجد بها حجر رملى .

الصخور المتبلورة :

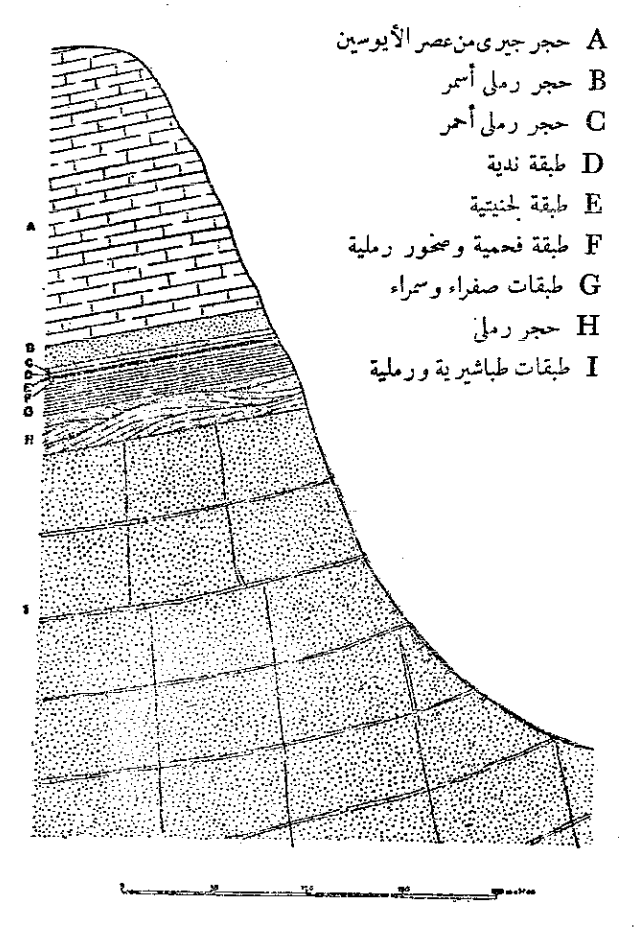
تمتدّ الصخور النارية المركبة فى كتل من الشاطئ إلى الداخل مسافة ٤٥ كيلومترا وقد نحتت الطبقات الجوراسية أوالطباشيرية القديمة التى تعلوها ، وأصبحت تكوّن مرتفعات منعزلة ، وهى تتكوّن من صخور حمضية نارية متداخلة فى صخور قديمة ، وفى بعض المنخفضات فى حوطة فخيذة على طول وادى توجد صخور متحولّة ، وتوجد تلال نارية إلى الجنوب والغرب من بروم ، كما توجد صخور جرانيتية شرق النهر ، ويوجد الجرانيت على طول قاعدة حصن باقردان وغرب فوّة ، وفى جبل جرز وجبل الحمار ووادى فحمة وجبل جريس وجبل عسلات . وفى قاع الوادى على مقربة من تلاّ العليا يوجد بازلت مختلط بالبيريت المحتوى على عروق من الجرانيت الناعم ، ويتكوّن رأس المكلا من الدريويت والبازلت المحتوى على عروق من الجرانيت الناعم

ويكوّن البازلت القمم الواقعة شمال شرقى رأس بروم ، وبه بعض عروق من الجرانيت الناعم . ويوجد البازلت أيضا فى يمين وادى الغبر .

الجيولوجيا الاقتصادية (Economic Geology)

يوجد فى جبال الشواطئ نحو خمسين نوعا من المعادن : منها اللجنيت ، الأحجار الزيتية ، الكحل ، القار البيريت (ويظنونه ذهبا) ، النحاس . ولكن بعض هذه المعادن قليل الفائدة ، والبعض الآخر لايوجد منه إلا مقادير قليلة . وأهمّ هذه المعادن معدن اللجنيت Lignite وهو فى جبل كسعى ، وجبل دعلية ، وبالقرب من أسفل العين : وتتراوح عروقه المعدنية ما بين نصف متر ومترين ، ويوجد أيضا فى جبل المكلا ، وهو يشتعل بلهب أزرق لامع ، وله رائحة كبريتية ، ويبيضّ لهبه بعد ساعة ، ويتصاعد منه دخان ، ثم يصبح بعد بضع ساعات أزرق باهتا ، تنبعث منه رائحة أوّل أكسيد الكربون ، ويوجد كثير منه فى أسفل العين على ارتفاع ٤٠٠ متر من سطح البحر ، وقد صعد إلى هذه المنطقة الأستاذ لتل ، فوجد اللجنيت مختلطا مع غيره من الموادّ الغريبة ، وإليك عدد الطبقات التى ذكرها :

طبقة من الحجر الجيرى من عصر الأيوسين المتوسط	كثافتها ١٥٠ مترا
طبقة من الحجر الرملى الأحمر الداكن	كثافتها ٢٠ مترا
طبقة من الحجر الرملى الصلب	كثافتها ٣ أمتار
طبقة أردوازية صفراء قاتمة	كثافتها ٣ أمتار
طبقة من الطفل الأزرق الرطب بها عروق الشبّ	كثافتها ١١٠ سنتمترات
طبقة من اللجنيت	كثافتها من ٣٥ — ٥٠ سم
طبقة من الحجر الرملى الرطب من العصر الفحمى	كثافتها ١٠ سنتمترات
طبقة من الحجر الرملى الرطب من العصر الفحمى فى أعلاها عروق من البيريت الحديد	كثافتها متران
قشور صخرية صفراء وزرقاء ورمادية	كثافتها ١٥ مترا



طبقات لجنيتية
فى كهف بأسفل العين

صخر رملى كثافته ٢٠ مترا

قمة عالية من الحجر الرملى الصلب كثافتها ٢٠٠ متر

أما فى جبل كسعى فيوجد فى منطقة ترتفع ١٥٣٠ مترا عن سطح البحر ، وهذه المنطقة مكوّنة من لجنيت أسود كثافته متر ونصف ، وبه عروق من الجبس والشبّ الأصفر والأبيض وبعض بقايا نباتية ، وهو يقع فوق طبقة كثافتها نصف متر من حجر الصابون غير النقى ، وفوقها طبقة كثافتها متر ونصف من الطفل الأزرق ،

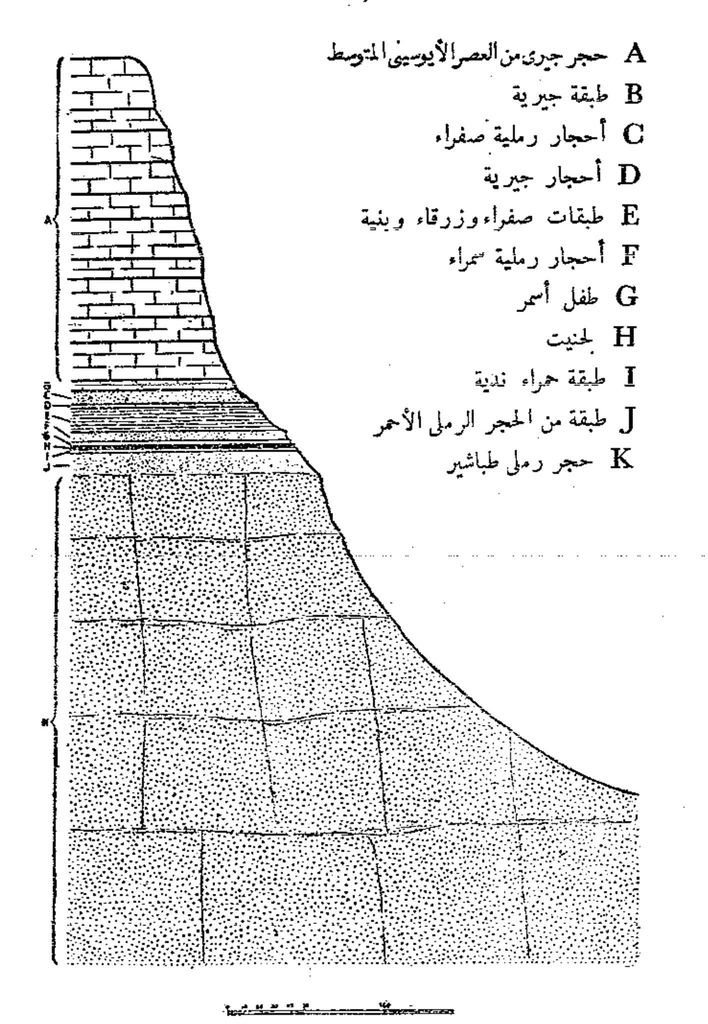
ولقد بعث السلطان المرحوم غالب بن عوض القعيطى فى سنة ١٩١٩ بعض عبيده إلى جبل كسعى وأسفل العين ليبحثوا عن تلك المعادن الثمينة، ولكن لم يكن بينهم خبير بعلم الجيولوجيا ، فعادوا إلى المكلا بنماذج قليلة . ويوجد اللجنيت أيضا فى جبل الدعلية كثافته تتراوح بين متر ومترين ، وهو أسمر قاتم ، ولكن سطحه لامع وهو صلب متماسك ، ويحصل على عمق ٣٠ مترا ، وتغطيه طبقة من القار ، وبالقرب من تلاّ العليا توجد طبقة من اللجنيت كثافتها ٢٥ سنتمترا قليلة الامتداد بين طبقات من الرمل ؛ وفى غرب قرية السبيخات توجد منه مقادير وافرة . وبالقرب من البقرين على بعد ٢٠٠ متر غربى صهريج المكلا يوجد اللجنيت فى طبقات التوائية ، وهى مقسمة إلى كتل يفصلها طفل أزرق ندى . وعلى بعد كيلومتر غرب كلبوت توجد تحت الطبقات الجيرية سلاسل من القشور المعدنية بها بقايا فحمية ، وطبقتان من اللجنيت . وعلى بعد كيلومترين غربا ، تظهر سلاسل اردوازية وعرقان من البقايا الفحمية . وعلى مقربة من قرية عدود توجد طبقة مكوّنة من الاردواز الفحمى ، وكثافتها من ٤٠ — ٥٠ سنتمترا ، وفوقها طبقة زرقاء بها عروق من الجبس . وفى وادى حويرة بالقرب من غيل باوزير توجد طبقة من اللجنيت مختلطا بالقار والجبس .

الطبقات المحتوية على الزيت : (Oil Shales)

فى نيفع وفى وادى عروس توجد بقاع بها صخور محتوية على الزيت، وقد اختبر نموذجا منها الأستاذ لتل ، فوجدها مكوّنة من المواد الآتية :

٢ و١ ٪ ماء
٨ و١٤ ٪ كربونات
٢ و٤ ٪ من المواد القابلة للاشتعال
٨ و٠ ٪ كربون نقى
٧٩ ٪ رماد

واختبر عينة أخرى من وادى عروس فوجدها تحتوى على المواد الآتية :



طبقة لجنيتية
فى جبل كسعى

٦ و٠ ٪ ماء

١٦ ٪ كربونات أو ثانى أكسيد الكربون

١٠ ٪ من المواد القابلة للاشتعال

٢ و١ ٪ كربون

١ و٧٢ ٪ رماد

وفى جبل الدعلية يسيل القار من الشقوق من الطبقة العليا التى تغطى اللجنيت ؛ وعلى بعد ١٢٠ كيلومترا من المكلا توجد صخرة كبيرة يسيل منها القار والأسفلت .

وفى الصدارة يوجد حجر جيرى مختلط بطفل يدل على وجود الزيت .

معدن الراتينج (Resin)

يوجد هذا المعدن فى طبقات اللجنيت فى تلا العليا والسبيخات وبين كلبوت ومزينب ، ويختلف لونه بين أصفر باهت وأحمر قاتم ، وهو يوجد مع القار أو مع قشور اللجنيت ، ولا يذوب فى الكلوفورم .

الملح الصخرى (Roek Salt)

يوجد منه جبل بأكمله فى الصدارة بلورى اللون به بعض القار .

(Bitumen And Bituminous Sandstone)

القار والحجر الرملى القارى

يوجد فى الصدارة ، وقد حلل عينة منه الأستاذ لتل ، فوجدها تحتوى على النسبة المئوية الآتية :

٩٦ ٪ من القار القابل للذوبان

٧ و٣ ٪ من الكربون

٣ ٪ من بقايا معدنية مكوّنة من بترول متأكسد

وحلل الأستاذ لتل عينة أخرى فوجدها كما يأتى :

١ و١٩ ٪ من القار

٤ و١ ٪ من الكربون

٥ و٧٩ ٪ من بقايا معدنية ، وهذه تحتوى على :

٨ و٨٠ ٪ من السليكا

٢ و١٩ ٪ من أكاسيد الحديد والأيومينوم والمنجنيز ، وهذا يدلّ على أن هناك بترولا .

نترات البوتاسيوم (Potassium Nitrate)

فى الغرغر على مقربة من مزينب عند سفح جبل السكيدة توجد نترات البوتاسيوم تحت طبقة من الطفل الأحمر الضارب للسمرة ، كثافتها متر ، حلل عينة منها الأستاذ لتل (O. H. Little) فوجدها تحتوى على المواد الآتية :

٩٧ ٪ من نترات البوتاسيوم

٣ ٪ من الكبريت والكلور

والبدو هنالك يستعينون به لعمل البارود ، وذلك بأن يأخذوا رطلين منه ويذيبوهما فى الماء ثم يعرضوهما لحرارة الشمس ليتبخرا ، ثم يستعملون المادة المتخلفة لعمل البارود

الهماتيت (حجر الدم) (Hoematite)

يوجد هذا المعدن فى رأس العقبة وفى جبل سقيفة مختلطا بالميكا على هيئة عروق فى الصخور النارية ، وقد حلل عينة منه الأستاذ لتل (O. H. Little) فوجدها تحتوى على أكسيد الحديد والسليكا والكربون والنحاس ، ونسبة الحديد فيها ٧٦و٥٣ ٪ . واختبر عينة أخرى من جبل الدعلية فوجدها تحتوى على ٨و٤٤ ٪ من الحديد ، ٥و٧ ٪ من النحاس . وعينة ثالثة من جبل سقيفة فوجدها تحتوى على ٨٨و١٣ ٪ من الحديد و ٤٦و١ ٪ من النحاس .

المنجنيز (Manganese)

يوجد ثانى أكسيد المنجنيز فى وادى اللقم ، وفى جبل يكور بالقرب من جزول مختلطا بالحديد ، وهو يحتوى على ٦و٧٤ ٪ من ثانى أكسيد المنجنيز .

الشب (Alum)

يوجد بكثرة فى طبقات من اللجنيت متحللا ومتبلورا ذا ألوان ، ويحتوى على كبريتات الحديد والصودا والمغنسيوم

البوكسيت (Bauxite)

يوجد هذا المعدن فى جبل عرنوف الديك ، كثافته متر ، ولونه أبيض ، وهو إما مسحوق وإما كتل هشة ، وهو يحتوى على ٤٦ ٪ من الأليومينا ، وبه كميات من الحديد والجير والمغنسيوم والبوتاسيوم والسليكا .

الحجر الجيرى والرخام (Limestone And Marble)

يوجد فى جبل القارة وشرج باسليم رخام أبيض أو داكن مشوب بحمرة .

الجبس والأنهيدريت (Gypsun And Anhydrite)

يوجد الجبس والأنهيدريت فى مناطق كثيرة أهمها فى كنينة .

حجر الصابون (Soapstone)

يوجد بكثرة فى جبل القارة ، ويوجد فى طبقة محصورة بين طبقتين من الحجر الجيرى ، وكثافته ٣٠ سنتمترا ، وعند استخراجه يكون ناعم الملمس ذا لون أخضر باهت ، وكلما مضت عليه مدة من الزمن زادت صلابته وبهت لونه ، وإذا وضع فى الماء يذوب ويتحلل ويزداد حجمه إلى الضعف ، وهو يباع فى سوق المكلا كمطهر وقد حلل الأستاذ لتل عينة منه فوجده يحتوى على النسب المئوية الآتية :

٦ و٥٣ ٪ من السليكا
٦ و٢١ ٪ من الأليومينا
٦ و١ ٪ من أكسيد الحديد
٤ و٢ ٪ جير
٨٧ و١ ٪ منجنيز
٩٣ و١٨ ٪ مواد عضوية وماء

ويوجد هذا المعدن أيضا فى جبل كسعى تحت اللاجنيت ، ويمتاز عن الأول

بصفات ، فهو لين ، وعند ما يجفّ يصبح ناعم الملمس ، وإذا أمررته على قماش أو ورق لوّنه ، ويتحلل ببطء فى الماء دون أن يزيد حجمه .

التاريخ الجيولوجى (Geological History)

لخص العالم الجيولوجى الأستاذ لتل (O. H. Little) تاريخ إقليم الشواطئ الجيولوجى فى صفحتين بالإنجليزية ، وهذه خلاصة الترجمة :

« ترجع الصخور التى لا تحتوى على حفريات إلى العصر الأركى ، وكانت تكوّن السطح ، ثم نحتت وتحوّلت إلى سهول فى العصر الجوراسي القديم ، ثم طغى عليها الماء تدريجيا ، فخلف عليها طبقة من الحجر الرملى والأصداف قبل أن تتكوّن الصخور الجيرية فى العصر الجوراسى الوسيط ، وإلى شرق حصن باقردان تحتوى هذه الصخور الجيرية على حفريات حيوانية تعيش فى البحار الضحلة ، ولهذا يظنّ أن الحد الشرقى للمسافة التى طغى عليها البحر كان عند جبل الدعلية ، وإلى شرق هذه المنطقة توجد طبقة صغيرة ربما كانت فى العصر الجوراسى ، وبعض صخور جيرية فى وادى ريزبات ، ولا يعرف الحدّ الشمالى للمساحة التى طغى عليها البحر لعدم وجود حفريات جوراسية جنوب العيب الواقع قرب كنينة ، وفى هذا العيب توجد طبقات من العصر الطباشيرى القديم . ولما كانت الصخور النارية معدومة فى هذه المنطقة ، فمن المستحيل تحديد هذا البحر الجوراسى من الشمال ، وإذا كنت لم أجد ما يدلّ على أنه كان يمتدّ شمال جبل مكب أو الكار ، فإنى استنتجت أن عمقه أخذ يزداد نحو الجنوب والجنوب الغربى حتى نيفا ووادى عروس . ويدل تناقص كثافة الطبقات التى تقع بين الحجر الجيرى من العصر الطباشيرى القديم ، وبين الصخور النارية كلما اتجهنا شمالا على أن البحر أخذ ينحسر فى العصر الجوراسى والطباشيرى القديم ، بينما أخذت الصخور الجيرية والجوراسية الصلدة ترسب على كل السطح ، ثم أخذ اللجنيت يتكوّن فى مستنقعات فى العصر الطباشيرى الحديث

أو الأيوسين القديم ، ثم تلت ذلك فترة أخذ البحر يتذبذب فيها ، ثم غمر المنطقة كلها بماء عميق رسبت فيه الصخور الجيرية الأيوسينية ، وأخذ البحر يعلوتدريجا ، ثم أخذ ينحسر ، وفى فترة تكوّنت فيها الصخور الجيرية المحتوية على الما، ل فى عصر الأوليجوسين ، ثم أخذ يتذبذب ، وتحصل عدة التواءات بسيطة فى عصر الأوليجوسين وطوال عصر الميوسين . وربما كان تكوين السلسلة الجبلية الرئيسية الموازية للساحل راجعا إلى هذا العصر ، وفيه تكوّنت برك أرسبت فيها الصخور الجبسية ، ثم تلت ذلك مدة من الارتفاع والانحسار والتذبذب رجعت فيها هذه البرك ، فتكوّنت منها منخفضات جزول وجول باحوّة وكنينة ، وفى عصر البليوسين ظهرت العيوب . وإلى الجنوب الشرقى من الالتواء تكوّنت عدة أحواض ، أحدها تقع فيه نيفع وميفع ، والآخر يمتد فى فوة مخترقا المكلا إلى الحرشيات ، وثالث صغير حول الريشة وفى عصر البليوسين ولو أن الشواهد على ماحدث فيه قليلة ، حصلت حركات هامة فى القشرة الأرضية ، فتكوّنت التواءات أخرى عمودية على الالتواءات القديمة ، وظهرت عيوب ، ثم بدأت السيول تنحت هذه المرتفعات وترسب ما حملته منها فى بحيرات صغيرة . ومنذ عصر البليتوسين أخذت الأرض ترتفع مكوّنة شاطئ المكلا المرتفع ، ومن رأس الكلب إلى رأس المكلا يتجه الشاطئ اتجاها شماليا شرقيا ، وأعلى نقطة فيه الآن عبارة عن هضبة منقطعة يظهر أنها تكوّنت من التواء مسطح فى مواز للشاطئ مخترقا ظلم باطالب وجبل عرنوف الديك والقار وجبل الجوف وجبل محطة ، وقد نحتت خطوط تقسيم المياه الحالية نحو الشمال الشرقى والجنوب الغربى بواسطة مجار مائية ، ويجرى النهر الآن فى الأخدود الوحيد .

وهذا يدل على أنه إما أنه كان موجودا قبل تكوين المرتفع ، أو أن هذا كان فى الجنوب الشرقى من المرتفع أثر منابع نهر آخر كان على الجانب الآخر للمرتفع ، ويرجح حدود المرتفع الذى يتصل به من وادى مزرب وبين كنينة ويوان كان يجرى فى واد قديم ونحت فيه خانقا يبلغ عمقه الآن من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ متر ، واتساعه من ١٠٠ إلى ٢٠٠ متر . وقبل أن يظهر العيب الموجود الآن جنوب كنينة كان فى مجراه مرتفعا عنه الآن فى الصخور الجيرية ، ومن المحتمل أنه كان يسير رأسا من كنينة عبر

جبل نعمان وجول باحوّة ، ولما كانت الطبقات البليوسينية موجودة فى هذا العيب ، فإذا كان هذا الفرض صحيحا فان الفرع لم يتحوّل إلى وادى مزرب حتى إلى عصر البليوسين الحديث .

وفى عصر الميوسين حصلت عدة التواءات مصحوبة بعيوب ، فأخذت الصخور الرملية والجيرية ترتفع مكوّنة هضابا ، ولكنّ أهمّ الحركات الأرضية حدثت فى عصر البليوسين مكوّنة معظم الالتواءات والعيوب الحالية ، ومنها ما ينحدر تدريجيا إلى البحر ، ومعظمها يتجه اتجاها شرقيا غربيا ، وأقلها يتجه نحو الجنوب الشرقى ، وقد نجمت المرتفعات والكتل المنعزلة عن تعرية الهضبة ، ويظهر أن جبل شحورة قد نتج عن عيوب مدرجة ، ولكنى لست متحققا من ذلك وقد وجدت طبقات جنيتية فى عيب عند سفح المرتفع فى تلا العليا وفى السبيخات ، ولكن هذا العيب لم يمتد إلى الغرب على طول سفح جبل شحورة ، لأنه من المحتمل أن عيبا آخر تقاطع معه كان يسير فى النهاية الغربية لجبل شرج باسليم إلى غرب الحوطة ، وربما كان رأس قرن الفيل ناجما عن هذا العيب الآخر الذى كوّن حوضا رسبت فيه الصخور الميوسينية حول الديشة ، وينحدر السهل المكوّن من الصخور النارية عند رأس العقبة نحو الجنوب الشرقى ، وقد ظهرت هذه العيوب فى نهاية عصر الأيوسين ، لأن طبقات عصر الأوليجوسين والميوسين قد رسبت حول المرتفع ، وعندما ارتفعت الأرض ثانية فى عصر الميوسين الحديث أو البليوسين القديم نحت وادى يوان فى هذه الطبقات الميوسنية والأوليجوسينية » اهـ .

نظرة عامة فى تاريخ حضرموت

قبل الإسلام

قديما كانت حضرموت تسمى الأحقاف (وآذكُر أخا عادٍ إذْ أنْذَر قَومَهُ بالأحْقاف) . وإنما سميت حضرموت لسبب ذكرَه بعض المؤرّخين ؛ ذلك أن عامر ابن قحطان أوّل من نزل الأحقاف ، فكان إذا حضر حربا أكثر من القتل ، فصاروا يقولون عند حضوره : حضرموت ، ثم صار ذلك عليه لقبا ، وصاروا يقولون للأرض التى بها قبيلته : هذه أرض حضرموت ، ثم أطلق على البلاد نفسها ؛ وفى التوراة اسم حضرموت : حاضرميت . ولقد كانت حضرموت موطن عاد وأقيال التبابعة وملوك حمير وكندة .

عاد

هم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام ، وكان أبوهم أوّل من ملك فى العرب وطال عمره وكثر ولده ، ولما مات ملك بعده أبناؤه الثلاثة : شدّاد وهو الذى وطئ الممالك ، واستولى على الشام والهند والعراق ، وبعده شديد ، وبعده إرم ، وهو الذى بنى إرم كما ذكره ابن سعد عن البيهقى ؛ وقيل شدّاد بانى إرم . قال بعض المؤرّخين : إنه لما سمع إرم أو شداد بالجنة وما فيها من النعيم وقصور الذهب والفضة بنى مدينة إرم فى حضرموت ، وقيل فى صحارى عدن .

وشيدها بصخور الذهب وأساطين الياقوت والزبرجد والعقيق ، وجعل ترابها المسك والزعفران ، وأجرى من تحتها السواقى والأنهار ، ونصب على حافة تلك السواقى والأنهار أشجارا من الذهب ثمرها اليواقيت والجواهر ، وسوّرها بسور رفيع من الذهب والفضة . قيل إنه مكث فى بنائها مدة طويلة ، ثم بعث الله إليه هودا عليه السلام فلم يؤمن به ، وأنذره بالعذاب الأليم ، فلم يبال بتهديده ولا بوعيده ، ولم يرتدع

عما كان عليه من الطغيان والكبرياء ، فخرج فى ثلاثمائة ألف رجل من حرسه ومواليه وغيرهم وسار إلى جنته التى بناها ، وخلف على ملكه ابنه مرثد ، وكان مرثد فيما يقال مؤمنا بهود عليه السلام ؛ فلما قرب شدّاد من المدينة جاءت صيحة من السماء ، فمات هو ورجاله ، وساخت المدينة فى الأرض فلم يدخلها أحد ؛ وقيل دخلها رجل يقال له عبد الله بن قلابة فى أيام معاوية بن أبى سفيان ، قال : إنه خرج من صنعاء باحثا عن إبل له ضلت ، فأفضى به السير إلى مدينة صفتها كما ذكرنا آنفا ، وأخذ منها شيئا من المسك والكافور والياقوت ، وذهب إلى معاوية بالشام وأخبره بذلك . والحكاية طويلة وليس لها حظّ من الصحة ، وإنما هى من الأخبار المنمقة المصطنعة . ويقال إنهم وقفوا على حفيرة بحضرموت ، فاذا بيت فى الجبل منقور ١٠٠ ذراع فى ٤٠ ، وفى صدره سريران عظيمان من ذهب على أحدهما رجل عظيم الجسم ، وعند رأسه لوح مكتوب فيه :

اعتبر يا أيها المغرور بالعمر المديد
أنا شدّاد بن عاد صاحب الحصن المشيد
وأخو القوّة والبأ س وذو الملك الحشيد
دان أهل الأرض طرّا لى من خوف وعيدى
فأتى هود وكنا فى ضلال قبل هود
فدعانا لو أجبنا ه إلى الأمر الرشيد
فعصيناه وناديـنا ألا هل من محيد
فأتتنا صيحة تهوى من الأفق البعيد

وهذه القصة أيضا غير صحيحة ، ويقول ياقوت إنها من أخبار القصاص المنمقة وأوضاعهم المزوّقة . ويقول الزمخشرى إن إرم بلد منه الاسكندرية .

وقال آخرون : معنى إرم الهالك ، فقد روى عن ابن عباس (ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم) يعنى بالإرم الهالك . وعن عبيد قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله (بعاد إرم) يعنى الهالك ، ألا ترى أنك تقول : إرم بنو فلان : أى هلكوا . وقال الطبرى بعد إيراد الخلافات : « وأشبه الأقوال فيه بالصواب عندى ، أنها اسم قبيلة

من عاد ، ولذلك جاء فى القرآن بترك إضافة عاد إليها ، وترك إجرائها ، كما يقال : ألم تر ما فعل ربك بتميم نهشل ، وهى قبيلة ، فترك إجراؤها لذلك ، وهى فى موضع خفض بالبرد على تميم ، ولو كانت إرم اسم بلدة أو اسم جدّ لعاد ، لجاءت القراءة بإضافة عاد إليها وترك إجراؤها ، كما يقال : هذا عمرو زبيد وحاتم طيئ وأعشى همدان ، ولكنها اسم قبيلة منها فيما أرى كما قال قتادة ، والله أعلم » .

وقوله تعالى (ذات العماد) اختلف فيه ، فقال بعضهم : معناه ذات الطول ، والعرب تقول للطويل : هذا رجل معمد ؛ وقيل معنى ذات العماد أنهم كانوا أهل عمد ينتجعون الغيوث وينتقلون إلى الكلأ حيث كان . وقال الطبرى : « وأشبه الأقوال فى ذلك ما دلّ عليه ظاهر التنزيل قول من قال : عنى بذلك أنهم كانوا أهل عمود سيارة ، لأن المعروف فى كلام العرب من العماد ما عمد به الخيام من الخشب والسوارى التى يحمل عليها البناء ، ولا يعلم بناء كان لهم بالعماد بخبر صحيح . وقال : وأما قوله (لم يخلق مثلها) أى فى البطش والقوّة . نقول هذا هو الصحيح ، فان عادا كانت على جانب عظيم من العظمة والكبرياء والجبروت لم يخلق فى العالم فى عصرهم شعب مثلهم فى القوّة والكبرياء والسلطان ، ولما دعاهم هود عليه السلام لعبادة الله لم يتبعوه وأنذرهم بالعذاب وحذّرهم وخوّفهم زوال ملكهم ، فلم يرتدعوا عما كانوا عليه لغرورهم وكبريائهم ، فأرسلت الصيحة من السماء (غضب الله) فأهلكتهم وأبادت قوّتهم وعظمتهم » ويقول ابن خلدون الحضرمى فى تاريخه : والصحيح أنه ليس هناك مدينة اسمها إرم ، وإنما هذا من خرافات القصاص ، وإنما ينقله ضعفاء المفسرين ، وإرم المذكورة فى قوله تعالى « إرم ذات العماد » القبيلة لا البلد .

الأقيال

كانت حضرموت منذ العصور الواغلة فى القدم تنقسم إلى إمارات صغرى ، أو أقيال (جمع قيل) والقيل هو الأمير يسكن حصنا أو قلعة ، ومن حوله بيوت الأنصار والأعوان والحاشية والخدم ، وكذلك الشأن فى اليمن ، فانها كانت تنقسم

إلى محافد ، والمحفد مجموعة من البيوت أو القرى المتجاورة يتولى شئونها أمير أو قيل، وكان هؤلاء الأقيال أشبه بالأشراف فى عهد الإقطاع فى القرون الوسطى بأوروبا . وفى حضرموت أقيال كثيرون، ولكن أشهرهم كان فى دَمّون وشبام وهينن والعروض وعندل والشحر ، ويعرف أصحاب المحافد بالأذواء جمع ذو أى صاحب . وقد جمع الحميرى أسماءهم فى قصيدته الآتية :

أين المثامنة الملوك وملكهم ذلوا لصرف الدهر بعد جماح
ذو ثعلبان وذو خليل ثم ذو شجر وذو جدن وذو صرواح
أو ذو مغار بعد أو ذو جرفز ولقد محا ذا عثكلان ماح
أو ذو مراثد جدنا القيل ابن ذى شجر أبو الأذواء رحب الساح
وبنوه ذو فين وذو سفر وذو عمـــران أهل مكارم وسماح
والقيل ذو ربيان من أبنائه راح الحمام إليـــه بالرواح
أو أين ذو الرحين أو ذو يرحم سقيا بكأس للمنون ذباح
أم أين ذو بهر وذو يزن وذو نوش وذو نوح وذو الأنواح
أم أين ذو فيقان أو ذو أصبح لم ينج بالإمساء والإصـــباح
أم أين ذو الشعبين أصبح صدعه لم يلتئم لمثقف الأقداح
أو ذو حوال حيل دون مرامه أو ذو رعـــين لم يفز بفلاح
أم أين ذو عمدان أو ذو فائش
أو ذو الكناس وذو الكلاع ويحصب
أضـــحوا وهم للنائبات أضاحى
أم أين ذو فنان أو ذو أقرع أو ذو الجناح هزبر كل كفاح
أو ذو العبير وذو ذرانج خانه دهر بعيـــد اليسر كالذلاح
أم أين ذو بينين أم ذو أنمر وبنو شراحيـــل وآل شراح
أم أين ذو وثاب وذو هكر وذو نمر وذو ضر وذو المسراح
أم أين ذو غيمان أو ذو شودن الـــلاهى ببيض فى النساء ملاح
أم أين ذو شهران أو ذو ماور أضحت ديارهم بلا قداح

أم أين ذو فهــد وشهال ابنه فلقد عفاهم دهرهم بمتاح
أم أين ذو شحط وذو تبع معا أو ذو ملاح لهو خــير ملاح
أم أين ذو أوسان أو ذو ماذن أم أين ذو التيجان والأبراح
وعياهل من حضرموت من بنى أجماد ذى الأشبال آل صباح
والغرّ من جــدن وابنا مرة وبنى شــبيب والألى من ناح
وبنى الهزيل وآل فهد منهم من كلّ هشّ بالندى مرتاح

وكانوا يتغازون ويتنازعون ، يهجم القوىّ على من دونه فيتغلب عليه ويستولى على أملاكه ،فاذا امتدت سلطته واتسع نفوذه وطار صيته ، كوّن مملكة وسمى نفسه ملكا. وعلى هذه الكيفية تكوّنت الممالك ، ونشأت الدول فى جزيرة العرب .

الدولة الحميرية

HOMERITAE

من سنة ١١٥ ق م — ٥٢٥ ب م

كان الحميريون يقيمون فى ريدان (ظفار) ولما ضعفت دولة السبائيين Sabaei تغلب عليها الحميريون واستولوا عليها، وحكموا ريدان وسبأ معا . ثم طمع الحميريون فى حضرموت ، فاستولوا عليها فى عهد شمر يرعش .

وتنقسم الدولة الحميرية إلى دورين : فأصحاب الدور الأول كانوا يحكمون ريدان وسبأ ، وهؤلاء لايهمنا ذكرهم . والثانى : وعددهم ١٣ ملكا حكموا سبأ وحضرموت وظفار التى صارت وقتئذ تابعة لحضرموت ومن أعمالها .

وهذه أسماؤهم ومدة حكمهم من سنة ٢٧٥ — ٥٢٥ م :

اسم الملك	مدة الحكم
شمر يرعش	٢٥
ذوالقرنين أو افريقس	٢٠
عمرو زوج بلقيس	١
بلقيس وتسمى الفارعة	١٥
الهدهاد أخوها	٢٩
ملكيكرب بو ينعم	١١
أبو كرب أسعد بن ملكيكرب	٣٥
حسان بن أسعد	٥
شرحبيل يعفر بن أسعد	٣٠
شرحبيل ينوف	١٥
معدى كرب ينعم وابنه لحيعة	٢٥

اسم الملك	مدة الحكم
مرثد اللات ينوف	٢٠
ذو نواس	١٠

هذا ما ذكره اليونانيون . وتأيد بعضه بما وجد منقوشا على بعض الآثار[١] ، ولكن تعدادهم هذا لم يكن مقطوعا به ، فلا ينهض حجة فى الموضوع ، إذ ربما كان هناك أسماء ملوك آخرين لم يقفوا عليها فى الآثار التى لاتزال مدفونة فى الرمال ، وفى بطون الأودية والجبال . أما العرب فقد خالفوا ما ذكره هؤلاء من بعض الوجوه : فقالوا : إن عدد ملوك حمير الذين حكموا حضرموت ٢٦ ، ومدة حكمهم ١٧٠٠ . وهذه أسماؤهم ومدة حكمهم :

اسم الملك	مدة الحكم	اسم الملك	مدة الحكم
الحارث الرائش	١٢٥	أبرهة ذو المنار	١٨٣
أفريقس بن أبرهة	١٦٤	حسان بن تبع	٧٠
العبد ذو الاذعار	٢٥	عمرو بن تبع	٩٣
هداد بن شراحيل	٧٥	عبيد كلال	٧٤
بلقيس بنت هداد	٢٠	تبع بن حسان	٧٨
ناشر ينعم	٨٥	مرثد بن عبيد	٤١
شمر يرعش	٣٧	وليعة بن مرثد	٤٧
أبو مالك	٥٥	أبرهة بن الصباح	٠٠
تبع بن الأقرن	٥٣	أصبهان بن محرث	١٥
ذو جيشان	٧٠	حسان بن عمرو بن تبع	٥٧
الأقرن بن أبى مالك	١٦٣	ذو شناتر	٧٢
كليكرب	٣٥	ذو نواس	٢٠
أسعد أبو كرب	١٢٠	ذو جدن	٨

(١) بلغ عدد الآثار التى اكتشفت من جنوب بلاد العرب نحو ١٥٦٠ نقشا ، وأشهر أولئك المكتشفين ادورد غلازر ، ويوسف هاليفى ، ويوليوس أويتن ، وتوماس ارنو .

ومما دوّنته التواريخ ، وحفظته بطون الأوراق ، أن دولة حمير دولة قوّة وفتح وحضارة ومدنية ، فشمر أبو كرب أوّل ملك حميرى حضرمى ، اخترق بجيشه شمال الجزيرة العربية ، وغزا العراق وفارس ، واحتلّ مدينة الصغد وراء جيحون ، وهناك بنى مدينة شمركنت التى عرّبت فقيل سمرقند .

ومن مشاهيرهم إفريقس ، فقد اخترق شمال أفريقية ، وفتح المغرب ، ونقل قبائل عربية إليها . ومنهم أسعد أبو كرب ، وطئ أرض أذربيجان واحتلها ، وحارب الترك ، وبعث ابنه حسانا إلى الصغد ، وابنه جعفرا إلى القسطنطينية والروم ، فقدّم له أهل القسطنطينية الجزية ، وسار إلى دومة وحصرها ، فأصيب بعض عسكره بالطاعون ، فاستضعفهم الروم وحاربوهم ، فقتلوهم جميعا . وأرسل ابن أخيه شمر ذا الجناح إلى الفرس ، فهزمهم ، وغزا الصين ، فوجد حسانا قد سبقه إليها ، فغلبا الصين ، وانصرفا بما معهما من الغنائم العظيمة . وقيل إن قوما من الحميريين أعجبتهم بلاد الصين فاستوطنوها ، واندمجوا فى أهلها ، وتخلقوا بأخلاقهم . وفى سنة ٣٤٥ م غزا الأحباش الحميريين ، واستولوا على اليمن وحكموها سنة ٣٧٤ ، ولكن حضرموت لم تدخل فى حكمهم ، ولم تخضع لسلطتهم ، سواء فى أيام العلى اسكندى ، أو فى عهد ولديه عيزاناس وسازاناس ، فهى حافظت على استقلالها . وفى أواخر سنة ٣٧٤ م استردّ اليمن ملكيكرب ، وفى القرن السادس غزا نجران ذونواس ، ويسميه اليونانيون دميانوس ، وكانت النصرانية قد انتشرت فيها ، وكان هو متعصبا لليهودية فاستولى عليها وعرض على أهلها اليهودية فامتنعوا ، فوضعهم فى أخاديد وأحرقهم ، وهدم بيعهم ، ولما بلغ ذلك النجاشى ملك الحبشة أرسل سبعين ألفا تحت قيادة أرباط إلى اليمن ، وأثخنوا فى القتل ، وفرّ ذو نواس خوفا من الأسر ، وأقحم فرسه البحر ، فمضى به فرسه وغرق ، واحتلّ أرباط اليمن ، وهدم الحصون ، وبعث بالسبى إلى ملك الحبشة رجالا ونساء وأطفالا ، وكانت مدة حكمهم ٧٤ سنة ، منها ٢٠ سنة لأرباط و ٢٣ لأبرهة و ١٩ ليكسوم و ١٢ لمسروق ؛ وفى كل عهود هؤلاء الملوك

حافظت حضرموت على استقلالها ولم تخضع لهم فى أىّ شأن من شئونها الداخلية أو الخارجية ، كما حافظت على استقلالها فى عهد استيلاء الفرس على اليمن [١] .

نظام الدولة الحميرية السياسى والاجتماعى

كان نظام حكم الحميريين فى حضرموت يخالف فى بعض نواحيه نظام حكمهم فى اليمن ، فالحكومة فى اليمن وراثية ، تنتقل إلى الأبناء أو الإخوة ، أما فى حضرموت فإن الملك ينتقل إلى أوّل مولود من الأشراف والنبلاء (العائلة الملكية) ولد فى أثناء حكمه ، فعند الاحتفال بتوليه الملك يرفع إليه خاصته قائمة بأسماء النبيلات الحوامل ، فيعين الملك لكل منهنّ امرأة تقوم بمراقبتها وخدمتها حتى تضع ، فأوّل نبيلة تلد غلاما يأمر الملك بمن يعتنى بتربيته ويقوم بتهذيبه وإعداده للملك .

والملك عندهم مطلق التصرّف ، ولكن فى حدود العدل والرحمة ، والشعب طوع أمره ورهن إشارته ، وليس للسجون والعقوبات قوانين مكتوبة ، ولم يكن للمسجونين مدة معلومة ، فالملك هو المتصرّف ، يسجن ويسرح ويقتل ويعذّب متى شاء ، وقد يفدى المسجون نفسه بالمال ؛

ومن عادات الملك أنه يحلق لحيته وشاربه ، ويضفر شعوره جدائل يرسلها خلفه وعلى كتفيه ، وحين ينزل من قصره يركب فرسا أو مركبة تجرّها الخيول ، وفى صنعاء تجرّ المركبات الأفيال التى أتى بها الأحباش أثناء احتلالهم اليمن ، ولباسه الرسمى مئزر محوك بالذهب ، وأساور ثمينة يضعها على ذراعيه ، ويحمل بيده رمحين تحفّ به حاشيته ، مدججين بالسلاح ، يتغنون بتعظيمه وذكر فضائله .

وكان الملوك ينقشون على النقود صورهم وأسماءهم وأسماء المدن التى ضربت فيها بالحرف المسند (الحروف الحميرية) وأحيانا ينقشون صورة الثور أو الصقر أو البومة ؛ وفى المتحف الأدبى بفينا توجد مجموعة قيمة من تلك النقود .

---

(١) كان مسروق الحبشى جبارا ظالما ، فاشتكى أهل اليمن إلى سيف بن ذى يزن الحميرى ما يجدونه من تحكم الأحباش فيهم ، فحاربهم واستخلص البلاد من أيديهم بمساعدة كسرى أنوشروان ، وأثخن فى القتل حتى لم يبق منهم فى اليمن سوى مائة نفس اتخذهم عبيدا له ، وفى ذات يوم خرج سيف بن ذى يزن إلى الصحراء متصيدا ، فقتلوه بحرابهم وهربوا ، فأرسل كسرى وهرز بن كامجار حاكما على اليمن من قبله ، فبقيت خاضعة لفارس إلى أن افتتحها المسلمون سنة ١٣ هـ .

وينقسم الشعب إلى ثلاث طوائف :

١ — حملة السلاح ، وهؤلاء يحمون البلاد ، ويحفظون الأمن ، ويحرسون القوافل ، ومنهم تتكوّن حاشية الملك وأعوانه وحرسه .

٢ — الزراع ، وهؤلاء عليهم فلاحة الأرض وزراعتها ، وحفر الترع ، وإقامة السدود لحفظ السيول وتوزيعها على المزارع والحقول والحدائق والبساتين .

٣ — التجار وأهل الحِرَف ومن يلحق بهم كالعمال .

ازدهار التجارة فى عهدهم

الشحر

بالرغم عن اشتغال الدولة الحميرية بالحروب والفتح ، واهتمامهم بالدفاع عن بلادهم ، والذود عن حوضهم من اعتداء المعتدين وتطاول الطامحين ، فقد وجهوا أقصى عنايتهم ، ومنتهى جهدهم لترقية التجارة ، وبذلوا كلّ مقدور لتنشيط العلائق التجارية ، وتوثيق الروابط الاقتصادية بينهم وبين الهند وسواحل أفريقية الشرقية ، وبينهم وبين نجد والحجاز والشام ومصر ، وكانت مدينة الشحر أعظم ميناء وأكبر مركز تجارى فى جنوب الجزيرة العربية ، تأتيها السفن من الهند والخليج الفارسى ، ومن سواحل أفريقيا الشرقية ، ومن مصر مشحونة بأصناف السلع وأنواع المتاجر ، وكان أغلب هذه السفن للحضرميين ، وهم بأنفسهم كانوا يتولون قيادتها وتسييرها فى عباب المحيط الهندى والخليج الفارسى والبحر الأحمر ، كانوا يأتون من الهند بالدرّ والياقوت والزبرجد والعاج والأطياب وخشب الأبنوس والتوابل والقطن والقصدير . ومن سواحل أفريقيا بالذهب والعاج والعطور وخشب الأبنوس وريش النعام . ومن البحرين باللؤلؤ ، وكانت مدينة شباه (شبام) [1] ويسميها اليونانيون

(١) كان يسكنها بنو فهد . قال الهمدانى : فلما احتربت حمير ومذحج خرج أهل شبوة (مدينة لحمير بين بيحان وحضرموت) من شبوة فسكنوا حضرموت وبهم سميت شبام ، وكان الأصل فى ذلك شباه ، فأبدلت الميم من الهاء .

Sabotta تبعث إلى الشحر حاصلات حضرموت الداخلية كالبخور واللبان والمرّ واللادن وما إلى ذلك .

قال بطليموس : إن هذه الأصناف وغيرها من واردات الهند وسواحل أفريقيا الشرقية تحملها القوافل من حضرموت مخترقة رمال الدهناء إلى دوان ، ثم تسير غربا إلى نجد ثم إلى الحجاز ، ومن هناك يستلمها المديانيون والأنباط ويذهبون بها إلى مدائن صالح ، فإلى بترا [١] ومن بترا تسير إما إلى مصر أو إلى فلسطين وإلى صور وغزة وغيرها من شواطىء البحر الأبيض المتوسط ، وكان القريون [٢] وغيرهم من التجار الحضرميين يفضلون حمل متاجرهم على القوافل بالبرّ لما فى البحر الأحمر من الأنواء وأخطار القرصان ، ولكن لما تولى عرش مصر سيتى الأول من العائلة التاسعة عشرة ، وقيل ابنه سيزوستريس Sésostris وهو رعمسيس الثانى ميامون فرعون مصر ، احتفر القناة الموصلة بين النيل والبحر الأحمر ، وأرسل سفنه التجارية إلى الشحر وغيرها من موانى جنوب جزيرة العرب ، فاتجهت أنظار الحضرميين إلى إرسال متاجرهم بطريق البحر الأحمر ، فارتقت الملاحة وانتعشت الأسواق الحضرمية وزادت التجارة نشاطا وحركة ، فتضاعفت المكاسب وعظمت الأرباح واتسعت ثرواتهم اتساعا ما كانوا يحلمون بمثله من قبل ، فقد كانت تكاليف حمل المتاجر بالبرّ أضعاف تكاليفها بالبحر لبعد المسافة ، ولأن الخفراء كانوا يأخذون نصف الأرباح ؛ ولما مات سيتى أوسيزوستريس أهملت القناة ، فتعطلت ولم يهتم المصريون بالأسفار ، فبطلت الملاحة المصرية وانكمشت الملاحة الحضرمية ، وتقلصت مواصلاتهم فى البحر الأحمر ، لكن لم تطل المدة على تلك الحال حتى نهض ملك أورشليم سليمان ، وأنشأ السفن فى عصيون جابر Asion Gaber على مقربة من أيلة (العقبة) من بلاد أدوم « ايدوميا » ، وقد ورد ذلك فى التوراة « كتاب الملوك الأول سفر ٤ ، إصحاح ٣٣ ، عدد ٣٥ ، ٣٦ » . وقيل إنه اتحد على بناء السفن مع حيرام [٣] حيث أمده هذا بالنجارين

---

(١) هى عاصمة مملكة أيدوم القديمة وإحدى عجائب الآثار ، منقورة فى الصخور ، واقعة على الحد الشمالى الغربى لصحراء العرب بين خليج أيلة (العقبة) والبحر الميت .

(٢) انظر صفحة ٥٢ من هذا الجزء ، وسيأتى الكلام عليهم فى الجزء الثانى .

(٣) هو ملك صور فى عهد الملك سليمان ، ويسمى أيضا حيروم أو حورام ورد ذكره فى التوراة (إصحاح ٨ عدد ١٧ من الأخبار) قال : حينئذ ذهب سليمان إلى عصيون جابر وإلى أيلة على شاطىء البحر =

والعمال ، ووافاه بالمقادير الوافرة من أجود الخشب وأغلاه لبناء السفن ، ثم أرسلا السفن تجرى فى البحر الأحمر والمحيط الهندى والخليج الفارسى وترسو فى ميناءى الشحر وزفر (ظفار) وغيرهما من موانى جنوب جزيرة العرب وسواحل أفريقيا والهند الغربية والخليج الفارسى ، فاتجهت أنظار الحضرميين إلى إرسال متاجرهم بالبحر ، فعادت ملاحتهم إلى نشاطها الأول وانتعشت أسواقهم من جديد .

ولما توفى سليمان ملك بنى إسرائيل لم يهتمّ حيرام ملك صور بالأسفار ، فتعطلت الملاحة وعاد الحضرميون إلى القوافل . ولقد كوّن الحضرميون جالية كبيرة فى الهند فى جدروزيا الواقعة بين جبل كربيلا ومصبّ نهر السند ، وبنوا هناك مدنا ، وأنشأوا أسطولا يغدو ويروح بين الهند وجنوب جزيرة العرب بأصناف المتاجر وأنواع البضائع ، وكوّنوا هناك سلطة دونها كل سلطة ، ونفوذا دونه كل نفوذ ، وقبضوا على زمام التجارة ، واحتكروا غلات البلاد .

قال العلامة المسيو جليان Mr. Guillain فى كتابه :

" Documents sur l' Histoire, la Geographie et le Commerce de l' Afrique Orientale "

« وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية فى أفريقيا الشرقية » :

« قبض العرب منذ أقدم العصور على زمام التجارة البحرية وبخاصة فى الشرق ، فكانت سفنهم هى الوحيدة التى تجرى فى المحيط الهندى ، وبخاصة فيما بين بلادهم والهند التى كانت لهم جالية كبيرة على سواحلها قرب نهر السند هى التى أسماها الهنود « عربتو Arabitoe » أى العرب . ولما أرسل إسكندر المقدونى قائد أسطوله نيارك Néarque لاستكشاف بحر الهند ، وجد بسواحل جدورزيا آثارا دالة على نفوذ العرب من مدن عربية وأساطيل عربية ، وكان الربان الذى أرشده فى ذلك البحر عربيا » .

فى أرض أدوم ، وأرسل له بيد عبيده سفنا وعبيدا يعرفون البحر ، فأتوا مع عبيد سليمان إلى أوفير — زفر (ظفار) وأخذوا هناك ٤٥٠ وزنة ذهب وأتوا بها إلى الملك سليمان » .

حضارة حضرموت

بلغ الحضرميون فى المدنية والحضارة مبلغا ليس له فى عهدهم مثيل؛ فقد بنوا القصور الشاهقة وعمروا المدن الواسعة ، ووضعوا الهياكل والتماثيل واحتفروا الترع والسواقى ، وأنشأوا السدود الضخمة يحجزون بها المياه ويسقون المرتفعات من الأرض والمنخفضات منها ، وعبّدوا الشوارع واغترسوا الحدائق والبساتين ، كانوا فى ترف ونعيم لباسهم من أفخر الأنسجة ، ورياشهم من الحرير ، وآنيتهم محلاة بالذهب ، وأثاثهم مزين بالذهب والفضة والجواهر .

قال العلامة لنورمان نقلا عن أغاثر سيدس فى الجزء الثالث من كتابه :
" Manuel de l'Histoire Ancienne de l'Orient ,, « خلاصة تاريخ الشرق القديم» :

إن قصورهم قائمة على الأساطين المحلاة بالذهب ، وإنهم يعلقون على أبواب منازلهم صحائف الذهب المرصعة بالجواهر ، تحيط منازلهم بساتين غناء ولديهم الموائد والأسرّة من الفضة والرياش من أفخر الأنسجة ، إلى آخر ما هناك مما يفوق التصديق ، ومما لاشكّ فيه أن سبب غناهم هذا اتجارهم بحاصلات الهند من العقاقير وما إليها ، وبغلال سواحل أفريقية الشرقية وإلى الخليج الفارسى وإلى مصر » .

قال العلامة المسيو جليان Mr. Guillain فى كتابه : " Documents Sur L'Histoire, la Geographie et le Commerce de l'Afrique Orientale ,,
« وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية فى أفريقيا الشرقية » :

« إن العرب— كانت بلادهم مركز التجارة بين الشرق والغرب ، وهم الذين اكتشفوا لأول مرّة تلك البلاد الكائنة جنوبى بوغاز باب المندب والسفال ، ثم إن غيرهم من الأمم لم تصل إلى هذه الأراضى إلا بعدهم وبواسطتهم ؛ فالأمم الأخرى مثل الإسرائيليين وأهل صور والمصريين واليونان الرومان وأخيرا البرتقاليين لم يكن

وصولهم إلى تلك الأراضى إلا أمرا مؤقتا ، أما العرب فهم الذين تواصل وجودهم بها، كما كانوا هم السابقين لغيرهم إليها » .

المعارف فى عهد الحميريين

كان للحضارم معرفة تامة بمواقع النجوم ، وأوقات مطالعها ومغاربها ، وكانوا يعلمون بأنواء الكواكب وأمطارها ، ولكن هذا العلم لم يأت عن طريق تعلم الحقائق ، بل أدركوه بفرط الذكاء وكثرة العناية وطول التجربة ، وكانوا يتفاخرون رجالا ونساء بالفصاحة والبلاغة ونظم الأشعار وتأليف الخطب ، وكانت الشحر وهينن ودمُّون أشبه بأسواق عكاظ والمربد والمجنة ، حيث كانوا يجتمعون هناك فى مواسم معلومة ، فيلقى كل شاعر شعره وكل خطيب خطبته ، ويصف كل شاعر وكل خطيب ما عمله هو أو غيره من خير وإصلاح ،وما تكبده من الأخطار والأهوال ،وقد يقوم فيهم حكيم فيعظ الناس ويرشدهم إلى الخير ويهديهم الصراط الأقوم؛ولقد حازت كندة الدرجة الأولى فى الفصاحة والبلاغة على جميع قبائل حضرموت ، حتى إن كثيرا من أهل البلاد النائية كدوعن وغيرها يشدون الرحال إلى دمون ليشاهدوا مباراة أصحاب الكلام من الكنديين ،فيتعلم أولئك النزلاء شيئا كثيرا من ذلاقة لسانهم ،وحلاوة لهجتهم ، فى مجتمعات دمون ، ووضوح معانى أشعارهم وخطبهم . قال امرؤ القيس :

كأنى لم أسمر بدمون مرة ولم أشهد الغارات يوما بعندل

وكانوا يكتبون بالحرف المسند (الحروف الحميرية) ، ولقلة الورق كانوا يكتبون فى الجلود وفى ألواح الخشب ، وإذا كان ما يراد كتابته أمرا هاما ، فإنهم يكتبون على الصخور الصلدة ، لذلك نجد كتابات كثيرة على جبال حضرموت .

أما الحروف العربية ، وكذا أسماء الأيام والشهور فلم تكن معروفة فى حضرموت إلا بعد ظهور الإسلام .

الحرف المسند أو الأبجدية الحميرية

وما طرأ عليها من التغيير

ا —
ب —
ت —
ث —
ج —
ح —
خ —
د —
ذ —
ر —
ز —
س —
ش —
ص —

ض —
ط —
ظ —
ع —
غ —
ف —
ق —
ك —
ل —
م —
ن —
و —
ه —
ي —

(أسماء الأيام)

جاءت أسماء الأيام منظومة في البيتين الآتيين :

أؤمل أن أعيش وإنّ يومى بأول أو بأهــون أو جبار
أو التالى دبار فإن يفتـــنى فمونس أو عروبة أو شـــيار

شيار : السبت	دبار : الأربعاء
أول : الأحد	مؤنس : الخميس
أهون : الاثنين	عروبة : الجمعة
جبار : الثلاثاء	

(أسماء الأشهر)

المؤتمر : محرم	الأصم : رجب
ناجر : صفر	عادل : شعبان
خوّان : ربيع الأول	نافق : رمضان
بصان : ربيع الثانى	وغل : شوّال
حنتم : جمادى الأولى	هواع : ذوالقعدة
رباء : جمادى الثانية	برك : ذوالحجة

أما الملاحة فقد كان للحضرميين الحظ الأوفر منها كما شرحنا ذلك . وأما الصناعة فكانت لهم مهارة عظيمة فى النسج ، وكانت الشحر أعظم مركز لمعامل النسج ، ولهم مهارة فى صناعة الحلىّ الدقيقة ، وزخرفة الآنية وصناعة الأثاث ، وتركيب الروائح الطيبة ، وتحضير البخور وجنى القرفة وعيدان الدارصينى واللادن والمر .

قال هيرودتس : « وبلاد العرب فيها وحدها البخور والمرّوالقرفة والدارصينى واللادن ، والعرب يجنون كلّ هذه الأشياء بتعب جزيل إلا المر . ولاجتناء البخور يحرقون تحت الأشجار التى تولد صمغا يسمى ميعة ، يأتى به الفينيقيون إلى الأغارقة فيحرقون هذا الصمغ تنفيرا لنوع من الحيات الطيارة التى تأوى إلى تلك الأشجار ، ولا تذهب منها إلا بدخان الميعة . أما القرفة فلما يذهبون لجنيها يغطون أبدانهم ووجوههم إلا الحدق بجلود الثيران ، والقرفة تنبت فى بحيرة قليلة المياه ، تسرح حولها حيوانات كالخفافيش تصيح صياحا هائلا ، وهى شديدة الأذى ، فيتقى العرب أذاها بهذه الجلود ريثما يجنون القرفة . وأما الدارصينى فيجنى بطريقة أعجب من الأولى ، والعرب أنفسهم لايعرفون من أين يأتى . ويزعم البعض أنه ينبت فى البلاد التى تربى بها

باخوس . وأن طيورا تحمل عيدان الدارصيني لتبني بها أعشاشها مع الطين في جبال وعرة بعيدة عن المدن ، لايستطيع الإنسان الوصول إليها ، والعرب يقال إنهم يحتالون في الحصول على هذه العيدان بقطع من لحوم البقر أو الحمير يضعونها في أقرب مكان من العش ، فيأتي الطير ويحملها إلى فراخه ، وحالما يضعها في العش تثقله ، فيسقط ، فيتناول العرب عيدانه ويتجرون بها . أما اللادن فطريقة جنيه أعجب من هذه ، لأنهم يجدونه في لحى التيوس والماعز كالعفن الذى يتولد على الخشب فيدخلونه في تركيب طيوب كثيرة . والعرب يتطيبون باللادن خصوصا . وبلاد العرب ذكية الرائحة حيثما سرت . وفيها نوعان من الغنم . أحدهما ذيله يزيد طوله على ثلاثة أذرع إذا أرسلوه انسحب وراء الغنم وتقرح . والنوع الآخر عرض ذيله ذراع » .

الزراعة

لاتوجد في حضرموت أنهار سوى نهر واحد في حجر ، ولكن هناك عيون غزيرة في الجبال . وأهم هذه العيون وأغزرها ماء عيون تاربة ، وهذه كانت تسقي جميع ما حولها من الأراضي (الشروج ، وغيل بدر بن عبد الله) . وعيون وادي جذع التي لاتزال آثارها من سواقي وأحواض باقية إلى اليوم . كانت هذه العيون تسقي جميع أراضي الحوير بين مريمة والقرن من ضواحي سيوون . وفي هذه الأراضي كان يزرع أجود الأعناب وأغلاها وعيون جبل القزة وهناك كانت تزرع الحنطة بكثرة .

أما العيون التي بقرب الشواطئ ، فهي عيون غيل باوزير ، وعيون جبال المكلا ، وعيون ميفع .

وكانوا يبنون السدود الفخمة لحجز مياه الأمطار ، ولها فتحات يخرج منها الماء فينساب في ترع منظمة ، ويغمر المرتفعات من الأرض والمنخفضات منها ، فكانت حضرموت كلها بساتين غناء ومروجا خضراء وغياضا فيحاء ، فيها الأغراس من الأشجار والرياحين والحنطة والفواكه كالأعناب والخوخ والكمثرى والبرقوق والإجاص والتفاح واللوز والجوز والسفرجل والرمان وغير ذلك .

القريون[1]

لم يذكر المؤرّخون من العرب كثيرا عن القريين ، ولكن الفرنجة ذكروهم وكتبوا عنهم فصولا طويلة ، ووصفوا ماكان عليه القريون من الترف والبذخ . قال أغاثرسيدس : إنهم أغنى أهل الأرض ، وسبب غناهم اتجارهم بغلات بلاد العرب والهند . وقال استرابون : إنهم يتمتعون بكل أسباب السعادة والهناء ، فرشهم ثمينة وآنيتهم من الذهب والفضة ، يزينون جدران منازلهم بالذهب والفضة والعاج والحجارة الكريمة .

وقد اختلف هولاء فى موضع مدينتهم جرا Garra . قال بعض المورّخين : إنهم من أمم البحرين ، وإن جرا فرضة على الاحساء . وقال العلامة اليونانى استرابون Strabon إنها واقعة فى بقعة كثيرة الملح ، تبعد عن البحر بنحو ٢٠٠ ستادة (الستادة ثلث ميل إنجليزى) . وقال العلامة جليان Guillain : إن مدينتهم على الشاطئ الغربى للبحر الأخضر (الخليج الفارسى) وحضرموت على المحيط الهندى ، والذى أراه وأستنتجه من هذه الأقوال وبالأخصّ قول جيان أن مدينة جرا ، تقع على مقربة من مدينة ظفار جنوب جبال القرا ، وأنقاض المدينة لاتزال قائمة ، وكثير من البيوت مطمور تحت الرمال .

المعادن

لعل أكثر القرّاء يندهشون من بذخ الحميريين وترفهم ، ولعلهم لايؤمنون بما كان يستعمله أولئك الأسلاف من الذهب والفضة والجواهر فى أثاثهم وآنيتهم وحيطان بيوتهم وأبوابها ، لأن بلاد العرب — كما يزعمون — ليست كلفورنيا أو أرجنتينا فى معادنها ، وإنما هى صحارى جدباء ورمال غبراء وجبال جرداء ، ولو كانت هناك مناجم لكان لها اليوم أثر . والحقيقة أن ماقيل فى حضارة الحميريين حقّ باتفاق

(١) سيأتى الكلام عليهم فى الجزء الثانى .



(أنقاض مدينة (بلد) جنوب جبال القرا)

المؤرخين وأن بلاد العرب كانت تشبه كلفورنيا وأرجنتينا فى معادنها ، وأكثر هذه المعادن فى بلاد مدين ، وقد ألف العلامة برتون Burton كتابا أسماه : The Gold Mines of Médian « معادن الذهب فى مدين» وصف فيه مناجم بلاد مدين وما كان يستخرج معها من الذهب والفضة والفصوص والبلور . ثم إن هناك مدينة ظفار ، كان بها أعظم منجم للذهب فى عهد بلقيس إلى ما بعد ظهور الإسلام . قال المسيو جليان Guillain : إن العرب كانوا يستخرجون منها الذهب ، وإن لهم فيها

مقابر لاتزال مشهودة ، وقد رآها الكابتن بانجر الفرنسى ، وعلى قبرياتها أسماء أصحابها منقوشة بالعربية ، وهم الذين أسموها ظفار . وجاء فى التوراة (إصحاح ٨ عدد ١٧ من الأخبار) قال : « حينئذ ذهب سليمان إلى عصيون جابر وإلى أيلة على شاطىء البحر فى أرض أدوم ، وأرسل له حورام بيد عبيده سفنا وعبيدا يعرفون البحر ، فأتوا مع عبيد سليمان إلى أوفير (ظفار) وأخذوا هناك ٤٥٠ وزنة ذهب وأتوا بها إلى ظفار الملك سليمان » .

أما موقع مدينة أو فير فقد اختلف المؤرخون فيه وأتوا بأقوال متضاربة . قال العلامة جيان : إنها فى الساحل الشرقى فى قارة أفريقيا ؛ وقال آخر : إنها فى الهند ؛ وقال المرحوم أحمد زكى باشا : إنها مدينة وبار ؛ وقال المستشرق الفرنسى كاترمير Quatremére : إنها على ساحل بلاد العرب ؛ وقال العالم الجغرافى الفرنسى جوزيف جوسلن Gosselin فى الجزء الثانى من كتابه الموسوم « أبحاث » فى الجغرافيا الأصولية عند الأقدمين » : إن أوفير هى ظفار . هكذا اختلفت آراء العلماء وتضاربت أقوالهم . فإذا فرضنا أن أوفير فى الهند أو فى سواحل أفريقيا الشرقية فإن هذا يجعلنا نشك فيما قاله المؤرخون إن الحميريين كانوا يصنعون آنيتهم وأثاثهم من الذهب ، ويزينون حيطان غرفهم بالحجارة الكريمة ، ويعلقون أمام منازلهم صحائف الذهب المرصعة بالجواهر ، إذ ليس من المعقول أن يأتوا بتلك المعادن الثمينة من الهند أو من سواحل أفريقيا الشرقية ، والمسافة بينهم وبين تلك البلاد النائية بضعة شهور ، الأمر الذى يكلفهم مصاريف باهظة ومتاعب شاقة ؛ ليس من المحتمل أن يجلبوا تلك المعادن الغالية من البلاد القاصية ، ثم يصنعوا منها آنيتهم ويزينوا بها أثاثهم وبيوتهم . إذن فالقول ما قاله العلامة جوسلن Gosselin بأن أوفير هى ظفار ، وليس بين الكلمتين فرق مثلما بين ظفار ووبار .

أما عدم وجود أثر للمناجم اليوم ، فهذا لاينهض حجة فى عدم وجود معادن ألبتة . ومن المحتمل أن تكون هناك مناجم كثيرة لمعادن ثمينة لا تزال بكرا ، ولكن الجهل الضارب أطنابه فى جنوب الجزيرة العربية هو الذى أعمى الأبصار عن موقع تلك المناجم وحرمنا استغلال تلك الكنوز القيمة .

الآثار

لعاد وأقيال التبابعة وملوك حمير آثار قيمة وكنوز ثمينة لايزال أغلبها مطمورا تحت الرمال ومقبورا فى بطون الأودية والجبال ، فهناك أحجار وصخور عليها كتابات ورموز ونقوش لايوجد من يحلّ معماها ويطلع على أسرارها ، وهناك أيضا مغاير فى الجبال قيل إن فيها كنوزا وآثارا ، ولكن أغلب الأهالى يزعمون أنها مساكن الجنّ وقد حاول أفرادٌ دخول تلك المغاير فانطفأت المصابيح التى حملوها معهم لكثرة ثانى أكسيد الكربون وعادوا خوفا من أن يضلوا الطريق فيهلكوا .

وفى جبل القزة توجد فتحة كبيرة على شكل باب مستطيل رصفت أمامه صخور كسلالم للصعود ، وبداخل هذا الباب ممرّ متسع يوصل إلى دهاليز لاتعرف نهايتها ، ولا يعلم أحد ما بداخلها لشدة الظلام ، وعلى مقربة من هذا الكهف نقوش كثيرة وصور أقدام منقورة فى الصخور . وفى جبل حريضة توجد حفرة اسطوانية الشكل يقال لها بئر عمدان ، وفى نهاية هذه البئر فتحة مستطيلة الشكل حالكة الظلام ، تنبعث منها روائح كريهة لكثرة مافيها من الرطوبة وتحلل الصخور وبول الخفافيش ، ويعتقد الأهلون أن فيها كنوزا ثمينة ، ولكنهم لا يجرءون على الدخول فيها لزعمهم أن فيها عفاريت .

المشهد :

توجد فى المشهد أحجار كثيرة عليها كتابات ونقوش ويستعملها بعض الأهالى لبناء البيوت والآبار والسقايات ، وفى جنوبه على مسافة عشر دقائق منه تقوم أطلال غيبون ، وينسبها الناس إلى قوم عاد ، ويحتمل أن تكون بقايا مدينة حميرية لوجود كتابات بالحرف المسند ، وتوجد هناك تلال تعلو إلى ٣٠ قدما ، على سطوحها أنقاض حيطان مبنية من الأحجار المتماسكة ببعضها بنوع من الملاط ، وعلى المنحدرات بقايا أحجار عليها نقوش ، وعلى أحد هذه التلال بئر يبلغ اتساعها ٣٠ قدما وعمقها ٦٠ ، وعلى بعد ربع ساعة من غيبون تقوم أطلال أخرى تسمى مقابر الملوك ، وهى عبارة

عن حيطان فى الصخور قائمة على تلال متوسطة الارتفاع ، وعلى بعضها نقوش وكتابات .

واد عمد : (منطقة فقيرة وجافة ولكنها غنية بآثارها)

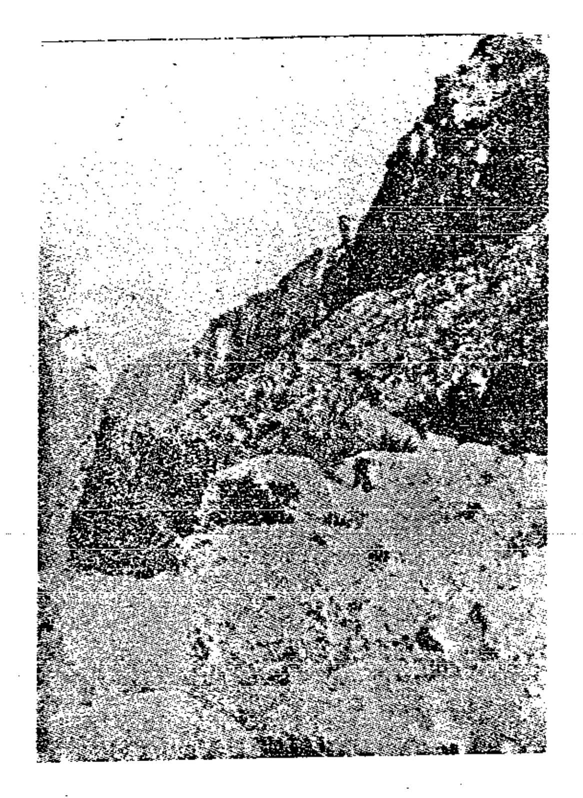
هكذا قال عنها السيدان ميان D. Va Ser Meulen وويزمان H. Von Wissmann حينما اخترقا هذا الوادى المنبسط فى مايو سنة ١٩٣١ ، فقد شاهدا هناك أغنى بقعة أثرية فى حضرموت ، وهى تمتد إلى مسافة ميلين ونصف ميل ، ولكن السيول قد أثرت عليها فجرفت بعضها ومحت معالمها ، وتدل تلك المخلفات الكثيرة على أنها كانت قديما تموج بالسكان .

ديار عاد :

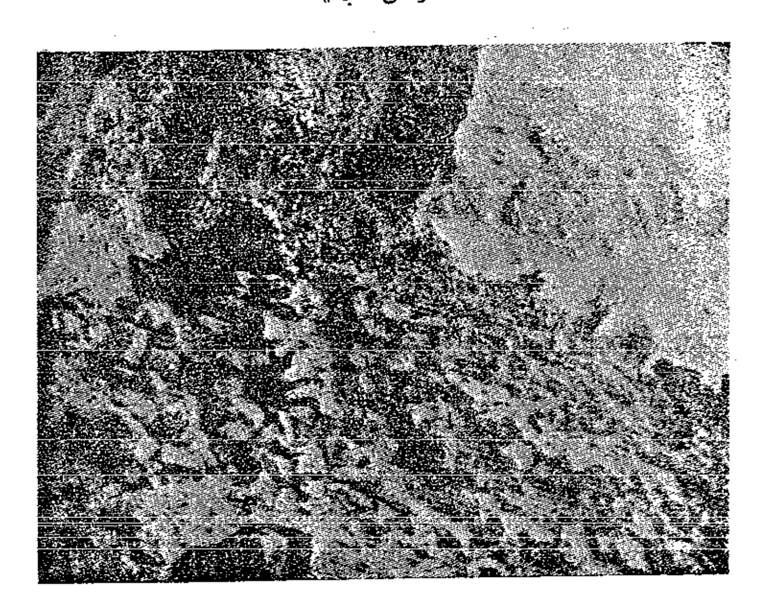
وفى وادى ثقب على مقربة من قرية بريرة توجد بقايا أبنية يقال لها ديار عاد ، وتوجد هناك مجار للسيول يبقى فى بعضها الماء طول العام . وتوجد بركة كبيرة بها ماء آسن ، وفيها أفاعى سامة ، وعلى مقربة منها وهدة عميقة بها بقايا منازل وأنقاض مساكن ، يبلغ طول الواحد منها عشرة أقدام وعرضه ستة أقدام ، وبعضها مسدد بالصخور مما يحتمل أن يكون فيها كنوز ، وعلى بعض الحيطان نقوش باللون الأحمر ، وهذه لمساكن مبنية من الصخر الطبيعى ومتماسكة ببعضها بالطين .

سون :

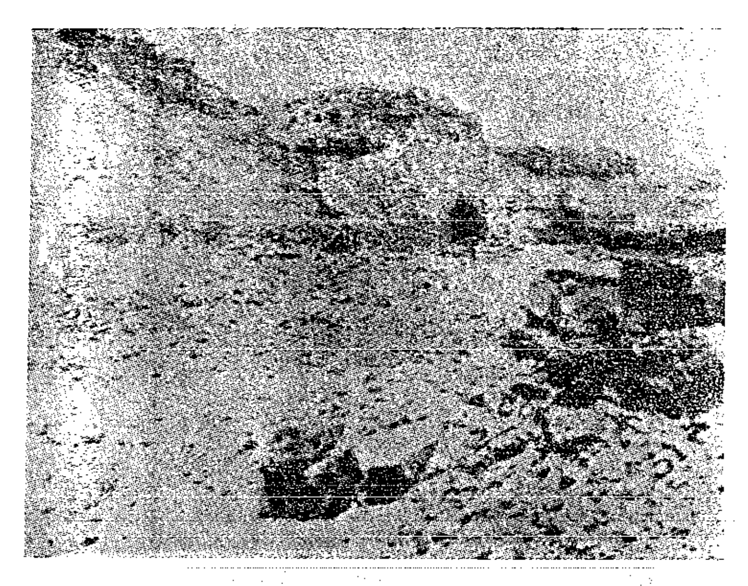
فى سون بالقرب من قرية رضيح توجد أطلال متهدمة لا تزال أسسها ترى على قمم الأكوام ، وهى من الحجر غير المنحوت ، وعلى إحدى القمم توجد أحجار هى بقايا نوع من الملاط ، وتوجد هناك جرار كثيرة عليها نقوش وأنقاض حائط ضخم من الصوان الطبيعى كان متصلا بالجبل ، وهو من بقايا سد كان يخترق الوادى فيما يرجع إلى ما قبل الإسلام ، وبين قسم وقبر هود عليه السلام توجد قرية خربة وقلاع كبيرة لايزال بعضها قائما بصورة تبعث فى القلوب الهيبة والوقار ، وفى فغما على مقربة من سوم توجد منطقة حافلة بالأطلال الضخمة ، وعلى مقربة منها تقوم أطلال حصن العر



« وادي ثقب »

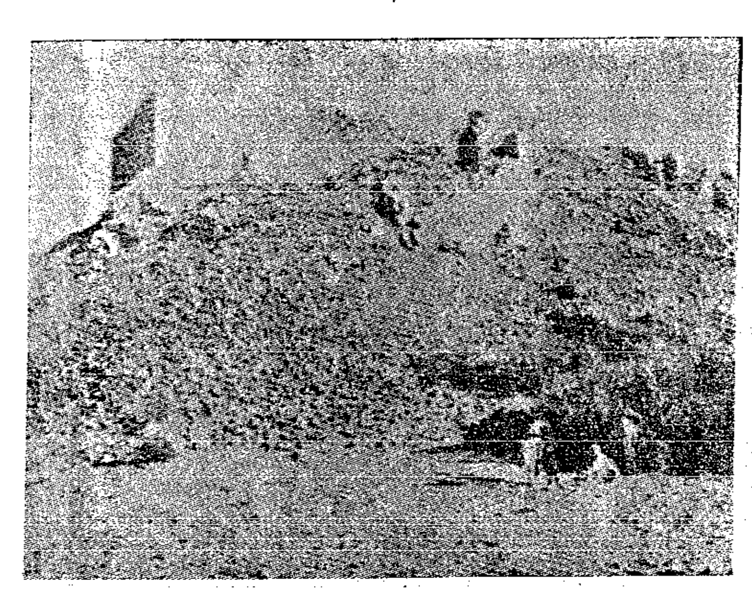


« ديار عاد »



« أطلال أثرية قرب سون »

وهى عبارة عن بقايا من الحيطان الضخمة يرجع عهدها إلى ما قبل الإسلام ، قائمة على تلّ منعزل ، ممتدّ إلى مسافة بعيدة ، شديد الانحدار ، وهذا الحصن المتهدّم كان فيما مضى قلعة تشرف على ذلك الإقليم ، وفى سفح التلّ توجد بئر مطمورة ، ولا



« أطلال حصن العر »

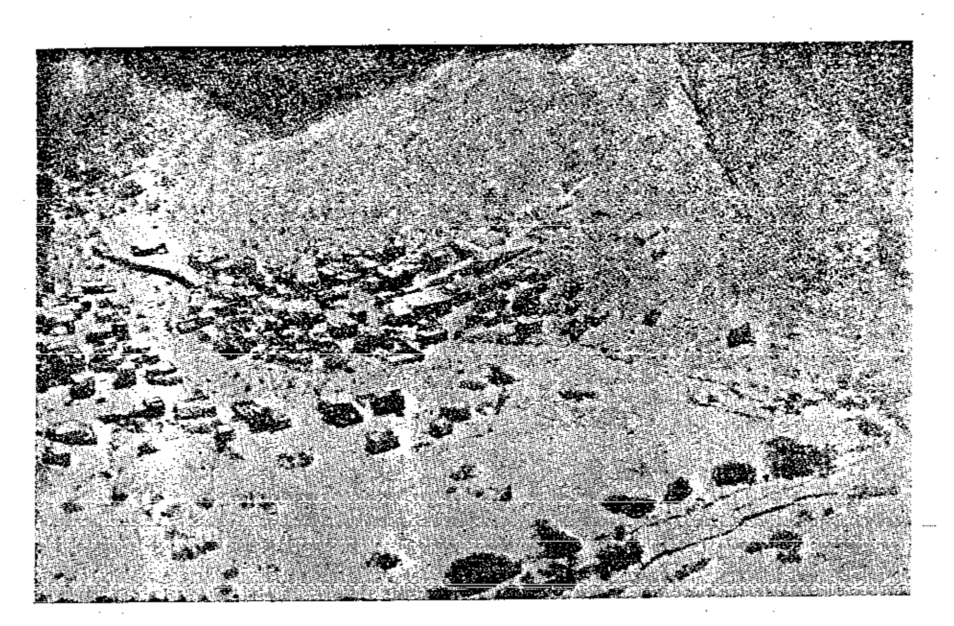
تزال آثار الطريق الذى يؤدى إلى القمة متميزة ، وما زالت بقايا الأبنية مبعثرة حول قمة التلّ على ارتفاع ٥٠ قدما ، وهناك ممرّ صغير فى الصخر ، منحدر من الجهة الجنوبية الشرقية ، حيث توجد بضع درجات كانت المدخل الرئيسى للقلعة ، وعلى الأعمدة المتهدمة نقوش دقيقة تدلّ على مهارة صانعها ، فقد رسم صورا للصيد بها فرسان يحاربون الأسود وجها لوجه ، وصور أخرى جميلة للوعل الذى يلعب دورا مهما فى خرافات حضرموت ، ورسما أيضا عناقيد العنب كزخارف جميلة للأعمدة .

قبر هود :

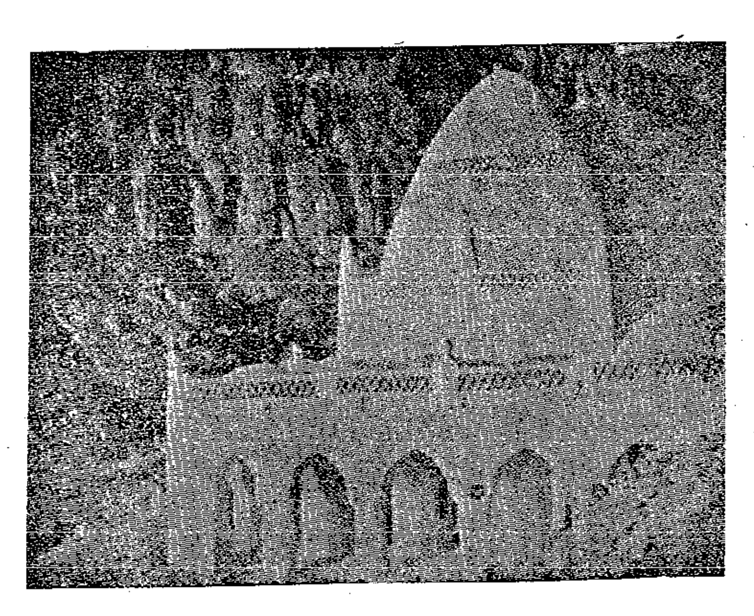
جاء فى كتاب معجم ما استعجم للبكرى «أن الكلبى روى عن رجاله عن الأصبغ ابن نباتة قال : كنا عند علىّ بن أبى طالب فى خلافة عمر ، فسأل رجلا من حضرموت فقال : أعالم أنت بحضرموت ؟ قال : إذا جهلتها فما أعلم غيرها . قال : أتعرف موضع الأحقاف ؟ قال : كأنك تسأل عن قبر هود ؟ قال : نعم . قال : خرجت وأنا غلام فى أغيلمة الحىّ نريد أن نأتى قبره لبعد صيته ، فسرنا فى وادى الأحقاف أياما ، وفينا من قد عرف الموضع حتى انتهينا إلى كثيب أحمر فيه كهوف ، فانتهى بنا ذلك الرجل إلى كهف منها ، فدخلناه فأمعنا فيه ، فانتهينا إلى حجرين قد أطبق أحدهما فوق الآخر وفيه خلل يدخل منه النحيف متجانفا ، فرأيت رجلا على سرير شديد الأدمة كثّ اللحية ، قد يبس على سرير ، وإذا لمست شيئا من جسده وجدته صلبا ، وعند رأسه كتابة بالعربية : أنا هود الذى آمنت بالله ، وأسفت على عاد لكفرها ، وما كان لأمر الله من مردّ . فقال علىّ : كذلك سمعته من أبى القاسم صلى الله عليه وسلم» .

وهذه الرواية مشكوك فى صحتها ، ويحتمل أن تكون من أخبار القصاص المنمقة .

ويقال إن هودا عليه السلام مات بحضرموت ، وقبره على تلّ مرتفع من الأرض ، عليه قبة مربعة الشكل ، مطلية من الداخل والخارج بالجير الأبيض ، ويبلغ الضريح مائة وعشرين قدما . وهذا لايدل على طوله عليه السلام ، وإنما هو رمز لعظمته ، وفى وسط القبة يقوم بناء مستدير كقاعدة عمود سميكة فوق صخرة ، ويظنّ أن هذا المكان هو الذى انشقت فيه الصخرة ، وقد صقلت هذه الصخرة بآلاف الأيدى التى



« قبر هود عليه السلام »



« قبة ضريح النبي هود »

مرّت عليها ، وآلاف الشفاه التي قبلتها ، وكتبت على الحيطان الآيات القرآنية

الكريمة التى نزلت فى هود ، والأحاديث الموضوعة التى تحضّ على زيارة هذا القبر ، وعلى مقربة من القبة يقوم « مسجد الناقة » تشرف عليه قطعة من الصخر ، يزعم الأهالى أنها الناقة المتحجرة ، وتوجد هناك عدة بيوت ذات طابقين ، وبناء هذه البيوت وهذه القبة بسيط فى ذاته ، لاتظهر فيه براعة الفنّ الحضرمى ، ولكن يشعر القادم إلى هذا الوادى الهادئ الصامت بشىء كثير من الهيبة والإجلال لذلك القبر المقدس ، وقد بولغ فى تقديس هذا الضريح ، فتراهم يشدّون الرحال لزيارته ، وعندهم شىء من بقايا الشعور الوثنى الذى كان يشعر به العرب للات والعزّى يستعينون به ويتجهون إليه ، ويولون وجوههم شطره لقضاء الحاجات واستنزال البركات ودفع الكربات . يأتى الشخص من العوام القبر ومعه قطعة من الخشب بها خيط ملوّن من الصوف فى نهايته قطعة صغيرة من الحجر ، أما القطعة الخشبية فتوضع فى الحائط الخارجي للقبة ، ولا يسمح بقذف الخشب فى داخل القبة ؛ أما الخيط الصوفىّ فيجمع ويرطب باللعاب ويقذف فى الحائط أوالسقف ، ولهذا تظهر الحيطان والسقف كأنها مغطاة بطبقة من الورق المزخرف أو زينت بنقوش مختلفة الألوان .

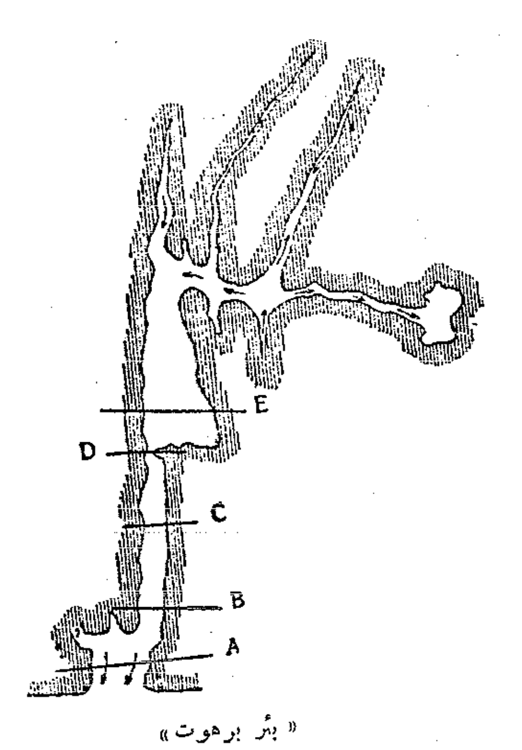
والحضارم يزورون هذا الضريح المقدّس مرة فى كل عام يقيمون هناك ثلاثة أيام ثم يعودون ، وتبقى تلك القرية الهادئة خالية عن السكان إلا الحرس الذين يحرسونها .

قبر صالح عليه السلام :

وفى وادى سر يوجد قبر طويل عليه قبة كبيرة يزعم الناس أنه قبر صالح عليه السلام ، ولذلك يشدّون الرحال إليه مرّة فى كل عام ، ولهم اعتقادات خرافية حول هذا الضريح ، والتاريخ لا يثبت وجود قبر صالح عليه السلام فى حضرموت لأنه مات فى الحجاز .

بئر برهوت :

تقع بئر برهوت على مقربة من قبر هود عليه السلام ، فى الوادى الرئيسى للسبعة



« بئر برهوت »

الأودية ، وهذا الوادى يتسع في مبدئه ويأخذ فى الضيق حتى يكون فى أعلاه زاوية ، وليس هناك أثر لكائن حىّ ويغطى بطبقة من الطفل ، ولازالت بعض بقايا المزارع وقليل من حراج النخيل باقية هناك ، لا تتخلل هذا الصقع صخور شاهقة ، وليس هناك أى أثر يدلّ على وجود براكين كما يزعم بعض الناس ، فهناك طبقات من الصخر الجيرى تعلوها أخرى من الحجر الرملى ، وتكثر فى جانبى الوادى الكهوف والمغاير ، وعلى مقربة من نهاية الوادى على بعد ثلاث ساعات من مبدئه تظهر فوهة البئر السوداء على ارتفاع ٣٠٠ قدم من سفح الجبل ، وقد نقر فى الصخر طريق معبد معرّج تهدم جزء كبير منه بفعل المياه ، وكانت الجمال تسير فيه لجلب السماد الناتج عن فضلات الخفافيش التى توجد بكثرة فى البئر ، ويبلغ البئر ١٢٠ قدما فى الطول ، ٤٥ فى العرض ، ٦٠ فى العمق ، ويزعم الناس أنها مأوى أرواح الكفار والأشرار ، وقد ساعدت على تثبيت هذه الخرافة فى أذهانهم عزلة هذا الصقع ولونه القاتم ومنظره الرهيب .

ورد ذكر هذه البئر فى الكتب العربية الجغرافية القديمة ، فقد ذكرها الهمدانى

فى كتابه « صفة جزيرة العرب » ، وذكرها القزوينى فى كتابه « عجائب المخلوقات » فقال : « تقع بئر برهوت على مقربة من حضرموت ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن أرواح الكفار والمنافقين تسكن فيه » وهو من أيام عاد . وقيل : إن عليا كرم الله وجهه قال : « إن أكره بقعة فى الأرض عند الله هو وادى برهوت ، وبها بئر كريهة الرائحة وماء آسن حيث تسكن أرواح الكفار» . وقال المسعودى فى « مروج الذهب » : « تقع بئر برهوت فى بلاد أسفار وحضرموت وهى جزء من بلاد الشحر بين اليمن وعمان ، ويسمع لها صوت كالرعد على بعد أميال ، وتقذف أكواما من الحمم يسمع لها أزيز مرعب » . وقال الأصمعى : « حدثنى رجل حضرمىّ فقال : كلما شممنا رائحة خبيثة فى إقليم برهوت علمنا بعد ذلك أن شخصية كبيرة من الكفار قد ماتت » .

وكل هذه الروايات ليس لها حظّ من الصحة ، ومن المحتمل أن بئر برهوت كانت فى العصور الواغلة فى القدم ملجأ لرئيس قوم كانوا يسكنون فى تلك المغاير التى حولها . وأصحّ ما قيل عنها ما جاء فى كتاب Hadramaut للسائحين السيدين ميلن D. Van Der Meulen وويزمان H. Van Wissmann فقد رحلا إلى حضرموت فى سنة ١٩٣١ وبلغا بئر برهوت وشاهدا ما بداخلها ، وها نحن نذكر وصفهما لتلك المغارة الحالكة الظلام .

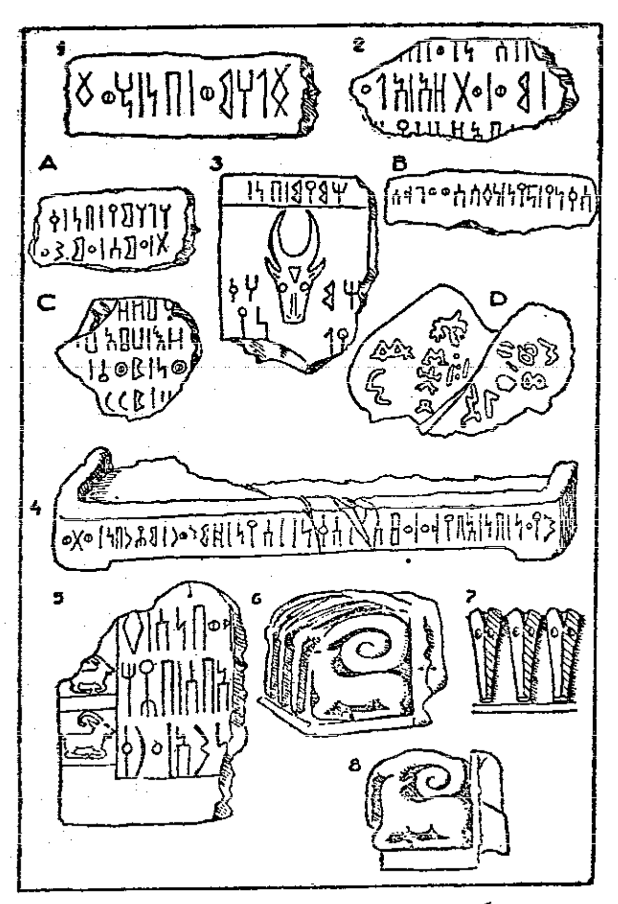
« . . . . . دخلنا وكان لويزمان خبرة بكشف الكهوف ومعنا الآلات العلمية اللازمة ، وفانوس لنختبر به هواء البئر عما إذا كانت به كمية وافرة من الأكسجين ، وسرنا بحذر لأن حافة الكهف كانت منحدرة ، والتراب ناعم بحيث لا نسمع وقع الأقدام عليه ، والظلام حالك جدا ، والسكون مخيّم لا نسمع إلا صوت الخفافيش التى نجمت عنها رائحة خبيثة ، ثم وجدنا الممر متصلا بجزء متسع ، فسألنا رفاقنا البدو الذين أخذوا بروعة المنظر : هل هذا هو مقرّ أرواح الكفار ؟ فأجابوا : الله أكبر الله أعلم ، ثم أخذ الممرّ يضيق ثانية ، وانتهى إلى دهليز ضيق لا يمكن السير عليه ، ولا يوجد طريق آخر سوى ممرّ ضيق على اليمين ، كلما تعمقنا فيه كلما اشتدت الحرارة ، ووجدنا أنفسنا مضطرين للعودة بسبب الحرارة والظلام والروائح الخانقة ،

وكلما تقدمنا نقاطع المرّ مع ممرّات أخرى على الجانبين ، ووجدنا آثارا تدل على وجود إنسان وأثر كوة نقرت فى الحائط وقطع من الفحم الخشبى ، ولما تقدمنا قليلا وجدنا مثل ذلك ، وقد أخذ الممر يضيق وتزداد حرارته ، ولما خرجنا وجدنا أنفسنا نتصبب عرقا وقد تغطت أجسامنا بطبقة من الثرى فأصبحنا كالوقادين ، وكانت بعض الدهاليز الجانبية شديدة الانحدار ، وقد دخل فون ويزمان وعلى أحدها وعلى جانبيه أكدام من الأحجار ، وبعد أن سارا مسافة طويلة سمعنا صوت انهيار كدم من الأحجار ولم نر ضوء المشعل الذى معهما ، ثم خيم صمت رهيب وبعد ٢٠ دقيقة ونحن فى قلق متزايد خرجا منهوكى القوى ، فساعدناهما على الصعود وكانت الحيطان مغطاة بطبقة بيضاء اللون حسبناها ملحا ، ولما تذوقناها لم نجد لها طعم الملح وتتخللها أصداف لاعداد لها ، فنزعنا بعضها وأخذناه معنا ، ولما بحثنا كل الممرات عدنا أدراجنا وفى طريق العودة كان الجوّ يزداد برودة ، ولسوء الحظ لم نحضر معنا ترمومترا حتى نسجل الحرارة ، ولما خرجنا وجدنا رفاقنا يَغطُّون فى سبات عميق ؛ فلما أيقظناهم نظروا إلينا فى شىء كثير من الدهشة إذ كانوا يتوقعون هلاكنا ، وانتهينا بعد بحثنا إلى النتيجة الآتية : وهى أن بئر برهوت كهف جيرى ليس به أثر بركانى ، وأما الروائح الخبيثة فهى ليست ناجمة عن الكبريت ، بل عن تحلل الصخور وبول الخفافيش . والسبب فى الشعور بالحرارة ليس نتيجة عوامل بركانية ، ولكن من تأثير الحرارة الخارجية » انتهى بتصرف قليل .

مدينة مكنون الخاوية :

وعلى مقربة من سوم تقع أطلال مدينة مكنون ، ولا زالت بقايا الأبنية القديمة قائمة ، ويتصل بهذه الخرائب مكان متسع كان مقبرة ذلك الحىّ ، والقبور طويلة مما يدل على أن أصحابها كانوا عماليق ، وقد رصفت الأحجار على القبور بشكل دوائر ، وبقرب وادى سخور تقوم أنقاض قلعة كبيرة ، وعند فتحة وادى سخور فوق الصخور على ارتفاع ٣٠٠ قدم تقوم قلعة ثوبى ، ولا زالت حيطانها حافظة شكلها بالرغم عن سقوطها وتراكمها بعضها على بعض . وتوجد حصون كثيرة واستحكامات متهدمة

فى ثوبى والعر ، وهذا يدل على أن هذا الإقليم كان منطقة حربية لحماية حدود المملكة .



« نقوش وكتابات على صخور فى ديار عاد ومشهد ووادى ثقب »

وفى سنة ١٣٣٥ ﻫ جاء سيل عظيم ، فكشف عن آثار هامة ؛ حلىّ ونقود وأصنام من ذهب ومن فضة ، بيع جلها بثمن بخس فى عدن وجيبوتى وزنجبار . ومن يقارن الآثار الحضرمية القديمة بالآثار المصرية القديمة يجدها متشابهة تمام التشابه . وهذا يؤكد ما قاله بعض المستشرقين من أن المصريين القدماء فوج من قبائل أسيوية مرّت بحضرموت فى طريقها إلى الحبشة ، ثم إلى وادى النيل .

دخول الإسلام فى حضرموت

لم يثبت لنا التاريخ أن الحضارم عبدوا الأصنام قبيل الإسلام كما كان يعبدها كثير من العرب فى قلب الجزيرة وفى اليمن ، ولم يذكر لنا التاريخ أنهم عبدوا الحيوان أو النار ، وإنما كان أغلبهم على الفطرة ، على أن اتصالهم باليمن والحجاز كان متينا ، وسفرهم للحجّ كان فى كل عام . ولقد رأوا العرب هناك تقدّس الأصنام وتعبدها لتقرّبهم إلى الله زلفى ، ورأوا ازدحام الكعبة بالأصنام فلم يتأثروا بذلك ، ولم تدفعهم النعرة الدينية لصناعة الأصنام وعبادتها فى حضرموت ، والأصنام التى اكتشفها السيل سنة ١٣٣٥ ﻫ يرجع عهدها إلى عصر عاد حين طغوا وبغوا وانتحلوا دين الصابئة . يقول الفيلسوف ابن خلدون الحضرمى : « ثم لما اتصل ملك عاد وعظم طغيانهم وعتوّهم ، انتحلوا عبادة الأصنام والأوثان من الحجارة والخشب ، ويقال إن ذلك لانتحالهم دين الصابئة ، فبعث الله إليهم أخاهم هودا » .

ولما ظهر الإسلام تاقت قلوبهم لاعتناقه والإيمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأرسلوا وفدا برئاسة وائل بن حجر بن ربيعة بن وائل بن معمر الحضرمى الكندى ، وذلك فى السنة السابعة للهجرة . وقيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر أصحابه قبل قدومه وقال : « يأتيكم بقية أبناء الملوك » ، ولما جاء رحب به وأدنى مجلسه ، وبسط له رداءه وقال : « اللهمّ بارك فى وائل وولده وولد ولده » ، واستعمله على الأقيال من حضرموت .

وروى صاحب (البداية والنهاية) أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أقطعه أرضا وأرسل معه معاوية بن أبى سفيان ، فخرج معه راجلا ، فشكا إليه حرّ الرمضاء ، فقال له : انتعل ظلّ الناقة ، فقال : وما يغنى عنى ذلك ، لو جعلتنى ردفا ، فقال له وائل : اسكت فلست من أرداف الملوك ، ثم عاش حتى وفد على معاوية وهو أمير المؤمنين ، فعرفه معاوية ورحب به وأذكره الحديث ، وعرض عليه جائزة سنية فأبى أن يأخذها وقال : أعطها من هو أحوج إليها منى .

ويذكر بعض المؤرخين أن الأشعث بن قيس الكندى قدم على رسول الله

صلى الله عليه وسلم فى بضعة عشر راكبا مسلما ؛ فلما دخل رحب به وأدناه من نفسه ، ولما أراد الانصراف سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يولى عليهم رجلا فولى عليهم زياد بن لبيد البياضى الأنصارى ، فأقام فى تريم ، وكان المثل الأعلى فى الخلق الحسن ، ولا غرو فقد اصطفاه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجعل فى بعض البلاد نوابا عنه يجمعون الصدقات ويعلمون الناس أحكام الدين ، ولقد آمن الحضرميون جميعا بالإسلام بسرعة ليس لها فى الجزيرة العربية مثيل ، وانقادوا لأوامره دون أن يظهروا أىّ مقاومة . وانقياد الحضرميين للدين بهذه السرعة ولو أنه يدلّ على السذاجة وسلامة النية ، يعدّ مفخرة من المفاخر العظيمة التى يحفظها لهم التاريخ إلى الأبد .

أما الصدقات العظيمة التى كان يجمعها زياد بن لبيد ، فكان أغلبها من النقود والحبوب والجمال والثمار ، وكان زياد يرسل هذه الصدقات إلى مكة لبيت المال بعد أن يأخذ من النقود والحبوب والثمار جزءا كبيرا يتصدّق به على الفقراء والمعسرين فى حضرموت .

كنـــدة

هم بنو كهلان بن ثور بن عفير بن عدىّ بن الحارث بن مرّة بن أدد بن زيد بن كهلان . وعفير أوّل من لقب كندة ، لأنه كند أباه نعمته : أى جحدها وكفر بها . أجلوا من البحرين والمشقر بعد قتل ابن الجون ، وكان الذى نقل منهم إلى حضرموت نيفا وثلاثين ألفا ، أقاموا فى الشحر ودوعن والكسر[1] وعندل والهجرين ورخية ودهر وسدية (سدبة[2]) وبدا[2] (حورة) ومنوب ودمون .

كانوا على جانب عظيم من الذكاء وسرعة البداهة وقوّة الفراسة ، فصحاء بلغاء ، وكان ملوك حمير يصاهرونهم ، ويولون ذوى الشخصيات البارزة منهم وأصحاب العقول الراجحة منهم على قبائل البادية . وأوّل ملوكهم حجر بن عمرو الكندى الملقب

(١) يشمل الكسر هينن وقعوطة : والقزة والخشعة ، وكان يعرف بكسر قشاقش .

(٢) كان اسم سدبة : سدية بالياء ، واسم حورة : بدا ، نسبة إلى قبيلة بدا الكندية التى سكنتها وعمرتها .

بآكل المرار ، وكانت كندة قبل أن تملك حجرا عليهم فى تطاحن وتنازع وتخاصم يأكل القوىّ منهم الضعيف حتى ملك حجر ، فأصلح أمورهم وجمع شملهم ووحد صفوفهم ، وساسهم بعقله الراجح أحسن سياسة ، وحينما اشتدّ التنازع والتناحر بين قبائل معدّ بن عدنان بالحجاز ، اجتمع عقلاؤهم ، وأرادوا أن يولوا عليهم ملكا منهم يطفئ الفتن ، ويصلح الأمور ، فرأوا أن قبائل معدّ لاتخضع للملك منهم ، فسار وفد منهم إلى حسان بن تبع الحميرى وطلبوا إليه أن يولى عليهم ملكا ، وكان حجر ابن عمرو الكندى المذكور ذا رأى وحزم وحلم ووجاهة ، فولاه عليهم ، فسدّد حجر أمورهم ، وجمع قلوبهم ، ووحد صفوفهم ، وساسهم أحسن سياسة ؛ ولما مات ملك بعده ابنه عمرو ، ثم قام بالأمر بعده ابنه الحارث ، وكان قوىّ الملك ، قيل إنه وافق كسرى فيروز على الزندقة ، والدخول فى مذهب المجوسية ، وملك بعده ابنه حجر على بنى أسد ، كما ملك باقى بنيه على كثير من قبائل العرب ، وكان حجر قاسيا فى حكمه ، سيئ السيرة ، قبيح المعاملة ، فتنكر عليه بنو أسد ، فقاتلهم حتى قهرهم ، ثم هجموا عليه وقتلوه غيلة فى دمون .

ولما ضعفت الدولة الحميرية ، ودبّ إليها الانحلال ، ازدادت قوّة كندة ، واتسع نطاق سلطانهم ، وامتدّ نفوذهم ؛ ومن أشهر ملوكهم مخوس ومشرح وحمد وابضعة والعمردة بنت الأعشى ، وكانت العمردة أشدّ تأثيرا من إخوانها فى الناس وأكثر نفوذا منهم لبلاغتها وذكائها وجمالها وبراعتها فى تدبير شئون الحكم ، وكان نفوذ هؤلاء الخمسة مطلقا لاحدّ له ، وكانت أحكامهم قاسية ، ولكنهم أهل قناعة وكرم ؛ فقد كانت ثرواتهم واسعة وأراضيهم خصبة ذات غلات وافرة ، وكانوا يراسلون ملوك الروم واليمن ، ويغمرونهم بالهدايا النفيسة التى كان أحسنها الخيل الذى كان يوجد بكثرة فى حضرموت الشرقية حيث الحشائش والأعشاب ، وكانوا ولعين بشرب عصارة الأعناب ، وكانت لهم معامل للخمر فى دمّون عاصمة ملكهم بحضرموت الوسطى .

كندة فى دورها الأول الإسلامى :

جاء الإسلام وكندة صاحبة الحول والطول والتاج والصولجان ، وكانت أربعة طوائف : طائفة تحكم الشواطىء من حدود ظفار إلى المكلا التى كانت إذ ذاك أكواخا للصيادين ، وعاصمة هذه الولاية الشحر ؛ وطائفة تحكم جميع دوعن ؛ وطائفة تحكم الكسر كله والعجلانية وحورة وسدبة والهجرين وعندل ولحروم وحريضة ، ومركز هذه الولاية حورة ؛ وطائفة تحكم كل البلاد الواقعة بين منوب وقبر هود عليه السلام ، وعاصمة هذه الولاية دمون ، وهؤلاء كانوا المراجع للطوائف الأخرى ، أو بعبارة أوضح كانوا المهيمنين عليهم إلا ولاية الشحر فإنها كانت مستقلة عنها كل الاستقلال ، وكانوا أهل ترف وبذخ لخصوبة أراضيهم وكثرة غلاتها ، وكانوا مندفعين كل الاندفاع وراء الملذّات الجسدية . أما ولايتا حورة ودوعن فكانوا يمثلون الرجولة بكل معانيها ، وجميع الولاة فى النواحى الأربع كانوا أهل قناعة وكرم أحكامهم عادلة ومعاملتهم مع الرعايا حسنة ، وكانوا من أوائل الداخلين فى الإسلام .

امتناع كندة عن دفع الزكاة :

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب أبو بكر رضى الله عنه إلى زياد بن لبيد الأنصارى يخبره بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، ويأمره بأخذ البيعة من أهل حضرموت ، فخرج زياد بن لبيد يدعو الناس لبيعة أبى بكر رضى الله عنه ، فبايعه خلق كثير ، وامتنع عن البيعة حارثة بن سراقة بن معدى كرب بن الحارث من عظماء كندة وخطبائها ، وامتنع عن دفع الزكاة الأشعث بن قيس من سادات كندة وأغنيائها فى كثير من أتباعه ، وارتدت بنو وليعة بن شرحبيل بن معاوية ، فتركهم زياد وشأنهم وكان فى استطاعته أن يرجعهم إلى الإسلام لأنهم شرذمة قليلة الرجال والمال ؛ أما حارثة ابن سراقة والأشعث بن قيس فليس فى استطاعته أن يخضعهما بالقوّة لبيعة أبى بكر رضى الله عنه ولدفع الزكاة ، لأنهما إذا غضبا غضب لهما آلاف مؤلفة من رجالات

كندة ، ولكن كان ينبغى أن يراودهما ويدعوهما ومن معهما إلى البيعة ودفع الصدقة ، فلم يفعل بل التزم السكون والصمت ، واكتفى ببيعة سكان شبام والغرفة وسيون وتريم ومريمة ودمون .

خرج زياد بن لبيد يوما لأخذ الصدقة ، فأخذ فيما أخذ بكرة من أحد فتيان كندة فهاج الفتى وماج وصيح وضجّ وهرع إلى حارثة بن سراقة بن معدى كرب الكندى واستغاث به ، فجاء حارثة بن سراقة إلى زياد بن لبيد ، وأمره أن يطلق للغلام بكرته فامتنع وقال عقلتها ووسمتها بميسم السلطان ، فهدده حارثة وأنذره وقال له : أطلقها أيها الرجل طائعا قبل أن تطلقها وأنت كاره ، فأبى زياد ولم يبال بوعيده ولا بتهديده ، فوثب حارثة بن سراقة وحل عقال البكرة وضربها ، فانطلقت تعدو وحارثة يقول :

يمنعها شيخ بخديه الشيب ملمع كما يلمع الثوب
ماض على الريب إذا كان الريب

استغاث زياد بن لبيد بأصحابه فأتوه سراعا ، وانحاز بنو وليعة المرتدون إلى حارثة ابن سراقة وخرج بجيشه لمحاربة زياد بن لبيد وأتباعه ، فلقيهم زياد وقاتلهم ، وكاد ينهزم لولا أن الحرب وضعت أوزارها ريثما ينجلى الليل ، فأتاه عبد له وكان قد انحاز إلى حارثة وأخبره أن ملوكهم الأربعة مخوس ومشرح وحمد وأبضعة فى محجرهم قد ثملوا من الشرب ، فذهب إليهم زياد خلسة وذبحهم وجعل يقول :

نحن قتلنا الأملاك الأربعه حمدا ومخوسا ومشرحا وأبضعه

ولما علم بذلك الأشعث بن قيس خرج فى جماعة من كندة وعرض لزياد وأصحابه فانهزموا ، فاستغاث الأشعث بعظماء كندة ولما رأى زياد ذلك كتب إلى أبى بكر رضى الله عنه يستمده ، فكتب أبو بكر رضى الله عنه إلى المهاجر بن أمية وإلى صنعاء يأمره بإنجاد زياد بن لبيد ، فخرج المهاجر بن أبى أمية فى جيش كبير ، ولما بلغ ذلك أصحاب زياد ثبتوا فى صفّ زياد وعاد إليه أغلب الذين انحازوا إلى حارثة ، فخرج زياد والمهاجر بن أبى أمية بجيشهما فلقوا الأشعث وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، ولما جنّ الليل لجأ الأشعث وبعض رجاله إلى حصن النجير ، فحصروهم ومنعوا عنهم القوت وكادوا يموتون جوعا ، فطلب الأشعث الأمان له ولعدة أشخاص من أعيان أصحابه ،

فقام إليه معدان بن الأسود بن معدى كرب وقال : اجعلنى من العدة ، فأدخله فيهم وأخرج نفسه ونزل إلى زياد بن لبيد والمهاجر ، فقبضا عليه وبعثا به إلى أبى بكر رضى الله عنه أسيرا فى سنة ١٢ للهجرة ، ولما حضر بين يدى أبى بكر رضى الله عنه قال له : فعلت وفعلت ، فقال الأشعث : استبقنى لحربك ، فو الله ما كفرت بعد إسلامى ولكنى شححت على مالى فأطلقنى وزوجنى أختك أم فروة فإنى قد تبت مما صنعت ، فأطلقه أبو بكر وزوّجه أخته أم فورة — وقد كان تزوجها حين قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرها إلى أن يرجع — وذهب الأشعث لشدة فرحه إلى سوق الإبل وجعل يعرقب بسيفه كل إبل بالسوق ، فبهت الناس وصاحوا ارتدّ الأشعث ، فقال الأشعث : لاوالله، ولكن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زوّجنى بأخته ، وهذه وليمتى فانحروا وكلوا ، ولو كنا ببلادنا لكانت أضعاف هذه ثم دفع للناس أثمان إبلهم ، وأقام فى المدينة وخرج من نسله بنو الأشعث المذكورون فى الدولة الأموية ، وسار إلى العراق غازيا وتوفى فى الكوفة ، وصلى عليه الحسن بعد صلح معاوية ، وفيه يقول عمرو بن معد كرب :

والأشعث الكندىّ حين سما لنا   من حضرموت مجنب الذكران
قاد الجيـــاد على وجاها نزبا   قبّ البطون نواحل الأبدان

أما المهاجر بن أبى أمية فقد عاد بجيشه إلى اليمن بعد أن هدأت الحال واستتبّ الأمن ، وخضعت لزياد جميع قبائل حضرموت الوسطى ، وعادت إلى الإسلام بنو وليعة ، ولم يبق أحد من المرتدين ، وقد كان من المنتظر أن تجتمع ملوك كندة الذين فى حضرموت الغربية وفى دوعن وفى الشحر للانتقام من زياد ، وليعيدوا لإخوانهم ملوك الشرق سلطتهم وسطوتهم ، على أن الأشعث أرسل رسله إليهم قبيل الحرب ، ولكنهم لم يمدّوه بشىء ولم يظهروا أىّ عداء لزياد وأصحابه ، ولم يعرّضوا المهاجر بن أبى أمية حينما مرّ بينهم فى الكسر فى قدومه من اليمن وفى عوده إليها ، ولو قاتلوه لقضوا عليه وعلى جيشه ولعل الروابط بين ملوك كندة فى الغرب والشرق ليست على ما يرام ، أو لعلهم رأوا أنه ليس من الشجاعة ولا من العدل أن تجتمع ملوك كندة على جماعة قليلة العدد والعدد من سكان شبام والغرفة وسيون وتريم ومريمة ودمون ، يقودهم شيخ ورع صالح تقىّ قام لا لشهوة فى نفسه ، ولكن لتنفيذ ركن من أركان الدين .

حضرموت تطالب بالخلافة

فى سنة ١٢٩ للهجرة نهض عبد الله بن يحيى الكندى مطالبا بالخلافة لنفسه كان حادّ الذكاء بعيد النظر فصيحا بليغا شجاعا كريما ، على جانب عظيم من الورع والتقوى والصلاح ، ذهب إلى اليمن فرأى المظالم ضاربة أطنابها فى طول البلاد وعرضها ، والفساد ينخر عظام الأمة ويهدد كيانها ، فنقم على الخليفة مروان بن محمد ورماه بالضعف فى السياسة والإهمال فى تأدية واجبات الخلافة ، ونقم على ولاة اليمن ومكة والمدينة أشد النقم . وفى سنة ١٢٨ ذهب إلى مكة للحج ، فوافى أبا حمزة المختار ابن عوف الأزدى البصرى الخارجى ورآه يدعو إلى خلاف مروان وآل مروان ، فقال له عبد الله بن يحيى الكندى : يا رجل إنى أسمع كلاما حسنا وأراك تدعو إلى حقّ فانطلق معى فإنى رجل مطاع فى قومى ، فخرج به حتى ورد حضرموت ، ولما رأى أبو حمزة المختار إجلال الناس لعبد الله بن يحيى الكندى وإكبارهم له بايعه على الخلافة وعاد إلى البصرة . جمع عبد الله بن يحيى عظماء كندة وحرّضهم على الخروج لإزالة المظالم والمنكرات ونشر العدالة والصلاح ، وقال : ما يحلّ لنا المقام على مانرى ولا يسعنا الصبر عليه ؛ وكتب إلى أبى حمزة المختار وأبى عبيدة ومسلمة بن أبى كريمة مولى بنى تميم وبلج بن عقبة بالبصرة يشاورهم فى الخروج ، فكتبوا إليه : إن استطعت أن لا تقيم يوما واحدا فافعل ، فإن المبادرة بالعمل الصالح فضل ، ولست تدرى متى يأتى عليك أجلك ، ولله خيرة فى عباده يبعثهم إذا شاء لنصر دينه ، ويخصّ بالشهادة منهم من يشاء ؛ وشخص إليه أبو حمزة المختار وبلج بن عقبة فى رجال من الأباضية وحرّضوه وقومه على الخروج ، وقالوا لهم : إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تغدروا ، واقتدوا بسلفكم الصالحين وسيروا سيرتهم ، فقد علمتم أن الذى أخرجهم على السلطان العبث لأعمالهم ؛ فاجتمعت كندة وبايعت زعيمها عبد الله بن يحيى الكندى على الخلافة إلا ملكهم إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندى فى دمون فإنه امتنع عن البيعة ، ولكن عبد الله بن يحيى سار إليه فى جماعة من عشيرته وأخذوه وحبسوه يوما ثم أطلقوه ، فرحل إبراهيم إلى صنعاء ، وقام بالأمر عبد الله بن يحيى ، فنشر العدل والأمن ، وبنى المساجد وأطعم الفقراء والمعسرين ، فأحبه الناس وكثر جمعه واحتشد حوله الأنصار والأعوان

وهابته القبائل ، وأكبروا فيه همته وورعه وصلاحه وتقواه ، وسموه طالب الحق.
ولما أحس فى نفسه القوة للقيام ضد الخليفة مروان بن محمد انتخب من أبطال قومه ألفين وتوجه بهم إلى صنعاء بعد أن استخلف على حضرموت عبد الله بن سعيد الحضرمى فبلغ ذلك القاسم بن عمر عامل مروان على صنعاء ، فاستخلف على صنعاء الضحاك ابن زمل ، وخرج فى بضعة آلاف من جيشه لملاقاة عبد الله بن يحيى الكندى ، فلقيه الكندى فى يلج وكان الليل قد أظلم ، وقاتلهم فقتل منهم كثيرا ، وانهزم القاسم وعسكر قريبا من صنعاء ، فلحقهم الكندى وهزمهم شر هزيمة ، واستولى على صنعاء ، وأخذ الضحاك بن زمل وإبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندى ملك دمون المخلوع وحبسهما ، وجمع الخزائن والأموال ، وخرج إلى الجامع وخطب الناس . فقال بعد أن حمد الله عز وجل وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإجابة من دعا إليهما ، الإسلامُ ديننا ، ومحمد نبينا ، والكعبة قبلتنا ، والقرآن إمامنا ؛ رضينا بالحلال حلالا لانبغى به بديلا ، ولا نشترى به ثمنا قليلا ، وحرمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا ،ولا حول ولا قوة إلا بالله وإلى الله المشتكى وعليه المعول ؛ من زنى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرب خمرا فهو كافر ، ومن شك فى أنه كافر فهو كافر . « ندعوكم إلى فرائض بينات وآيات محكمات وآثار مقتدى بها . ونشهد أن الله صادق فيما وعد ، عدل فيما حكم ، وندعو إلى توحيد الرب ، واليقين بالوعيد والوعد ، وأداء الفرائض ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والعداوة لأعداء الله . أيها الناس ؛ إن من رحمة الله أن جعل فى كل فترة بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إذا اهتدى . ويصبرون على الألم فى جنب الله تعالى ، يُقتلون على الحق فى سالف الدهور شهداء ، فما نسيهم ربهم وما كان ربك نَسيا . أوصيكم بتقوى الله وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به ، فابلوا الله بلاء حسنا فى أمره وذكره . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم » .

أقام عبد الله بن يحيى الكندى فى صنعاء أشهرا ، أزال فى خلالها المظالم والمفاسد ، ونشر العدل والأمن وأحسن السيرة ، ولان للناس جانبه ، فأحبوه وأثنوا عليه ومدحه الشعراء ، وأتته السراة من كل أرجاء اليمن . وفى أواخر شهر ذى القعدة سنة ١٢٩ للهجرة

جهز سبعمائة رجل من جيشه وأرسلهم إلى مكة تحت قيادة أبي حمزة المختار وبلج بن عقبة وأبرهة بن الصباح ، فراسلهم عبد الواحد بن سليمان وهو يومئذ على مكة المدينة ودعاهم إلى الهدنة حتى ينفر الناس النفر الأخير من الحج ، فأجابه أبو حمزة إلى ذلك، ثم نزل عبد الواحد بن سليمان بمنى ، وبعث إلى أبي حمزة المختار عبد الله بن حسن ابن الحسن ومحمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد وعبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن ربيعة بن أبي عبد الرحمن ، فكشر فى وجه العلوى والعثمانى ، وانبسط إلى البكرى والعمرى ، وقال لهما : ما خرجنا إلا بسيرة أبويكما . فقال له عبد الله بن حسن : ما جئنا للتفضيل بين آبائنا وإنما جئنا برسالة من الأمير .

ولما كان النفر الأول مضى عبد الواحد بن سليمان إلى المدينة ،وخلى مكة لأبى حمزة المختار ، فدخلها بدون قتال ، وحين أقبل أبو حمزة على مكة ، فزع الناس حين رأوهم وحاولوا أن يدافعوا عن أنفسهم ، فقال لهم أبو حمزة خلوا لنا سبيلنا لنسير إلى من ظلمكم وجار فى الحكم عليكم ، ولا تجعلوا حدنا بكم ، فإنا لانريد قتالكم . وأخبرهم بخلافة مروان والتبرى منه .

أما عبد الواحد بن سليمان فإنه لما وصل إلى المدينة كتب إلى مروان يعتذر لخروجه من مكة ، فكتب مروان إلى عامله على المدينة عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز يأمره بإرسال الجيش إلى مكة لاستردادها من أيدى جيش أبى حمزة . فجهز عبد العزيز ثمانية آلاف رجل أغلبهم من التجار لاعلم لهم بالحرب . ولما بلغ ذلك أبا حمزة المختار إستخلف على مكة إبراهيم بن الصباح . ولما كان على مقربة منهم أرسل إليهم بلج ابن عقبة فى ثلاثين فارسا من أبطال كندة وتميم . ولما جاءهم سألهم أن يطيعوا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأن يكفوا عنهم ويعودوا من حيث أتوا ، فشتمهم أهل المدينة وقالوا لهم : يا أعداء الله نحن نخليكم وندعوكم تفسدون فى الأرض ؛ فقال بلج : يا أعداء الله نحن نفسد فى الأرض ، إنما خرجنا لنكف أهل الفساد ونقاتل من قاتلنا ونستأثر بالفىء ، واخلعوا من لم يجعل الله له طاعة ، فإنه لاطاعة لمن عصى الله ، وادخلوا فى السلم وعاونوا أهل الحق ، ثم رجع بلج وأصحابه إلى أبى حمزة المختار

وأخبره . فقال : كفوا عنهم ، ولاتقاتلوهم حتى يبدءوكم بالقتال . فرمى رجل من أهل المدينة أبا حمزة بسهم فأخطأه وأصاب رجلا آخر ، فقال أبوحمزة : شأنكم الآن فقد حلّ قتالهم ،فحملوا عليهم حملة شديدة وهزموهم وقتلوا منهم ٣٢٣٠ ومن قريش ٤٥٠ رجلا ومن الأنصار ٨٠ ومن القبائل والموالى ١٧٠٠ ، فقال علىّ بن الحصين الكندى لأبى حمزة : اتبع القوم أو دعنى أتبعهم ، فأقتل المدبر وأذفف على الجريح ، فإن هؤلاء شرّ علينا من أهل الشام ، فلوجاءوك غدا لرأيت من هؤلاء ما تكره [!] ، فقال له : لا أفعل ولا أخالف سيرة أسلافنا ، ثم استولى أبو حمزة على المدينة وذلك سنة ١٣٠ للهجرة .

ولما هدأت الأحوال وخمدت الاضطرابات ، خرج أبوحمزة إلى الجامع وخطب الناس فقال بعد الحمدلة والثناء على الله : « أتعلمون يا أهل المدينة أنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشرا ولابطرا ، ولا عبثا ولالهوا ،ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيه ، ولا ثأر قديم نيل منا ، ولكنا لما رأينا مصابيح الحقّ قد عطلت ، وعنّف القائل بالحق وقتل القائم بالقسط ، ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وسمعنا داعيا يدعو إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ، فأجبنا داعى الله ، ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض ، فأقبلنا من قبائل شتى ، النفرمنا على بعير واحد، عليه زادهم وأنفسهم ، يتعاورون لحافا واحدا قليلون مستضعفون فى الأرض ، فآوانا الله وأيدنا بنصره ، وأصبحنا والله بنعمته إخوانا ؛ ثم لقينا رجالكم بقديد فدعوناهم إلى طاعة الرحمن وحكم القرآن ، ودعونا إلى طاعة الشيطان وحكم مروان وآل مروان ، فشتان لعمر الله ما بين الغىّ والرشد ، ثم أقبلوا يهرعون ويزفون ، قد ضرب الشيطان فيهم بجرانه وغلت بدمائهم مراجله وصدق عليهم ظنه ، وأقبل أنصار الله عصائب وكتائب بكل مهنّد ذى رونق فدارت رحانا واستدارت رحاهم بضرب يرتاب منه المبطلون . وأنتم يا أهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ،ويشف صدور قوم مؤمنين . ياأهل المدينة إن أولكم خير أوّل وآخركم شرّ آخر . ياأهل المدينة الناس منا ونحن منهم ، إلا مشركا عابد وثن أو كافرا من أهل الكتاب أو إماما جائرا . يا أهل المدينة من زعم أن الله كلف نفسا فوق طاقتها أو سألها عما لم يؤتها فهو لله عدوّ ولنا حرب ؛

يا أهل المدينة أخبرونى عن ثمانية أسهم فرضها الله تعالى فى كتابه على القوىّ على حبه للضعيف ، فجاء التاسع وليس له منها ولا سهم واحد ، فأخذ جميعها لنفسه مكابرا محاربا لربه ما تقولون فيه وفيمن عاونه على فعله ؟ يا أهل المدينة بلغنى أنكم تنتقصون أصحابى ، قلتم هم شباب أحداث وأعراب جفاة ، ويحكم يا أهل المدينة ، وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شبابا أحداثا ، شباب والله مكتهلون فى شبابهم غضيضة عن الشرّ أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أقدامهم ، قد باعوا أنفسهم تموت غدا بأنفس لا تموت أبدا ، قد خلطوا كلالهم بكلالهم ، وقيام ليلهم بصيام نهارهم ، منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرّوا بآية خوف شهقوا خوفا من النار ، وإذا مرّوا بآية شوق شهقوا شوقا إلى الجنة ؛ فلما نظروا إلى السيوف قد انتصبت وإلى الرماح قد أشرعت وإلى السهام قد فوّقت ، وأرعدت الكتيبة بصواعق الموت استخفوا وعيد الكتيبة عند وعيد الله ، ولم يستخفوا وعيد الله عند وعيد الكتيبة ، فطوبى لهم وحسن مآب ، فكم من عين فى منقار طائر طالما بكى بها صاحبها من خشية الله ، وكم من يد أبينت عن ساعدها طالما اعتمد عليها صاحبها راكعا وساجدا ، أقول قولى هذا وأستغفر الله من تقصيرنا ـ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » .

وقال هارون إن جدّه أبا حمزة قد أحسن السيرة فى أهل المدينة حتى استمال الناس وسمع بعضهم كلامه فى قوله على منبر النبى صلى الله عليه وسلم من زنى فهو كافر ، وقال : إنه سمع أبا حمزة يخطب بالمدينة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا أهل المدينة مالى رأيت رسم الدين فيكم باقيا وآثاره دارسة ، لا تقبلون عليه عظة ، ولا تفقهون من أهله حجة ، وقد بليت فيكم جدته ، وانطمست عنكم سنته ، ترون معروفه منكرا والمنكر من غيره معروفا ، إذا انكشفت لكم العبر وأوضحت لكم النذر ، عميت عنها أبصاركم ، وصمت عنها أسماعكم ، ساهين فى غمرة لاهين فى غفلة ، تنبسط قلوبكم للباطل إذا نشر ، وتنقبض عن الحق إذا ذكر ، مستوحشة من العلم مستأنسة بالجهل ، كلما وقعت عليها موعظة زادتها عن الحق نفورا ، تحملون منها فى صدوركم كالحجارة أو أشدّ قسوة من الحجارة ، أو لم تلن لكتاب الله الذى لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . يا أهل المدينة ما تغنى عنكم صحة أبدانكم إذا

سقمت قلوبكم ، إن الله قد جعل لكل شيء غالبا ينقاد له ويطيع أمره ، وجعل القلوب غالبة على الأبدان ، فإذا مالت القلوب ميلا كانت الأبدان لها تبعا ، وإن القلوب لاتلين لأهلها إلا بصحتها ، ولا يصححها إلا المعرفة بالله وقوّة النية ونفاذ البصيرة ، ولو استشعرت تقوى الله قلوبكم لاستعملت بطاعة الله أبدانكم . يا أهل المدينة داركم دار الهجرة ومثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نَبَتْ داره وضاق به قراره وآذاه الأعداء وتجهمت له فنقله إلى قوم لعمرى لم يكونوا أمثالكم ، متوازرين مع الحقّ على الباطل ، ومختارين للآجل على العاجل يصبرون للضراء رجاء ثوابها ، فنصروا الله وجاهدوا فى سبيله وآووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، وآثروا الله على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ، قال الله تعالى لأمثالهم ولمن اهتدى بهداهم « ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون » ، وأنتم أبناؤهم ومن بقى من خلفهم تتركون أن تقتدوا بهم أو تأخذوا بسنتهم ، عمى القلوب صمّ الآذان ؛ اتبعتم الهوى فأرداكم عن الهدى وأسهاكم ، فلا مواعظ القرآن تزجركم فتزدجروا ، ولا تعظكم فتعتبروا ولا توقظكم فتستيقظوا . لبئس الخلَف أنتم من قوم مضوا قبلكم ، ما سرتم بسيرتهم ، ولا حفظتم وصيتهم ولا احتذيتم مثالهم ، لو شقت عنهم قبورهم فعرضت عليهم أعمالكم لعجبوا كيف صرف العذاب عنكم » .

لما بلغ مروان بن محمد انتصار الأباضية واستيلاؤهم على المدينة خاف أن يزحفوا على الشام ويستولوا عليها ويتولوا الخلافة لذلك جمع ٤٠٠٠ رجل من أبطال جيشه ، وأعطى كل منهم مائة دينار وفرسا ووعدهم ، وجعل عليهم عبد الملك بن عطية ، ولما بلغ أبا حمزة الخبر بعث بلج بن عقبة فى سبعمائة من عسكره فالتقى الجيشان فى وادى القرى فى شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠ للهجرة ، فدعاهم بلج إلى التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فشتمهم أهل الشام وقالوا نحن على حقّ وأنتم على باطل ، فثارت الحرب بين الطرفين ودامت ثلاثة أيام ، فقتل بلج بن عقبة وسبعون رجلا من جيشه ونصب عبد الملك بن عطية رأسه على رمح ؛ أما أبا حمزة فقد استخلف على المدينة أحد أعيانها يقال له الفضل ، وسار إلى مكة ليحصنها ، ولما علم عبد الملك ابن عطية بخروج أبى حمزة من المدينة جمع رجاله وهجم على المدينة ، فدعا الناس

عمر بن عبد الرحمن بن أسيد الخطاب لقتالهم ، فاجتمع إليه تجار المدينة والبربر والعبيد وخرجوا لمقاتلة ابن عطية ، فانهزموا شرّ هزيمة ، وقتل الفضل وكثير من رجاله ، واستولى ابن عطية على المدينة ثم سار إلى مكة ، فلقيه أبو حمزة بالقرب من مكة ، وأراد جيشه الهجوم على ابن عطية وقومه فمنعهم وقال : لاتقاتلوهم حتى تختبروهم ، فصاح بهم ما تقولون فى القرآن والعمل به؟ فقال ابن عطية : نضعه جوف الجوالق ، قال ما تقولون فى مال اليتيم ؟ قال نأكل ماله ونفجر بأمه ،فأمر أبوحمزة جيشه بالقتال ، فقتل أبو حمزة وقتلت امرأته مريم ، وكانت ذات شجاعة وإقدام ، وأسر ابن عطية ٤٠٠ رجل من جيشه ثم قتلهم جميعا ، ولما بلغ ذلك عبد الله بن يحيى الكندى خرج من صنعاء فى جماعة من أصحابه ومن اليمانيين لقتال ابن عطية ، فالتقى به بأسفل مكة ، فهزمهم أهل الشام وأكثروا فيهم القتل ، فترجل عبد الله بن يحيى الكندى فى ألف فارس وأظهروا من الشجاعة والإقدام ما حير عقول أهل الشام ، وكاد النصر يكون حليفهم لولا كثرة جيش ابن عطية التى أحاطت بهم من كل جانب ، وطال القتال حتى قتلوا رجال الكندى جميعا ، وجزّ ابن عطية رأس الكندى وبعثه مع ابنه يزيد ابن عبد الملك بن عطية إلى مروان .

وسار ابن عطية إلى صنعاء واستولى عليها وأرسل جيشه يتتبع أصحاب عبد الله ابن يحيى الكندى ويقتلهم ، ثم ظهر يحيى بن كرب الحميرى وأعلن العصيان والتمرد على ابن عطية، وخرج عليه وانضمت إليه قبيلة شداد الأباضية ، فخاف ابن عطية أن يستفحل أمرهم ويتسع نفوذهم وتتقوى سطوتهم ، فأسل لقتالهم جيشا تحت قيادة أبى أمية الكندى فى الوضاحية ، فالتقوا بهم بالساحل على مقربة من الحديدة وقتلوا من الأباضية مائة رجل ،وهرب بعضهم إلى حضرموت والتجئوا بعبد الله بن معبد الحضرمى وحرضوه على ابن عطية ، فصاح عبد الله بن معبد فى قبائل حضرموت ، فأتاه خلق كثير من كندة ونهد وتميم وهمدان واحتشدت الجموع فى شبام ، وامتلأت مخازنها بما تبرّع به الأغنياء وأهل اليسار من البلح والطعام وغير ذلك للجيش . ولما بلغ ابن عطية الخبر استخلف ابن أخيه عبد الرحمن بن يزيد بن عطية على صنعاء وتوجه بجيشه إلى حضرموت فلقيه الحضارم بالكسر والتحمت بينهم الحرب ، وكان جيش الشام عالما بفنون الحرب ، ولما جاء الليل وكان حالك الظلام كثير الرياح أرسل ابن عطية من ناحية

الجبل الجنوبي جزءا من جيشه إلى شبام لاحتلالها ونهب ما فيها من الذخائر والمؤن ، فوصل هذا الجيش إلى شبام عند مطلع الفجر وتسوّروا السور واحتلوا الحصون وقتلوا من فيها من الحرس ، فاستيقظ الناس من مراقدهم وذعروا مما رأوا ، وحاولوا الدفاع عن أنفسهم وأموالهم فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، وأنى لهم أن يدافعوا والحصون فى يد العدوّ يمنع كل من أراد الدخول إلى شبام أو الخروج منها . حدث ذلك كله دون أن يعلم عبد الله بن معبد الحضرمى . ولما طلع النهار قاتل عبد الله بن معبد بن عطية حتى انتصف النهار ، ثم تحاجزوا ، ولما جاء الليل ووضعت الحرب أوزارها انسلّ ابن عطية وبقية جيشه إلى شبام .

ولما بزغ النهار لم ير الحضارم أثرا للعدو ، فأدركوا المكيدة وهرعوا إلى شبام فوجدوها محتلة بالعدوّ ، وحاولوا إخراجه فلم يقدروا . ثم اضطروا للاستسلام ولكن ابن عطية جعل يقتل من يقدرعليه وينهب الأموال قهرا . ثم أراد أن يرسل جيشه إلى سيون وتريم ودمون ولكن مروان بن محمد بعث إليه كتابا يأمره بالتعجل إلى مكة ليحج بالناس ، فجمع ابن عطية أعيان شبام ، وصالحهم على أن يرد إليهم ماعرفوا من أموالهم ، ويولى عليهم من يختارون فأجابوه إلى ذلك ، ثم سار متعجلا فى جماعة من قومه . ولما كان بأرض مراد لقيه جماعة من الأباضية وقتلوه ومن معه ، ويقول المدائنى إنه لما شخص ابن عطية إلى مكة خرج إليه جمانة وسعيد ابنا الأخنس فى جماعة من قومهما ورجل من نهد يقال له رمانة وثلاثة من مراد وخمسة من كندة، فقصدوا حيث توجه ابن عطية فأدركوا أصحابه وكانوا أربعين رجلا فقتلوهم جميعا وأدرك سعيد وجمانة ابن عطيه فضرباه وطعناه وصرعاه من فرسه وقعد سعيد على صدره فقال له ابن عطية هل لك يا سعيد فى أن تكون أكرم العرب أسيرا ، فقال ياعدوالله أترى الله كان يمهلك أو تطمع فى الحياة وقد قتلت طالب الحق (عبد الله بن يحيى الكندى) وأبا حمزة وبلجا وأبرهة ، ثم قتله وبعثوا برأسه إلى شبام وبلغ الخبر ابن أخيه عبد الرحمن بن يزيد بن عطية وهو بصنعاء ، فأرسل شعيبا البارقى فى جيش كثير أغلبه أجلاف قساة همج من سكان جبال اليمن ، وجاءوا حضرموت من طريق الكسر ، فقتلوا الرجال والنساء والصبيان ونهبوا الأموال وأخرجوا دورهين وقعوضة والمخينيق وحورة وكثيرا من

دور شبام ولم يبق أحد من قتلة ابن عطية ولا من الأباضية إلا وقتلوه ، ثم عادوا إلى اليمن حاملين معهم الأموال الطائلة والحلىّ الثمينة وقد احمرت أراضى حضرموت من الكسر غربا إلى شبام شرقا بالدم .

انكماش دولة كندة

كان خروج شعيب البارق بجيشه الهمج إلى حضرموت أشبه بالضربة القاضية على الدولة الكندية والصدمة الرجعية فى الأهلين ؛ ولا غرابة فإن قتل الصبيان وبَقْرَ بطون النساء من الأهوال العظام والخطوب الجسام أهوال لم يعهدها الحضارمة من قبل ولم يحدث فى تاريخهم الواغل فى القدم . انكمش ملوك كندة وقبع كل منهم فى مقاطعته يحكم فى هدوء وسكون وفى خمول وكسوف ، وكره الشعب التخاصم والتنازع وكل ما يجرّهم إلى التناحر والتصادم ، وكأن تلك الفجائع التى أتتهم من اليمن علمتهم كيف يتعاونون ويتناصرون ويتكاتفون ويتساندون ، كأنها وجهت أنظارهم إلى إصلاح أمورهم وتنظيم شئونهم ، فقد اتحدت قبائل دوعن ووجهوا عنايتهم نحو عمارة أرضهم وعمران بلادهم وتنظيم معايشهم ، وكذلك الشأن فى حضرموت الوسطى ، فقد هبّ جميع السكان يصلحون ويعمرون وخضعوا لولاة أمورهم كل الخضوع ، وأطاعوهم كل الطاعة رغبة فى السكون وحبا فى السلام ، فأصبحت الأراضى جنات غناء ومزارع فيحاء ، بفضل التعاون والتساند فى تعميرها وزراعتها ، وانتشر الرخاء ورخصت الأسعار ، وتنشطت أسواق العروض وهينن وشبام وتريم ودمون وزادت حركتها ، وعادت إليها حياتها الأولى ، وأصبحت القوافل تأتى الواحدة تلو الأخرى من ظفار واليمن وحبان وبيحان وشبوة بأنواع المتاجر وأصناف السلع فعظمت أرباح التجار وتضاعفت مكاسبهم واتسع نطاق ثرواتهم ، اتساعا ما كانوا يحلمون بمثله من قبل .

دخول حضرموت فى طاعة العباسيين

فى سنة ٢١٣ للهجرة انتشرت دعوة العلويين باليمن واتسع نطاقها وخاف اليمنيون عاقبة تلك الدعوة ، وما ستجلبه لهم من البلايا والرزايا ، فأرسلوا وفدا من صفوة عقلائهم

إلى الخليفة المأمون ، وكان فى مقدمة هذا الوفد محمد بن زياد بن عبد الله بن زياد ابن أبى سفيان ، فاستعطف الخليفة وضمن له صيانة اليمن من العلويين ، فوصله وولاه على اليمن وقضى على دعوة العلويين وفتح تهامة ، وبسط حكمه على جميع بلاد اليمن ، وأرسل رسله إلى حضرموت يأمر الولاة بالدخول فى طاعة العباسيين فأجابوه إلى ذلك . ولما مات ولى بعده ابنه إبراهيم ، ثم ابنه زياد بن ابراهيم ، ثم أخاه أبو الجيش إسحاق ابن إبراهيم ، وفى كل أيام هؤلاء الولاة ظلت حضرموت فى طاعة العباسيين ، ولكن هذه الطاعة كانت اسما إذ لم يولوا على الحضرميين أحدا منهم يحكم البلاد بالنيابة ، فكان الحضرميون يحكمون أنفسهم بأنفسهم . ولما قتل المتوكل سنة ٢٤٧ وخلع المستعين سنة ٢٥٢ ، واستبد الموالى على الخلفاء خلعت حضرموت طاعة العباسيين ، واستقلت كل الاستقلال فى جميع شئونها الداخلية والخارجية ، واستمر الحضرميون ينظمون أمورهم فى هدوء ، ويعمرون بلادهم فى سكون ، بينما اليمن تموج بالفتن الداخلية ، وتنوء من الاضطرابات والقلاقل ، فقد ظهر هناك يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا بدعوة الزيدية ، واستفحل أمره ، وهجم على صنعاء واستولى عليها قهرا بالسيف .

الحضارمة والهجرة

الحضارم من أقوى أمم الأرض على الأسفار ، وأكثرها صبرا على تحمل المشقات ، ولعوا بالأسفار من قديم — وقد ذكرنا ذلك بالتفصيل — وقد استمرت هجرتهم إلى ما بعد ظهور الإسلام ، ثم انكمشت وانقطعت لاشتغالهم بالحروب فى عهد عبد الله ابن يحيى الكندى وابن عطية وشعيب البارق ، وانصرافهم بعد ذلك إلى إصلاح شئونهم الداخلية وتنظيم معايشهم وتعمير بلادهم .

ولما هدأت الأحوال وانتظمت الشئون وانتشر الأمن فى طول البلاد وعرضها ، وكثر الخصب وزكا الزرع وأثمر وأينع ، ونشطت الأسواق وعظمت الأرباح للتجار وازدادت الثروة واتسع نطاقها ، اتجهت أنظار الحضرميين إلى الهجرة من جديد ، وطمحوا فى توسيع تجارتهم وتوطيد ثروتهم ، فهبوا يهاجرون أفرادا وجماعات ، وكان

هؤلاء المهاجرون طائفتين : طائفة اتجهت نحو الشمال (مصر والبصرة وبغداد والأندلس) وأخرى ولت وجهها شطر جنوب الهند وسواحل أفريقيا الشرقية ؛ أما الأولى فلطلب العلم ولذكائهم واجتهادهم برزوا فى علوم اللغة العربية والدين ، ولعبقريتهم وعصاميتهم نالوا القضاء فى دمشق ومصر والأندلس ؛ وأما الثانية فلغرض تجارى محض ، ولكن بالرغم من اشتغالهم بالتجارة فقد نشروا الإسلام بين أهالى تلك الأصقاع النائية ، وبنوا المساجد وأنشأوا المكاتب لتعليم النشء القرآن الكريم ، ولأمانتهم ومعاملتهم الحسنة مع الأهلين احترمهم الناس وعظموهم واتخذوهم أنصارا لهم وأعوانا فى شئونهم الخاصة والعامة ، فتوطد بذلك مركز الحضارمة وعظم شأنهم وعلا مقامهم وذاع صيتهم ، وكانت كلمتهم مسموعة وأمرهم نافذا ، ولو كانوا أرادوا الملك لجاءهم يمشى على قدميه ، ولكنهم كانوا لا يريدون إلا التجارة ، ولقد اندمج بعضهم فى الأهالى وتزوجوا منهم وتخلقوا بأخلاقهم ، وألفوا عاداتهم ؛ فضاعت منهم عروبيتهم وحضرميتهم ولغتهم العربية ، وأصبحوا كأفراد الأهالى فى عاداتهم وأخلاقهم وملامحهم ولغتهم حتى اعتبرتهم ولايات تلك البلاد من الأهلين ، تعاملهم كما تعامل الوطنيين ، وتمنحهم من الحقوق والواجبات ما تمنح هؤلاء .

وفى الجزء الثانى بيان عن هجرة الحضارمة إلى مصر والشام وإلى جزائر جاوة وسائر بلاد الشرق الأقصى ، كما أننا سنتكلم فيه على هجرة بنى هلال من حضرموت إلى طرابلس الغرب وشمال إفريقية .

نهضة حضرموت العلمية

والحضرمى حادّ الذكاء قوىّ الذاكرة سريع البداهة كثير النباهة ، مستعدّ كل الاستعداد للرقى ومجاراة روح كل زمان ومكان فى العلم والأدب والحضارة والاجتماع نشيط مجدّ وقور صبور على مكافحة المتاعب وتحمل المصائب مهما تفاقم خطبها وعظم شرها ؛ يقطع الفيافى والقفار ويمخر عباب البحار لطلب علم واكتساب مال ، تاركا وراءه الأهل والعشيرة والصحب والديار ؛ ولقد كان أغلب الذين هاجروا إلى الشمال لم يكن لديهم من الزاد إلا ما يوصلهم إلى حيث يقصدون ، وليس لهم غاية سوى العلم ، ولكن كانت عبقريتهم بارزة وعصاميتهم عالية ، فقد كوّنوا أنفسهم بأنفسهم ، وخلقوا لهم مركزا من العدم ، وأوجدوا لهم اسما بعد الخمول ، وتبوءوا من العلم والسؤدد مقعدا عليًّا ، وهم مع كل ذلك مثال الخلق الكريم وحسن العشرة والوفاء بالعهود والصدق فى القول والإخلاص فى العمل ، لذلك أشير إليهم بالبنان ، وحفظت أسماءهم الكتب وبطون الأوراق .

كان لنهضة بغداد العلمية وللبحوث فى المسائل الدينية والفلسفية أيام المأمون صدى عظيم فى حضرموت وأثر حسن من الحضرميين ، ولكن لم تظهر هناك أفكار شاذة وآراء غريبة ، كالقول بخلق القرآن وتناسخ الأرواح ، وإنما كان همهم مقصورا على تعلم اللغة العربية والدين ، وقد بدأت الحركة العلمية فى تريم ومنها تسرّبت إلى شبام فإلى الهجرين ثم إلى الشحر ، وكانت تلك الحركة فى بدايتها تخطو خطوات بطيئة قصيرة ، وكان العلماء ينشرون علومهم فى صورة محاضرات ومواعظ يلقونها فى المساجد والجوامع ، وفى أواخر القرن الثالث ازدادت الحركة العلمية واتسع نطاقها وأقبل الأهلون على مختلف طبقاتهم يطلبون العلم بشغف وولع ، الأمر الذى جعل أولئك العلماء ينشئون مكاتب خاصة للتعليم فى تريم وسيون والغرفة وشبام وهينن والهجرين ودوعن والشحر ، وكان أغلب هؤلاء العلماء يعلمون الناس العلم دون أن يأخذوا على أتعابهم أجرا ، على أن منهم من يجوب البلاد ويقطع المسافات الطويلة

لنشر العلم ، وكان الناس يتعلمون المعرفة لذات المعرفة ، إذلم تكن هناك وظائف توزّع على المتعلمين ولا جوائز تمنح للشعراء والأدباء والراسخين ؛ ولقد اشتهرت تريم بتقدم العلم فيها وكثرة العلماء والأدباء ، وولع سكانها بالبحوث والمناقشات الدينية والمناظرات الأدبية ، ولقد تصدّى كثير من العلماء للفتوى ، فكانت المسائل والمشاكل الدينية ترد إليهم من كل أرجاء البلاد ومن عدن ومن اليمن ، وكان طلبة العلم كبارا وصغارا يؤمون مدينة تريم من كل أنحاء حضرموت ومن عدن وصنعاء وزبيد ، فأصبحت تريم تموج بالطلبة والعلماء والأدباء والفضلاء ، وبالرغم عن كثرة هؤلاء ، فقد كانوا على وفاق ووئام ولم يحدث بينهم مايحدث عادة بين كثير من العلماء من التنافس على الفتوى والتخاصم على الشهرة ، والسعى لإسقاط بعضهم بعضا بالوشاية والنميمة والطعن ؛ وحينما تقدم لأحدهم مسائل هامة ، فإن كانت فوق مستواه وليس فى مقدوره الفصل يدعو بعضا من زملائه العلماء للنظر فيها والمشاركة فى البحث ، ومبادلة الآراء والتشاور ، هكذا كان التواضع بينهم سائدا ، والتساند شائعا ، لايتكبر زيد على عمرو ولا يفتخر بكر على خالد ، ولم ينبئنا التاريخ أن خلافا كبيرا حصل بينهم ، كما أنه لم يثبت لنا أنهم خالفوا فى فتاويهم الكتاب والسنة ، أو انحازوا فى أحكامهم إلى زيد دون عمرو لجاهه أو ماله أو قوّته ، بل الناس عندهم سواسية لافرق بين غنىّ وفقير ، ولا بين قوىّ وضعيف ، ولا بين متسلّح وأعزل ؛ وليس للنسب والحسب عندهم قيمة وإنما كانوا يفضلون الشخص لعلمه وتقواه أية كانت حرفته ، ولم يتظاهر أحد منهم بالسلطة الروحية أو سعى إليها ودعا الناس إلى التبرّك به والتوسل إليه ببيع العزائم والتمائم كما يعمل الدجالون ومشايخ الطرق ، بل كانوا على جانب عظيم من العفة وعزّة النفس ، وكان لأغلبهم متاجرير ترقون منها ويعتمدون عليها فى ضرورياتهم الحيوية ؛ ومما يؤخذ على هؤلاء العلماء أنهم لم يهتموا بالتدين كثيرا ولم يؤلفوا الكتب مع سعة علومهم ومقدرتهم على الكتابة ، ولو فعلوا لكان فضلهم عظيما ومعروفهم جسيما ، ولكان الخلف انتفع بعلومهم أكثر مما انتفع بها معاصروهم ؛ وليس بين أيدينا عذر نعذرهم به على ما فرّطوا فى التدوين .

خروج آل باعلوى إلى حضرموت

فى سنة ٣١٧ للهجرة جاء من البصرة الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوى، وأقام بالحسيسة ثم انتقل منها هو ومن معه إلى قارة جشيب ، ثم انتقلوا إلى بيت جبيرة فى سمل، وهناك احتفروا بئرا عرفت ببئر أحمد، ثم انتقلوا إلى تريم وفيها بنوا مسجدهم المعروف بمسجد أحمد ، وتوفى الشيخ أحمد بن عيسى باعلوى بالحسيسة ، وقد اشتهر بالصلاح والورع والإخلاص فى النصح للناس ، وقد رأى العلويون من بعده أن يكونوا لهم مركزا يكون أساسه السلطة الروحية ، ولقد ساقهم إلى ذلك ماشاهدوه فى كثير من الحضارم من السذاجة وحسن النية وسلامة الطوية ، قالوا إنهم من سلالة الرسول [١] ، وحين شك الحضارم فى أمرهم اضطر آل باعلوى أن يبعثوا واحدا منهم إلى البصرة ليأتى بشهادة قاضيها فيما قالوا ، فرحل الشيخ علىّ بن أحمد بن جديد إلى البصرة وطلب إلى القاضى إثبات نسبهم ، فأجابهم إلى ذلك وشهد معه جمع ممن يريد السفر إلى الحجّ ، فسافر هو وأولئك الحجاج إلى مكة ،ورقب هناك حجاج حضرموت على أولئك الشهود، ثم سافر إلى حضرموت وقدم شهادة قاضى البصرة وبعض الحجاج البصريين إلى العلماء ، فرفضها كثير من الناس لعدم استنادها إلى براهين تاريخية ، واعترف بها وصحح عليها بعض العلماء كالقاضى عبد الرحمن بن علىّ بن أبى حسان ، والعلامة الشيخ فضل بن عبد الله بن فضل ، والعلامة الشيخ محمد بن أحمد بن أبى الحب والعلامة الشيخ عبد الله بن أسعد اليافعى والعلامة الشيخ محمد بن أبى بكر عباد والعلامة الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن سالم المروانى التريمى .

لقد بذل آل باعلوى كل مستطاع فى توطيد مركزهم الروحى ، وتظاهروا بالصلاح والتقوى وعملوا بكل ما عرفوا به من الدهاء لجلب الناس إلى تقديسهم والتبرك والتوسل بهم ، ولقد نجحوا فى ذلك وفازوا بالسلطة الروحية دون غيرهم ، وتضاءلت سلطة العلماء الدينية أمام سلطتهم الروحية ، ولقد توطدت هذه السلطة وتوغلت عروقها فى أحشاء الشعب الحضرمى حينما شرع بعض آل باعلوى يبنون

(١) راجع صفحة ٤١٣ فى المجلد الثانى من الجزء الأول من كتاب « قلائد النحر فى وفيات أعيان الدهر » للعلامة ابن مخرمة الحضرمى الموجود بدار الكتب المصرية .

القباب [1] على بعض موتاهم رحمهم الله ، ويدعون الناس إلى تقديس تلك المقابر والتوسل بها ، وتقديم النذور والقرابين لها ، هكذا أصبح الحضارم يقدسون آل باعلوى الأحياء منهم والأموات ، ويتبرّكون بهم ويتوسلون إليهم فى قضاء الحاجات ، ويقدمون القرابين والنذور لموتاهم رحمهم الله لجلب الرزق وإطالة العمر وإزالة المرض وغفران الذنوب ودفع الخطوب وتفريج الكربات وغير ذلك من الأمور ، مما يمقته الدين والعقل ويصرّح ببطلانه الكتاب والسنة ، وتأباه النفوس العلية ، وتنفر منه الطباع السليمة .

ثم إنهم لم يكتفوا بذلك ، فقد ألف بعضهم كتبا لتضليل عقول الناس وتسميم أفكارهم بما يقصونه عليهم من الحكايات الخرافية والدعاوى الكهنوتية وعلى رأس تلك الكتب « المشرع الروى » ، ولم يقفوا عند ذلك الحدّ ، لم يقنعوا بتضليل عقائد الشعب الحضرمىّ وتسميم أفكاره ، لم يقنعوا بما نالوه من السلطة الروحية ، بل طمحت نفوسهم واشرأبت أعناقهم إلى أكثر من ذلك ، طمحوا إلى الملك فلعبوا فى السياسة أدوارا هامة سنذكرها فى غير هذا المكان ، .

انحلال دولة كندة

كان انصراف الحضرميين إلى تنظيم شئونهم وإصلاح أحوالهم وتعمير بلادهم واشتغالهم بالعلم وولعهم بالأسفار من أعظم الأسباب التى كرّهت الحروب إليهم ، وجعلتهم يمقتون الفتن والمحن والقلاقل والزلازل ، ويميلون كل الميل إلى الهدوء والسكون ، وقد قبع ملوك كندة فى قصورهم ، ولم يجدوا من الظروف والمناسبات

(١) لم يكن آل باعلوى وحدهم الذين بنوا القباب ، وإنما شاركهم فى ذلك آل عباد وآل باوزير وآل عمودى . ومما يسرنا أن أغلب آل عمودى وآل باوزير قد تهذبت عقولهم وتنورت أفكارهم وأصبحوا يدعون الناس إلى ترك الخرافات والترهات ، ونبذ التوسل بالقبور والأحجار والأشجار والعزائم والتمائم والتولة أصبحوا يدعونهم إلى صدق اليقين والثقة بالله وحده ، ونشر المساواة بين طبقات الشعب بفضل انضمامهم إلى جمعية الإصلاح والإرشاد ، كما أن بعضا من آل باعلوى وهم جماعة من آل حبشى نحوا ذلك السبيل وضموا أصواتهم إلى أصوات دعاة الإصلاح والمساواة الشرعية . ولآل إسحاق وآل باجابر سلطة روحية أيضا ، ولكنها فى الدرجة الثانية ، ولقد عرف آل إسحاق بحب الإصلاح بين القبائل المتسلحة ، كما شاهدنا ذلك فى نواحى حضرموت الوسطى حيث يقيمون .

ما يساعدهم على الظهور كما كانوا من قبل يبعثون الجيوش ويخرجون بها فى ساحات الحروب ، وأمسوا لا يفكرون فى توسيع سلطتهم وتقوية مركزهم ، وكأنهم رغبوا عن الملك ، أو كأنهم كانوا آمنين على بقاء ملكهم ، فتساهلوا فى حفظ سلطتهم كل التساهل ، وتغافلوا عن حماية نفوذهم كل التغافل ، وناموا نوما عميقا ، ولم يعلموا أن الملك كالشجرة إذا لم يتعهدها صاحبها بالسقى تذبل وتموت .

ظهر فى كل مدينة وفى كل قبيلة أفراد أولو شخصيات بارزة وآراء صائبة وعقول نابهة ، فكان الناس يلجئون إليهم فى حل المشاكل وإزالة الخاصمات ، ويهتدون بآرائهم فى أمورهم الخاصة منها والعامة ، تاركين الملوك وراءهم ظهريا . مرت عشرات السنين على تلك الحال ، وخلف بعد أولئك الملوك خلف كانوا أعمق منهم نوما وأكثر خمولا وركودا ، انفصلت عنهم جميع قبائل نهد واستقلت كل الاستقلال ، وأصبحوا يتحاكمون فى مشاكلهم إلى رجل أو رجال منهم ، وكذلك الشأن فى شرق حضرموت فقد خلعت الطاعة تميم وهمدان ومن يلحق بهم كالعوامر وآل باجرى ، واستقلوا فى جميع شئونهم الاستقلال التام ، وكذلك الحال عند العوابثة والجعدة وجميع قبائل دوعن ووادى عمد . هكذا تلاشت دولة كندة وتداعت أسسها وانحلت أركانها وهوى نجمها وطمس نورها وأمسى مركز ملوكها فى دمون وشبام وهينن والهجرين وعندل والشحر كمركز رؤساء القبائل ، وربما كانوا دون هؤلاء فى السلطة والقوة والنفوذ ، ومما زاد الطين بلة والخرق اتساعا ، هجرة بعض رجالات كندة إلى الشام وبغداد ومصر والأندلس والمغرب ، وترك بعضهم السلاح كآل باكثير ، واشتغلوا بالعلم والأدب . [١]

إمارة آل راشد

بنو راشد بطن من حمير هاجروا من اليمن فى القرن الثالث الميلادي بعيد سيل العرم

---

(١) كثير من القبائل الحضرمية كآل مرتع وآل باكثير وآل إسحاق وآل باجابر هم من كندة ، وكذلك أغلب سكان حورة وهينن من آل تجيب وبنى الحارثة الكنديين ، وإنما ترك بعضهم السلاح لاشتغالهم بالعلم والتجارة ، وكذلك الشأن فى أواخر الدولة الحميرية ، فإن بعض قبائل حمير كآل كلالى وآل شراحيل وبعض بيوتات فى شبام التى تنحدر من بنى فهد تركوا السلاح لاشتغالهم بالتجارة والأسفار .

إلى الشحر ، ثم إلى عندل وهينن ثم إلى شبام وتريم ، وكانوا أهل زهد وورع ، ولشدة حبهم للخير وحرصهم على الحق اتخذهم الناس ملجأ يلجئون إليهم للفصل فيما هم فيه مختلفون ، فكان آل راشد مع قلة عددهم ومع أنهم ليسوا من أرباب المال يتصدون للحكم بين المتخاصمين والمتنازعين ، ولقد ذاع صيتهم وانتشرت شهرتهم فى أرجاء البلاد ، وصاروا يضرب بهم المثل فى العدل ، ولذلك كان يهرع إليهم المتخاصمون من مسافات بعيدة تولوا الإمارة [١] وكان سلطانهم الأعظم العالم الجليل عبد الله ابن راشد بن أبى قحطان الحميرى ، ولد بتريم سنة ٥٥٣ هجرية فرباه أبوه تربية دينية ، تعلم القرآن الكريم وحفظه ، وتفقه فى الدين على بعض أئمة تريم كالإمام يحيى بن سالم بن فضل (بافضل) والإمام أبى بكر بن أحمد بن أبى ماجد ، والإمام فضل بن إبراهيم بن أبى جواس : ثم سار إلى الهجرين ، وقرأ صحيح البخارى على الإمام محمد بن أحمد بن أبى النعمان الهجرانى ، ولما عاد إلى تريم تولى السلطنة وسنه لاتتجاوز الثلاثين ، فحكم بين الناس بالعدل ونفذ فيهم أحكام الشريعة دون تمييز بين الفقير والغنى ، ولا بين القوى والضعيف ،فكان الناس لديه سواسيه . أنشأ دورا كثيرة لطلب العلم ، وبذل لتعليم الناشئين أموالا كثيرة ، وأكرم العلماء وأجزل لهم العطايا ، وأكثر من الصدقات للفقراء والمعسرين ، وفتح لهم أبواب الرزق بما قام به من المساعدات لفلاحة الأرض وزراعتها ، ومنح جميع التجار والفلاحين كل التسهيلات فكان عصره من أحسن العصور وأغزرها ، رخاء وأوفرها أمنا وأحرصها محافظة على العدالة والمساواة . سأله أحد المعجبين به بماذا تفتخر على غيرك من السلاطين ؟ فقال : أفتخر عليهم بثلاث خصال : لا يوجد فى بلادى حرام ولاسارق ولامحتاج . وكتب إليه العلامة محمد بن أحمد ابن أبى الحب رسالة ومما قاله :

أيا علم الأفضال والجود والكرم ... وعلامة الآداب والعلم والحكم
ويا عصمة الله الذى الناس ترتجى ... له دولة يرعى بها الذئب والغنم

ولقد بلغت تريم فى عهده من العلوم الدينية مبلغا ليس له مثيل فى حضرموت ولا فى اليمن ، فقد صارت كعبة يومها طلاب العلم من سائر أنحاء البلاد ، وكان يرحل

(١) كانت حدود سلطنتهم من القرط غربا إلى قبر هود عليه السلام شرقا .

إليها بعض اليمنيين من زبيد ، حتى إذا نالوا حظهم من علوم اللغة والدين عادوا إلى زبيد ونشروا هناك ما تلقوه من علماء تريم . قال العلامة على بن محمد بن أبي حاتم أبياتا فى مدح تريم وعلمائها حينما غادرهم إلى اليمن :

رعى الله إخوانى الذين عهدتهم ببطن تريم كالنجوم العوالم
عليا حليف النجدة ابن محمد وأبنا أخيه الغرّ أبناء حاتم
ومن فى تريم من فقيه مهذب وسيد أهل العلم يحيى بن سالم

والمراد بيحيى هنا هو الإمام يحيى بن سالم بن فضل .

استيلاء الزنجبيلى على حضرموت

فى سنة ٥٧٦ للهجرة هجم عزّ الدين عثمان بن علىّ الزنجبيلى والى عدن ولحج من قبل دولة بنى أيوب ، فاستولى على الشحر ، ثم سار بجيشه إلى شبام وتريم ومريمة واحتلها دون أن يلقى أمامه مقاومة شديدة من الحضرميين ، ثم عاد إلى عدن بعد أن جعل آل راشد نوابا عنه ، يبعثون إليه الخراج فى كل سنة .

قال الكبسى فى (اللطائف السنية) : « وفى سنة ٥٧٦ توفى شمس الدولة توران شاه ابن أيوب فى الإسكندرية ودفن بها ، وكان عماله على اليمن يبعثون بالخراج إليه ؛ فلما مات أظهر عماله الخلاف ومنعوا الخراج ، وضرب كلّ منهم السكة باسمه ، إلا مظفر الدين فإنه ضعف عن العمل ، فنهض إليه عثمان الزنجبيلى من عدن ، وأخذ البلاد التى بيده ، وتوجه عثمان المذكور إلى حضرموت فاستولى عليها ، وقتل من أهلها كثيرا ، واستفحل أمره وقويت شوكته ، وجعل عمر بن مهدى واليا على حضرموت من قبله ، ورجع إلى عدن » .

وفى سنة ٥٧٧ أظهر آل راشد الاستقلال وخلعوا الطاعة ؛ ولما بلغ ذلك الزنجبيلى أرسل عليهم جيشا وأدخلهم فى الطاعة ، وقتل كثيرا من علماء تريم الذين حرّضوا آل راشد على خلع الطاعة وإعلان الاستقلال ، وقبض على السلطان راشد وابنه شجنعة ، وأتى به إلى عدن وسجنهما . وفى سنة ٥٧٩ بلغ الزنجبيلى وصول الملك طغتكين ابن أيوب إلى تعز وزبيد ، وقبضه على العمال المستبدين ، فخاف على نفسه وهرب

من عدن ، فانتهز هذه الفرصة السلطان راشد وابنه وهربا ليلا إلى حضرموت ، ثم استقلّ آل راشد بالأمر ، واستمرّوا يحكمون البلاد نحو ثلاثين سنة ، وكانوا مثالا للعدل ، وكان الناس فى سعادة وهناء ، ولكنّ بعض هؤلاء بطروا واستكبروا وعتوا عن أمر الله ، وسخروا من السلطة واحتقروا رجالها ، لأنهم نالوا السعادة بعد الشقاء عفوا بلا تعب ، وأتاهم المال من غير حساب ، فدعاهم السلطان إلى الصلاح والرشاد وبذل كلّ مجهود لهدايتهم إلى الطريق الأقوم ، وأرسل إليهم الوعاظ والعلماء ليردعوهم عن غيهم ، ويرشدوهم سواء السبيل ؛ ولكن لم ينفعهم وعظ الواعظين ، ولا نصح الناصحين ، فبقوا فى طغيانهم يعمهون ؛ فغضب السلطان لذلك ولكن دون أن يعاقبهم وينفذ فيهم أحكام الشريعة ، كما كان فى أوّل أمره ، إذ أصبح عاجزا عن تنفيذ إرادته ، حتى اعتزل السلطنة وتفرّغ للعبادة ، وتبتل للمكرمات واكتساب الخيرات ؛ فقيل له فى اعتزال السلطنة فقال : ما وجدنا آل حضرموت يوالوننا على الحقّ . ثم سافر ليصلح بين قبيلتين فقتل فى الطريق غدرا ، وذلك فى سنة ٦١٢ للهجرة ودفن فى مريمة . وبقتله ضعفت سلطنة آل راشد ، وتداعت أركانها للسقوط ، وكان رحمه الله سليم النية صافى السريرة ، طاهر الذيل غيورا على الحقّ عدوّا للباطل ، صالحا تقيا ورعا ، شغوفا بنشر العلم وحبّ الخير .

خلف من بعد السلطان عبد الله بن راشد خلْف تساهلوا فى الحكم ، وتغافلوا عن توحيد مركزهم وتمجيد مقامهم وتعزيز سلطتهم . لم يؤدّوا الأمانة كما يجب ، لم يهتموا بشكوى المشتكين ، ولا لظلامة المظلومين ، فضعفت سلطة الولاة ، وتلاشت هيبتهم وعجزوا كل العجز عن تنفيذ الأحكام وإصدار الأوامر ، فانتشرت الفوضى فى طول البلاد وعرضها ، فسيطر القوىّ على الضعيف ، وهضم حقوقه ، وطغى الغنىّ على الفقير واستعبده فى شئونه الخاصة .

يئس الشعب من ولاة الأمور ، وقطعوا كلّ أمل فيهم ، فاجتمع كثير من أولى الرأى وأرباب العلم ، وفكروا فى حالة الأمة وما تقاسيه من الفوضى والدمار ، وأرادوا عزل جميع ولاة آل راشد ، وجعل السلطة فى يد أفراد من عقلاء الأمة وعلمائها ، ولكنهم وجدوا أن هذا يكلفهم أموالا كثيرة واضطهادا شديدا من الأغنياء

والأقوياء الجبارين ، فكيف الأمر وليس بيدهم مال يتوصلون به إلى غرضهم الشريف كيف يخرجون من هذا المأزق الحرج ، ويتخلصون من آلام الفوضى وويلات الخراب ؟ وأخيرا استقرّ رأيهم على أن يستنجدوا بنهد ، فأرسلوا إليهم الوفود وطلبوا إليهم احتلال البلاد لإصلاحها ، وإعادة الأمن وبثّ العدالة .

نهد

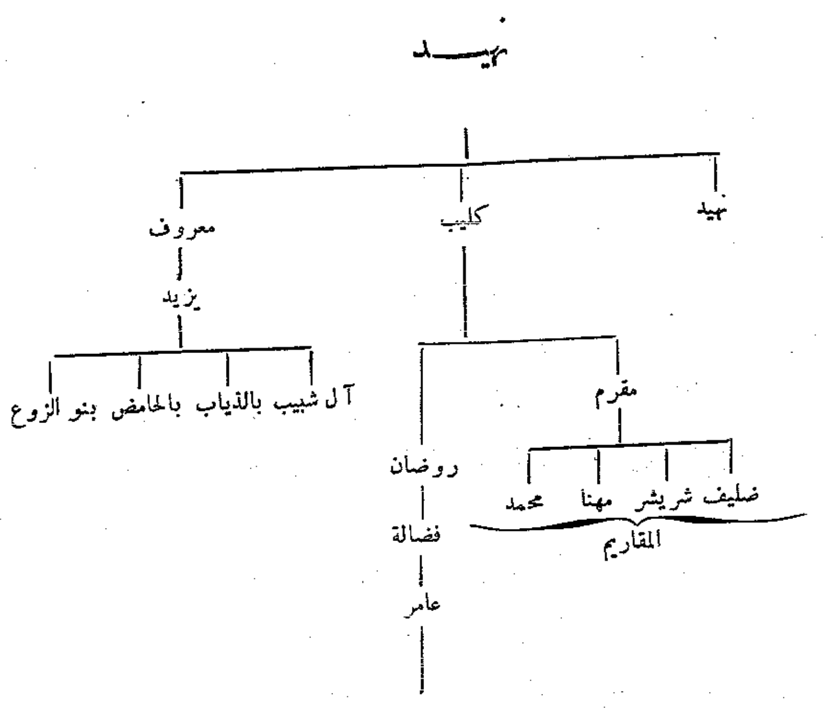
هم بنو نهد بن زيد بن ربيعة بن سود بن أسلم بن الحافى بن قضاعة ، هاجروا من اليمن إلى حضرموت ، ولم يعرف بالضبط تاريخ هجرتهم ، ومن المحتمل أنهم جاءوا حضرموت فى عهد ازدهار الدولة الحميرية ، فيها سكنوا فى كسر قشاقش ، وكانوا وحدة لاتتجزأ وعروة لاتنفصم ، كانوا متحدين مترابطين متحابين لدرجة التعصب ،وكانوا أهل قوّة ومنعة ، وكانت الهضبة الواقعة فى جنوب الفوّهة والتى على مقربة من مدينة العروض معقلا يرابضون فيه لصدّ غارات القبائل التى تأتى من أنحاء اليمن ، وقد دحروا عدة قبائل كانت أرادت الهجوم على حضرموت وكسروها هنالك كما كانت المخينيق الواقعة بين حورة والعجلانية معقلا آخر من الناحية الشرقية . وكانت بلادهم من العجلانية إلى العروض . ومن الخماس إلى أعالى حدود سدبة حدائق غناء ، ومزارع خضراء ، لايرى السائر فيها من جبل شراح إلى جبل حورة لكثرة النخل والكرْم وأشجار السِّدر . وكانت حاصلات أرضهم وافرة تزيد عن حاجتهم ، ولذلك كانوا يرسلون كثيرا من البلح والزبيب والدوم وأنواع الحبوب إلى هينن والهجرين وشبام للبيع ، ولم يكن هناك حاكم عامّ يخضعون لأوامره ويلجئون إليه فى حلّ مشاكلهم ومشاغباتهم ، بل كان لكل قبيلة واحد يتحاكمون إليه فيما شجر بينهم ، وما احتدم من نزاع أو خصام .

وفى سنة ٩٤٥ هجم عليهم السلطان بدر بوطويرق الكثيرى وأخرجهم من الكسر إلى الشاقة ، فسار حسان بن محمد بن عامر النهدى إلى حاكم اليمن واستنجد به على السلطان بدر الكثيرى ، فأنجده بجيش ، ولكن فى أثناء قدومه إلى حضرموت ، توفى حسان بن محمد ، فعاد الجيش إلى اليمن ، ثم سار أخوه ثابت بن محمد النهدى إلى والى

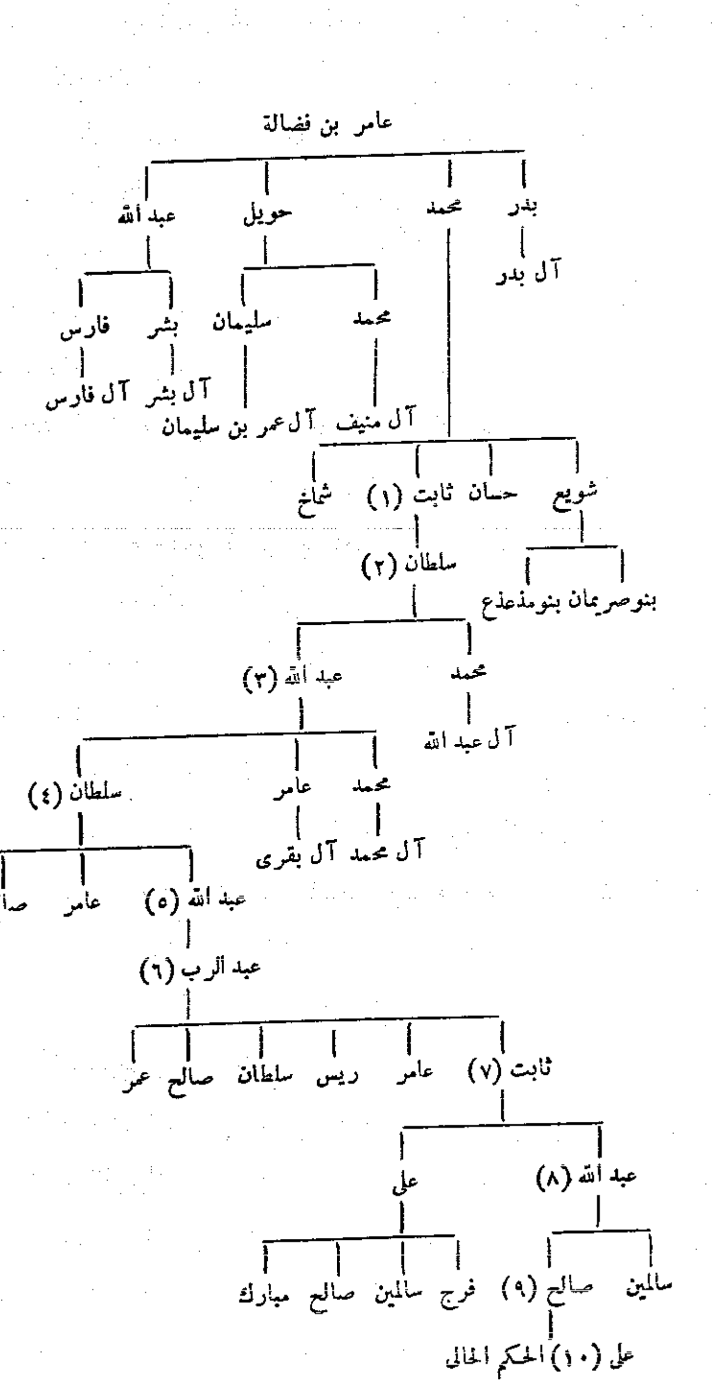
اليمن ، وطلب إليه أن يتوسط بينه وبين السلطان الكثيرى لإعادة نهد إلى العدان ، فأجابه إلى ذلك، وسمح السلطان بدر الكثيرى لنهد بالسكن فى العدان والخينيق وسدبة وشراح .

ثم اجتمعت كلمة نهد والجعدة على إيجاد حاكم منهم يدير شئونهم العامة ويصلح أمورهم، ويقيم بينهم العدل وينشر السلام، فجعلوا ثابت بن محمد النهدي حاكما عليهم، وهو أوّل حاكم نهدى خضعت له جميع قبائل نهد والجعدة . ولما مات قام بالأمر بعده ابنه سلطان ، ثم أخذ الحكم ينتقل من الأب إلى ابنه سنينا عديدة حتى استقرّ فى يد الوالى علىّ بن صالح النهدى .

وإلى القارئ شجرة تبين سلالة نهد ، ومن تفرّع عنهم من البطون ، من جدّهم الأعلى (نهيد) إلى رئيسهم المعاصر لنا الآن وهو الحكم (علىّ بن صالح النهدى) و



انظر سلالة عامر هذا فى الصفحة الآتية :


عامر بن فضالة
بدر
محمد
حويل
عبد الله
آل بدر
محمد
سليمان
بشر
فارس
آل بشر
آل فارس
آل منيف
آل عمر بن سليمان
شويع
حسان
ثابت (١)
شماخ
بنو صريمان
بنو مذعذع
سلطان (٢)
محمد
عبد الله (٣)
آل عبد الله
محمد
عامر
سلطان (٤)
آل محمد
آل بقرى
عبد الله (٥)
عامر
صالح
عمر
عبد الرب (٦)
ثابت (٧)
عامر
ريس
سلطان
صالح
عمر
عبد الله (٨)
على
سالمين
صالح (٩)
فرج
سالمين
صالح
مبارك
على (١٠) الحكم الحالى

ولما جاءتهم وفود رعايا آل راشد ، رفضوا طلبهم فى بادئ الأمر لأن بلادهم غنية فلم يطمعوا فى فتح بلاد أخرى ، ولم يطرأ على بالهم بسط نفوذهم إلى تريم ، ولكن الوفود ألحوا عليهم ، فلم تر نهد بدا من إجابة طلبهم ، فساروا إلى شبام وحاصروها حتى استولوا عليها بدون قتال ، ثم ساروا فى طريقهم إلى تريم يستولون على القرية بعد الأخرى ، حتى وصلوا إلى تريم وحاصروها أياما ، ثم قتلوا عمر بن مهدى واستولوا على المدينة ، واستمرّ حكمهم ثلاث سنوات . وفى سنة ٦٢٣ هطلت أمطار كأفواه القرب ، فبلغ السيل الزبى وغمر الماء القيعان والربا ، واجتمعت سيول دوعن وعمد ووادى العين وهينن أشبه بالطوفان ، اكتسحت أمامها ديارا كثيرة وأشجارا لاتحصى ، وغرق كثير من الناس وانتشرت الأمراض ، فاضطرّ كثير من نهد لمغادرة تريم وشبام والعودة إلى بلادهم التى دمر السيل كثيرا من ديارها ونخلها وأشجارها ، وتركوا الأمر لعلىّ بن عمر بن مسعود ، فانتهز بنو سعد اشتغال نهد بإصلاح بلادهم فحاصروا شبام ، فرأى علىّ بن عمر بن مسعود أنه ليس فى استطاعته مقاومة بنى سعد الأشدّاء الأقوياء ، لذلك سلم إليهم شبام سنة ٦٢٥ وأخذ عسكره وسار بهم إلى الهجرين وحاصرها ، ولم يكن فيها من الرجال المدافعين غير عدد قليل ، فأذعن له الأهالى وسلموا له البلد ، ثم سار إلى هينن فقاومه الأهالى مقاومة شديدة ، وكادوا يدحرونه لولا أنه رماهم بالمنجنيق ، فانتصر عليهم واستولى على البلد سنة ٦٢٦ ؛ وفى هذه السنة نفسها سار إلى الشحر وكان أميرها عبد الرحمن بن راشد بن إقبال ، وحاصرهم أياما فعرضوا له مبلغا كبيرا من المال على أن يفك الحصار ويعود إلى حيث أتى ، فقبل منهم المال ووصل إلى هينن .

وفى سنة ٦٢٨ اشترى شبام من عيسى بن فاضل وجعلها مقرا لحكمه ، ثم سار بجيشه إلى وادى عمد وقاتل قبائلها ، ثم صالحهم وعاد إلى تريم واحتلها ، واستمرّ يحكم البلاد نحو ثمان سنوات ، كان فى خلالها ينهب أموال الرعايا ويكنزها دون أن يبذل شيئا منها لإصلاح العباد وعمران البلاد ، وفى سنة ٦٣٦ جاء عامر بن فضالة بن شماخ وطرد آل إقبال من شبام وتريم وسيون واحتلّ البلاد ، وفى سنة ٦٣٧ أراد مسعود أن ينتقم من آل شماخ ، فجمع رجالا من آل إقبال وآل أبى قحطان وهجم على تريم

ونهب سوقها وعاث فيها فسادا ، فهرب أكثر السكان ولم تصلّ جمعة فى رجب وشعبان ورمضان ؛ ولما علمت نهد بذلك ساروا إلى تريم وأخرجوا مسعودا منها ، وتسلموا البلاد من ابن شماخ واستمرّوا يحكمونها فى هدوء وسكون ، ومع أنهم لم يعمروا البلاد بشيء فقد كانوا محبوبين من الأهالى ، لأنهم كانوا أهل قناعة ، فلم يرهقوا الناس بالضرائب ولم يأخذوا من أموال الرعايا شيئا غير مايبذلونه من حاصل التمر ، وبعد ثلاث سنوات اضطرّوا لأن يولوا البلاد نفرا من أعيانها وسافروا إلى بلادهم ، وهكذا تركت نهد إمارة حضرموت الوسطى مرّتين ، وفضلوا قعوظة على تريم الغنّاء الفيحاء مدينة العلم والحضارة ، ولو أنهم ثبتوا فى الإمارة ووطدوا مركزهم بتولية رجال منهم لاتسع نفوذهم وقويت شوكتهم ، ولدانت لهم حضرموت جميعها ، لأن حضرموت الوسطى من الفرط غربا إلى قبر هود عليه السلام غنية بغلاتها قابلة للرقى والتمدين ، وعلى أهلها مسحة من الحضارة ، ولديهم حظّ من العلم ، ولكنهم لم يحلموا بذلك ؛ ولعل أنظارهم لم تبلغ إلى حدّ أبعد من حصر نفوذهم فى حدود بلادهم ، أو لعلهم أرادوا أن يحصروا قواهم ويوجهوها إلى إصلاح ما دمره السيل فى بلادهم . وعلى كلّ حال فتاريخهم السياسى يؤاخذهم على ذلك التقصير . ويحاسبهم على ما ارتكبوه من خطأ لتركهم إمارة واسعة النطاق كثيرة الخيرات .

أصبحت البلاد بعد تخلى نهد عنها فى اضطراب مستمرّ ، وفى زلزال متواصل ، وقد يهدأ الاضطراب ويسكن الزلزال ، ولكنه هدوء متقطع وسكون تتخلله هزات ، فحينا يشعر زيد بقوة ساعده وشدة بأسه ، وحينا يجول بخاطره ويطرأ على باله التسلط على العباد والبلاد يأخذ عدته ويصيح فى قومه ، فيهجم ويستولى على بلد أو أكثر من بلد ، ويعلن للناس حكمه الجديد ، وبعد مضىّ شهور عليه أوسنة أو أكثر من سنة ، يأتى عمرو برجاله فيطرد زيدا وأنصاره ويحكم البلاد حكما يخالف مَن قبله . ولقد كان لتلك الاضطرابات والمشاغبات أثر سيئ ليس فى الحالة السياسية فقط ، بل وفى الحالة الأدبية والاجتماعية والاقتصادية أيضا ، فإن الحركة العلمية فى تريم وشبام خمدت وتضاءل نورها ، وكاد ينطفىء ، وانحطت الأخلاق انحطاطا سيئا ، فأناس أعمى قلوبهم الطمع والجشع ، فتنازعوا وتحاربوا من أجل السلطة والحكم ، وأناس خنعوا

وخضعوا لتصرّفات الحوادث ، وحبسوا إرادتهم وكتموا عواطفهم ، فلم يسدوا نصحا ولم ينهوا عن منكر ، وآخرون انتهزوا تلك الفرصة السانحة وانتهزوا خمود الحركة العلمية وتنازع الأقوياء على السلطة ، فسعوا بكل مستطاع وبكل ما لديهم من مكر ودهاء لتوطيد مركزهم ، وتقوية سلطتهم الروحية لاستعباد الناس باسم الدين .

أما الحالة الاقتصادية فسيئة جدا ، فقد انحطت الزراعة وانقطعت القوافل وساد الكساد جميع الأسواق ؛ ومما زاد الطين بلة والخرق اتساعا قيام آل جميل ضد بنى ضنة سنة ٧٦٨ ، وتنازع عبد الله بن محمد بن أحمد بن يمانى وابن أخيه راصع بن دويس على الولاية سنة ٧٧٤ ، وظهور حرب السوق الأولى فى الهجرين التى أثارها آل محفوظ سنة ٧٧٤ والحرب الثانية سنة ٧٧٥ .

فهذه الحوادث وهذه النكبات المتواترة ، خذلت العباد وأنهكت البلاد . ولقد كان من خذلان الأسواق وانقطاع القوافل عن الورود إليها لقلة الأمن أن ازداد القحط سنة ٧٧٦ ، فارتفعت فيه الأسعار ارتفاعا عجز الناس معه عن شراء الضروريات ، حيث بيع التمر رطل بدرهم والطعام شطر بدرهم . وفى دوعن بيع الطعام ، (مصرا) بدينار وبيع الفقوز ستين بدرهم .

الدولة الكثيرية
فى دورها الأول

آل كثير أعظم قبائل همدان ، وأشدها قوة وأشرفها مقاما ، وأعزها رجالا ، لهم نفوس كبار وآمال عظام ومطامح جسام . وهم قبائل كآل عامر ومنهم آل عبدات وآل كدة وآل عبد العزيز وآل عمر ، ومن هؤلاء آل فاس وآل عاس وآل مهرى وآل جعفر بن طالب وآل مرعى بن طالب وآل عمر بن سعيد بن طالب ؛ وهناك أفخاذ كآل سند وآل جعفر بن بدر وآل منيبارى وآل صقير وآل زيمة وآل سعيد بن مرعى ، جميع هذه البطون والأفخاذ ، وكذلك آل باجرى وآل جابر والعوامر وآل سيف هم من آل كثير ؛ وفى ظفار توجد قبيلة كبرى منهم يقال بنو كثير ، وسنتكلم عنهم فى الجزء الثانى .

طمح آل كثير إلى الملك وسعوا إليه من قديم ، ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، إذ كانت كندة باسطة ذراعيها على الأحقاف ، وكانت صاحبة الحول والطول ، ولما بدأت كندة تنكمش وتتقلص حينما اعتراها الوهن ودب إليها الانحلال ، هب آل كثير وسعوا وراء الملك سعيا حثيثا حتى نالوه ، ولكن كان ملكهم ينبسط مرة ويتقلص أخرى ، لتخاصمهم وتنازعهم فيما بينهم وفيما بين غيرهم من المنافسين ، حتى إذا كانت سنة ٧٨٦ بدأ ينتعش من جديد وتسرى فيه روح الحياة ، حيث جمع آل كثير كلمتهم ووحدوا صفوفهم وتعاونوا وتناصروا واستولوا على الشحر . اشتهر منهم فيها السلطان بدر بن محمد الكثيرى ، إذ حكم بالعدل فهابته الناس ، ونشر الأمر بعد أن كان مفقودا لكثرة غارات قطاع الطرق من سكان الجبال ، ولقد أصبحت الشحر فى عهد هذا الشهم المقدام المدينة الوحيدة فى القطر الحضرمى التى تتمتع بالعدل والسلام والتى يجد فيها النزلاء من التجار وغيرهم راحة وهناء . ولشدة حرص السلطان بدر ابن محمد فى الوئام والوفاق ، كان يسعى بين المتخاصمين بالموعظة الحسنة ، ويدعوهم إلى التسامح فيما بينهم ، فإذا أبى أحد الخصمين الصلح أصدر حكمه على الظالم فى شدة

وفى غير محاباة . ولقد حاول إعادة مجد الشحر القديم وشهرتها الواسعة التى بلغت فى الجاهلية إلى أقصى حدود الجزيرة العربية ورنّ صداها فى آذان الفينيقيين والفلدانيين والمصريين ،حيث أرسل رسله إلى الحبشة واليمن والبحرين لنشر الدعاية للشحر ودعوة التجار إليها لمبادلة المتاجر والسلع ،ولكن من سوء حظّ الشحر ومن سوء حظ الحضارم جميعا أن قبائل آل كثير فى حضرموت الوسطى عادت إلى ما كانت عليه من التنازع والتخاصم والتناحر بالرغم من المساعى العظيمة ، والجهود الجبارة التى بذلها المصلح الكبير السلطان بدر بن محمد الكثيرى لإصلاح ذات بينهم وجمع شملهم ، وقد زاد الخرق اتساعا والفتنة اشتعالا قطع صلاتهم بالشحر ، وظل السلطان بدر مع عدد قليل من رجاله يحكم الشحر فى هدوء ، ولكن مع خوف متقطع ، وكأنه علم أن كندة متأهبة لاسترداد الشحر . فأرسل رسله إلى قومه يطلب إليهم رجالا لتحصين الشحر ، وللدفاع عنها ضد المعتدين ولكنهم لم يعيروه التفاتا ،ولم يمدوه بشيء لتخاذلهم وتفرّقهم ؛ ولقد صح ما كان يتوقعه ، فقد انتهزت كندة هذه الفرصة السانحة ، وقام سيدهم سعيد بن مبارك بن فارس بإدجانة الكندى يستفزّ قومه ويدعوهم لاسترداد الشحر ، فلبوا نداءه وأتوه مهطعين وحاصروا الشحر أياما دافع فى خلالها السلطان بدر دفاع المستميت ، ولكنه لم يستطع مواجهة قوّة كندة ورجالها البواسل ، وهو فى ذلك معذور كل العذر ، إذ ليس لديه من الجيش ما يوازى جيش الكندى ، ثم استولوا عليها بعد ذلك سنة ٨٣٨ .

كان لسقوط الشحر فى يد كندة أعظم رجفة وأبعد صدى فى نفوس آل كثير ، وقد تألموا أشد الألم ولكن لم ينفعهم هذا التحسر والتألم ، ألم ينذرهم سلطانهم بعاقبة التخاذل والتخاصم ؟ ألم يطلب إليهم مددا للدفاع عن الشحر والذود عن حوضها ؟ أما كان الواجب عليهم الذهاب إلى الشحر لمناصرة إخوانهم المحاصَرين؟أليست الجريمة جريمتهم والخطأ صادرا منهم ؟ إن مسئولية سقوط الشحر لا تلقى على عاتق السلطان بدر بن محمد الكثيرى ، فقد دافع هو وأنصاره القليلون دفاع المستميت ، حتى إذا أحاطت به الأخطار من كل جانب ورأى الهلاك سيبيده ومن معه ، انسحب من الميدان وسلم لأعدائه البلد ، إنما المسئولية تلقى على تلك القبائل الكثيرية التى لم تنصر

سيدها وتنجده برجالها . لقد ظنّ الناس أن آل كثير بعد انكسارهم فى الشحر سيتحدون ويجتمعون ويوحدون صفوفهم ويؤلفون بين قلوبهم لاسترداد الشحر ، ولكن لم يكن شيء من ذلك ، بالرغم من المساعى الجبارة التى بذلها بعض عقلائهم لتوحيد كلمتهم ؛ وبالرغم من تقديم آل باجرى والعوامر أنفسهم لمساعدتهم للحرب ضد كندة ، ذلك لأن الخلاف والشقاق والمشاغبات القائمة بينهم ازدادت انتشارا واتسع نطاقها وتفاقم خطبها ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم يكن لديهم من المال مايكفيهم لمؤنة الحملة على الشحر ، ولذلك اضطرّ كثير منهم لمغادرة أهله والنزوح إلى الخارج للإرتزاق .

كندة فى دورها الثانى

بعد أن احتلت كندة الشحر تولى الحكم فيها المقدام سعيد بن مبارك بن فارس بإدجانة الكندى ، وكان هذا الأمير حليما حازما يقظا مهابا من جميع الناس ، وكان يحبّ قومه لدرجة التعصب ، يلمّ شعثهم ويرأب صدعهم ويكرم عظيمهم ويطعم فقيرهم ويواسى مريضهم ، وقد أبقى شئون الشحر كما كانت فى عهد السلطان بدر ابن محمد الكثيرى ، إلا الدعاية للشحر فى الخارج فإنه لم يهتمّ بها ولم يلتفت إليها ، ولكنه بعث رسله إلى القبائل البدوية يدعوها للقدوم بقوافلها إلى الشحر ، لينافس بذلك أسواق هينن وشبام وتريم وسيمون ، فلم يفلح لشهرة هذه الأسواق وسهولة المواصلات إليها وسرعة بيع الواردات فيها .

ولقد حاول آل محفوظ وآل مساعد الهجوم على حضرموت الوسطى لاحتلالها ، ولاخضاع القبائل الكثيرية كى لاتقوم لهم صولة ، وكيلا يهبوا لاسترداد الشحر ، ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، لأن سيدهم أمير الشحر لم يوافقهم على ذلك ، ولم يرض أن يجازفوا بأرواحهم بين أفخاذ آل كثير ، لعلمه أن هؤلاء وإن كانوا متخاصمين ، فلا بد أن يكونوا يدا واحدة وقلبا واحدا ضد عدوّهم المهاجم ، ومتى انتصروا فلا شك أن نشوة الانتصار تسوقهم لاسترداد الشحر .

استمرّ الأمير سعيد بن مبارك الكندى يحكم الشحر ويسوس الناس بسياسته الحازمة

ويدير شئونهم بما عرف به من العدل وحبّ الخير . ولما مات قام بالأمر بعده ابنه الأمير محمد بن سعيد ، فاقتفى أثر أبيه وتتبع خطواته ، ولقد ساعدته الثروة التى تركها له أبوه ، والتى كانت من نتائج إصلاحات السلطان بدر بن محمد الكثيرى ، ولقد بذل كل مجهود فى تحصين الشحر برجال من قومه ومن الحموم ، واشترى كثيرا من المراكب الشراعية لتقوية المواصلات وتنشيط العلائق وتوثيق الروابط بين الشحر وعدن وبينها وبين ظفار وبربرة ، واستمال إليه كثيرا من قبائل البادية بمبالغ من المال كان يبعثها إليهم كهدايا ، وبالأخصّ الحموم ، فقد وطد علائقه بهم وأمر بعض رجاله أن يتزوّجوا منهم كى تقوى الروابط ، وحتى لا يستطيعوا أن ينحازوا إلى آل كثير ضده . ذاع صيته وعظم قدره واحترمه الأصدقاء والأعداء ، واعترف له بالفضل الخصوم ، ولا غرو فقد ولد من أب كان سيد كندة ، ومن أم عرفت بالذكاء وسرعة البداهة وقوّة الذاكرة ، كما اشتهرت بالسياسة والبلاغة وقوّة التأثير والجاذبية ، وقد كانت تتولى الحكم فى غيبة ابنها ، لأنه لا يوجد فى الشحر من الرجال والنساء من يفوقها فى العقل والحزم وبعد النظر .

محاولة كندة احتلال عدن

فى سنة ٨٥٨ للهجرة اشتدّ النزاع والخصام بين يافع آل أحمد وآل كلدّ فى عدن ، وكانوا إذ ذاك أصحاب الكلمة النافذة والأمر المطاع فى حكومة عدن ، وكانت الحصون بيد آل أحمد ، فثارت الحرب بين هؤلاء وبين إخوانهم آل كلد ، هرب الحاكم المسعودى خوفا من الاغتيال ، فاضطربت شئون عدن ، واختلّ الأمن فيها ، وكثر النهب والسلب ؛ فجاء المؤيد بجيشه من زبيد واحتلّ عدن ، فخاف آل أحمد اتساع نفوذ آل كلد وذهبوا إلى بنى طاهر وشجعوهم على احتلال عدن ، فجاء هؤلاء بجيش تحت قيادة نقباء يافع من آل أحمد ، فخاف آل كلد على أنفسهم وفرّ كثير منهم إلى الشحر ، ولما وصلوا هناك حثوا الأمير محمد بن سعيد الكندى على احتلال عدن ، وتعهدوا له بأن يضحوا كل مرتخص وغال فى سبيل الاحتلال ، فأعدّ الكندى جيشا خليطا من قومه ومن يافع ومن الحموم ومن المهرة ، وسافر بهم فى تسعة مراكب ،

وما كان لهذا الشاب الكندى أن يجازف بجيش أغلبه يجهل مخاطر البحر ويرحل بهم إلى بلاد نائية عن عشيرته؛ وفيها بنو طاهر وعلى مقربة منها أمراء المسعودى بجيوشهم، ولكن نفس هذا البطل أكبر من جسمه، وآماله تنوء من حملها الجبال، ولقد حاولت أمه بنت معاشر منعه عن السفر فلم يرضخ لنصحها ولم يُقِم لكلامها وزنا، فأبحر بجيشه بعد أن ولى أمه الحكم بالنيابة، وهى أول حضرمية تولت الحكم فى الشحر، ولما علم أهل عدن بقدوم الأمير الكندى، ولم يكن إذ ذاك فى عدن أحد من سلاطين بنى طاهر غير نائبهم الشريف علىّ بن سفين، حصنوا البلد بما فيها من يافع والجيوش والبربر، وأرسل الأمير على بن سفين إلى بنى طاهر يطلب منهم المدد؛ وفى يوم الاثنين ١٢ من شهر ربيع الثانى جاء السلطان الظافر عامر بن طاهر إلى عدن بعسكره من ضليعة، ولما بلغ ذلك الكندى أشار له كبار جيشه فى أن يتراجعوا بمراكبهم إلى البحر ويتظاهروا بالاندحار، حتى إذا اطمأنّ الأعداء على أنفسهم أعادوا الكرّة على غرّة، ولكن الكندى أبى إلا الهجوم فى مساء ذلك اليوم غير مبال بكثرة جيش أعدائه ومن سوء حظه أن هبت عاصفة شديدة حالت بينه وبين عدن، وأغرقت بعض مراكبه بما فيها من مؤن وذخائر، فاضطرّ لأن يرجع إلى البحر، فركب هو وبعض رجاله مركبا فانقلب بهم المركب لشدّة العاصفة، وكاد الأمير الكندى يغرق لولا أنه آوى إلى الساحل هو ومن معه. ولما علم بهم جيش بنى طاهر خرجوا من حصونهم وأسروا الأمير الكندى ومن معه وسجنوهم. ولما بلغ ذلك إلى الشحر جمعت أمه الحاكمة بالنيابة الأعيان واستشارتهم فى أمر ابنها، فانكمشوا وقبعوا خوفا من أن يغتالهم آل طاهر فى عدن، فسافرت هى بمفردها إلى عدن؛ واجتمعت بالسلطان الظافر عامر بن طاهر وفاوضته ليطلق سراح ابنها من السجن، فامتنع السلطان فى بادئ بدء، ولكنه فى النهاية خضع لقوّة تأثيرها وبلاغتها وصراحتها، فأجابها إلى ذلك. وعادت به أمه إلى الشحر.

وتوفى عقب وصوله مسموما من بنى طاهر، فخسرت البلاد رجلا مقداما وحاكما حازما ووطنيا مخلصا، وحزنت عليه الأمة حزنا شديدا، ولقد أبدت أمه من الرزانة ورباطة الجأش ما أدهش العقول وحير الألباب، فقد نادت فى الناس بوفاة ابنها والدموع تنحدر من عينيها بهدوء، وهدّأت روعهم وواستهم فى فقيد البلاد.

الحالة السياسة بعد وفاة محمد

بعد أن توفى الأمير محمد بن سعيد الكندى لم تجر الأمور كما كانت فى عهده ، وبالرغم من الجهود التى بذلتها أمه لإعادة الطمأنينة والسلام فى أرجاء البلاد ، وذلك لأن الذى تولى الحكم أخوه ، وكان هذا ضعيف الرأى قصير النظر سريع الغضب كثير الطيش . ولقد حاولت أمه أن تهديه بآرائها الصائبة وأفكارها الحكيمة ، ولكنه كان متعصبا لرأيه لدرجة الجمود ، وقد قطع ما كان يمنحه أخوه لرؤساء قبائل البادية من الهدايا الكريمة ، فانقطعت بذلك الصلات بينه وبين قبائل البادية ، كما قطع صلاته بآل محفوظ وآل مساعد وآل مرتع ، حيث لم يسع لإزالة ما حصل بينهم من خلاف وشقاق ، ولعله عاجز عن ذلك كل العجز ، أو لعله كان لا يريد أن يوزّع أعماله وقوّته خارج حدود الشحر ، ولكن هذا ضعف فى السياسة وقصور فى النظر ، ولو أن أهل الشحر عارضوا فى توليته ، لوا أنهم ولوا عليهم أمه الحازمة لظلت الأحوال كما كانت من قبل ، وربما كانت تتحسن أكثر ، ولكنهم كانوا ضعاف الإرادة ، هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى كانوا يرون من العيب عليهم الخضوع لأحكام امرأة ، والانقياد لأوامرها ، على أن تلك السيدة الكندية أكبر منهم عقلا ، وأوفرهم حزما ، وأبعدهم نظرا ، وأعمقهم فهما لبواطن الأمور وظواهرها وعواقبها .

انقطعت الصلات بين الشحر وقبائل البادية ، وقام جماعة من الحموم يقطعون السابلة ويلقون فى قلوب الناس الرعب ، ففقد الأمن وانكمشت المواصلات التجارية ، فكسدت السوق وأخذ التجار يرحلون إلى ظفار وعدن ، وإلى شبام وتريم ، فساءت الحالة وازدادت ضنكا وتعاسة ، وأمست الشحر تكافح مصائب لم ترمثلها من قبل ، وكأن الشحريين يئسوا من الحياة ، وقطعوا كل أمل فى النهوض ، فخمدوا وركدوا ، وما أشبه هؤلاء بأولئك الذين يرون النار تلتهم بيوتهم وهم واقفون أمامها يتفرّجون ويلهون .

الدولة الكثيرية

فى دورها الثانى

قلنا إن بعضا من آل كثير اضطرّوا للهجرة إلى الخارج للارتزاق، وكان فى مقدمة هؤلاء المهاجرين السيد جعفر بن عبد الله بن على بن عمر الكثيرى، فقد اتخذ ظفارا مركزا لتجارته، وساعدته الظروف حيث أصبح بعد بضع سنين من أرباب المال. كان هذا المقدام ذا غيرة مشتعلة وحمية متقدة نحو عشيرته، ولأخلاقه الكريمة وخصاله الحميدة وآرائه السديدة أحبه الناس وركنوا إليه واتخذوه نصيرا ومعينا لهم فى أمورهم الخاصة والعامة، وكان ينوب عن التجار النازلين هناك فى الدفاع عنهم والمطالبة بحقوقهم عند حاكم ظفار. لم ينس هذا السيد صدمة الشحر حتى نكب بها قومه، ولم يرض أن تبقى الشحر فى يد كندة وتحت سلطتها، لذلك باع جميع أملاكه فى ظفار، وسافر هو وابنه عبد الله إلى حضرموت، فسعى أوّلا لإصلاح قومه وإزالة ما حدث بينهم من خلاف وشقاق، حتى استطاع بعقله الراجح وفكره الناضج وشخصيته البارزة أن يجمع كلمتهم ويؤلف قلوبهم ويوحد صفوفهم؛ ثم كوّن منهم جيشا وسار به إلى الشحر وهجم عليها بدون سابق إنذار، فاستولى عليها دون أن يلقى أمامه مقاومة شديدة وذلك سنة ٩٠١، وظلّ يحكم الشحر مدة من الزمن، ثم ولى ابنه عبد الله الأمر، وسار هو إلى شبام وحرص كل الحرص على بقاء الاتحاد والوئام بين عشائره، فأصبح آل كثير بفضله متحدين مترابطين؛ ثم سار إلى بور، وهناك أدركته الوفاة فى ذى الحجة سنة ٩٠٥، ففقدت البلاد رجلا عاملا ووطنيا مخلصا وسياسيا محنكا، وكان محبوبا لدى جميع الناس، ذا سيرة حسنة. وأما الأمير عبد الله بن جعفر الكثيرى فقد ظلّ يحكم الشحر فى هدوء حتى عاجلته المنية سنة ٩١٠. ثم قام بالأمر بعده ابنه الأمير محمد بن عبد الله الكثيرى، وكان هذا سليم النية صافى السريرة ضعيف الإرادة

قصير النظر ، حصر أعماله الضيئلة فى الشحر ، وقطع كل علاقة بقومه فى حضرموت الوسطى ، وبنى بينه وبينهم ردما من حديد ، فساءت حالهم ودبّ إليهم الخلاف والشقاق والخصام ، فتلاشت هيبتهم وذهبت ريحهم ، واستبدّ بالحكم فى تريم محمد ابن أحمد بن جردان ، وفى شبام كان السلطان بدر بن محمد الكثيرى حاكما ، ولكن كان ضعيف الإرادة سليم النية لاينفذ له أمر ولا يقام له وزن ولايرفع له ذكر ، قبع فى قصره وترك الأمر لمن دونه من الرؤساء ، يحكمون حسب أهوائهم ، ويتصرّفون فى حقوق الشعب كما يريدون ، ويذيقونه ألوانا من الظلم والعذاب ، ولما توفى سنة ٨١٥ ازدادت الفوضى وانتشرت المظالم وساد الخراب وكثر السلب والنهب بين شبام وتريم وسيون ، وتعدى الأقوياء على حقوق الضعفاء ، ففقد الأمن فى أرجاء البلاد واختلّ النظام . هكذا اضطربت الأحوال واختلت النظم ، وأصبحت الفوضى ضاربة أطنابها فى طول البلاد وعرضها ، ولقد همّ آل محفوظ وآل مساعد بالهجوم على شبام وطرد آل كثير منها ، وأرادت ذلك نهد أيضا ، ولكن الظروف لم تساعدهم على ذلك ، إذ التنازع والتخاصم فيما بينهم ثائر والفتنة مشتعلة . هكذا أمست الدولة الكثيرية لقمة سائغة يتحفز لالتقامها نهد وكندة ، ويستبد فى شئونها ابن جردان ، ويتعدى على حقوق الضعفاء الأقوياءُ الجبارون .

فى مدينة شبام وفى قصر من قصورها الشاهقة شاب لم يتجاوز العشرين من عمره ، حادّ الذكاء قوىّ الذاكرة بعيد النظر كريم السجايا حميد المزايا ذو ثروة واسعة تركها له أبوه وجده ، ولكنه ليس من أولئك الشبان الكسالى الذين يأكلون ويشربون وينامون ، بل هو طموح للمجد عزيز النفس حرّ الضمير ، ذو غيرة متقدة وحمية مشتعلة على عشيرته الأقربين ، ذلك هو بدر بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن على ابن عمر الكثيرى الملقب بأبى طويرق ، والمولود سنة ٩٠٢ لم يرض هذا النبيل أن يرى ملك آبائه ممزّق الشمائل مقطع الأوصال ، لم يسمح له ضميره الشريف بالجمود والهمود على ما حل بقومه من الخذلان والخسران ؛ فهبّ يعمل بكل جهده لإنقاذ ملكه وإحياء قومه ، وجاس خلال الديار باحثا عن رجال ليضمّ أصواتهم إليه ويكوّن منهم قوّة تكتسح ما سيعترضه من العقبات والعراقيل ، ولكن لم يجد من يلبى نداءه

ويشدّ أزره ويكون له عونا ونصيرا ، كأن القوم رضوا بتعاسة الحال وسوء المنقلب ، كأنهم قطعوا كل أمل فى إحياء ملكهم واسترداد ما اشتراه آباؤهم بالدم . حاول بدر ابن عبد الله أن يسوس الشعب ويرشدهم إلى الصلاح والفلاح ، ولكنه لقى أمامه كثيرا من أقربائه يعاكسونه ويقاومونه وينصبون له العداء ويحفرون فى سبيله الحفائر ، لذلك اضطرّ أن يغادر البلاد ليأتى بقوم يستردّ بهم الملك الضائع والحكم المفقود ، فسافر حتى إذا وصل اليمن فى شهر ذى الحجة سنة ٩٢٥ طلب إلى الإمام أن يمدّه بجيش ، فأمره بالبقاء لديه ليشاهد وفود القبائل التى تأتيه لتهنئه بالعيد ليختار القبيلة التى تروقه وتعجبه ، فوقع اختياره على يافع ، وانتخب منهم خمسة آلاف ، فسافر بهم إلى حضرموت ، ولما وصلوا إلى الشحر تخلف عنه جماعة من يافع وسكنوا هناك ، وسار بالبقية إلى ذوعن وهناك أبقى جماعة من بنى بكر وآل يزيد وآل بطاطى ، ثم سار قاصدا شبام ، فعلمت بقدومهم قبائل نهد واحتشدت فى نجران لصدّهم ، فالتقى الفريقان وسارت بينهم الحرب ، وكان النصر لبدر وقومه وتخلف فى نجران وسدبة جماعة من بنى بكر ؛ ثم سار إلى شبام واحتلها فى شهر رجب سنة ٩٢٦ وحصنها برجال من يافع (الموسطة) ؛ ثم سار إلى تريم واحتلها فى محرم سنة ٩٢٧ ، وطرد منها محمد بن أحمد بن جردان ، واتخذها مركزا لدولته وحصنها برجال من يافع (آل لبعوس) ؛ كما حصن سيوون بجيش من يافع (الظُّـبى) ، ثم سار إلى هينن واستولى عليها ، وجعل عبد الله ابن علىّ بن عمر المرهون حاكما عليها من قبله ، ثم أرسل جماعة من يافع إلى السلطان محمد بن عبد الله بن جعفر الكثيرى ليضمهم إلى الجيش ، لتعزيز الشحر ولتأمينها من غارات الأعداء وقطاع السبيل .

هكذا أحيا السلطان بدر بوطويرق الكثيرى ملكه المندثر وسلطانه المضمحلّ ، وبعث فيه القوّة وروح النشاط ، بعد الخمود والجمود ، وأعاد لقومه مجدهم الضائع وشرفهم المحتضر ، رفع اسمهم وأحيا ذكرهم وبوأهم مقعدا عليا . كان شديدا فى حكمه قاسيا فى أمره ، ولكن كانت هذه الشدة وهذه القسوة فى صالح الأمة ولمنفعتها ، كان متواضعا يجالس الكبير ويحادث الصغير ويعطف على الفقير ، قرّب إليه العقلاء والفضلاء واتخذهم بطانة له ، وكان بين هؤلاء أفرادا ليسوا من آل كثير ، اختارهم

لعقولهم الراجحة وأفكارهم الناضجة ، غاضا النظر عن جنسياتهم وأرومتهم ، الأمر الذى أغضب جماعة من عشيرته وجعلهم ينقمون عليه ويرمونه بالبله وحسن النية . كان يجزل العطايا للعلماء ويغدق على الشعراء والأدباء الهبات ، فمدحه هؤلاء وأثنوا عليه وشكروا له فضله الوافر ومعروفه الغزير .

ظهور حزب سياسى منافس له :

فى سنة ٩٣٣ ظهر حزب سياسى ضد السلطان بدر تحت قيادة الأميرين محمد ابن عبد الله بن عمر الكثيرى ومحمد بن بدر بن محمد الكثيرى ، وكان الدافع الأكبر لقيام هذين الأميرين هو انفراد السلطان بدر بتلك الشهرة الواسعة النطاق التى أحرزها من إحيائه الدولة الكثيرية وتوليه قيادتها . ثم إنه لم يشرك الأمير محمد بن بدر فى ولاية شبام ، مع أن أباه كان واليا فيها ، وليس امتناع السلطان بدر عن ذلك لشىء سوى ضعف شخصية الأمير محمد وعدم مقدرته للقيام بأمر شبام ، ولكن الأمير محمد عدّ حرمانه من السلطة إسقاطا لقدره . ولقد قوى هذا الحزب السياسي واتسع نفوذه حيث تدخل فى الأحكام وعاكس أوامر كان يصدرها السلطان بدر ، ولكن السلطان بدر أدرك أغراض ذلك الحزب وما يحوكه ضده من الأعمال وخشي على مركزه من السقوط ، لذلك ألقى القبض على الأميرين محمد بن عبد الله ومحمد بن بدر وزجهما فى السجن ، وأرسل إنذاراته الجبارة لبقية أعضاء الحزب ، وهددهم بالويل متى عادوا للمعارضة والمعاكسة والتحريض ضد السلطة الحكومية ، وظل الأميران محبوسين فى حصن مريمة حبسا احتياطيا شريفا ، حتى توفى الأمير محمد بن بدر الكثيرى فى رمضان سنة ٩٤٩ بعد أن قضى ستة عشر سنة ، وفى سنة ٩٥١ سعى بعض عقلاء آل كثير لدى السلطان بدر لإطلاق سراح الأمير محمد بن عبد الله من السجن ، فأجابهم إلى ذلك ، وسافر الأمير محمد إلى الحجاز .

إرسال جيش لفك حصار الترك :

فى سنة ٩٤٥ أرسل السلطان سليمان العثمانى جيشا إلى اليمن تحت قيادة وزيره سنان

باشا الأرناءوطى ، ولما وصل هذا إلى عدن طلب إلى أميرها عامر بن داود أن يسمح لجيشه بالنزول فى عدن لشراء حاجياتهم ، وكان القائد قد أوعز لهم بأن يغدروا بأهل عدن ، ولما كانوا هناك ألقوا القبض على الوالى عامر بن داود وعلى من حوله من الأعوان وأتوا بهم إلى القائد سليمان باشا فشنقهم هذا وصلبهم ثلاثة أيام واحتل عدن وبقتل عامر بن داود انقرضت الدولة الطاهرية التى هى من الدول الشافعية التى حكمت اليمن ، وقامت بمحاربة البرتغال والترك[١] وأخمدت فتن أئمة الزيود . ثم أرسل سنان باشا جيشه للهجوم على الشحر واحتلالها ، ولكن السلطان بدر بوطويرق الكثيرى استعدّ للطوارئ حيث حصن الشحر برجال من قومه ، وأرسل سفنه الحربية تطوف بين الشحر والمكلا ، فعاد الجيش التركى خائبا مخذولا ، ثم توجه الجيش التركى إلى اليمن لاحتلالها ولكن اليمانيين ثاروا جميعا ضد الترك وحاصروهم فى زبيد ، وثار أهل عدن ضد الحكم التركى ،وولوا عليهم على بن سليمان البدوى صاحب خنفر ،وذلك سنة ٩٥٣ ولشدة كراهية العدنيين للترك لقتلهم الوالى عامر بن داود فقد تعاهدوا مع البرتغاليين على أن يكونوا يدا واحدة ضد الترك .

ولما بلغ ذلك إلى السلطان بدر الكثيرى خاف أن يقوى نفوذ البرتغاليين فى عدن ويستولى على حضرموت وقد منع الترك عنها ، كذلك أرسل جيشه إلى زبيد لفك حصار الترك وألزم أهل اليمن بطاعتهم ليتمكنوا من سحق البرتغاليين وفعلا ساروا بالجيش التركى والحضرمى إلى عدن واحتلوها سنة ٩٥٤ بعد أن جاءهم المدد من داود باشا من مصر ، وقتلوا على بن سليمان البدوى والى عدن وبعضا من رجاله ، وقضوا على سلطة البرتغاليين وبددوا جمعهم ، وهكذا عادت عدن للحكم التركى ، كما أصبحت اليمن خاضعة لهم بفضل السلطان بدر بوطويرق الكثيرى .

اعترافه بالطاعة للترك وعزله من الحكم :

فى سنة ٩٧٠ اعترف السلطان بدر بوطويرق الكثيرى للترك بالطاعة والولاء والسبب مجهول ، ولعله لما رأى اليمن وعدن وظفار خضعت للترك خاف أن يحدث

(١) قال الكبتن بليفر فى كتابه « A History of Arabia » : إن عدد البرتغاليين الذين هجموا على عدن سنة ٩٢٠ هو ٢٥٠٠ منهم ثمانمائة جندى من الهنود وفازوا فى البداية ثم هزموا بعد أربعة أيام .

من جيرانه ما لا تحمد عقباه من هجوم وعدوان وليس لديه من العَدد والعُدد مثل ما عند الترك ، ثم إنه أراد أن يوطد العلائق ويشدّ صلات الولاء بينه وبينهم ، لذلك اعترف لهم بالطاعة ، وأرسل إلى القسطنطينية هدايا فاخرة منها بعض أسرى من الإفرنج فى واقعة الشحر مع البرتغال ١

وقد أشار إلى ذلك شاعر حضرموت فى القرن الحادى عشر الشيخ عبد الصمد باكثير من قصيدة يمدح بها السلطان عمر بن بدر :

قمتم بحقّ ابن عثمان وطاعته محبة هى منكم عن أب فأب
كمثل ما أسرّ الإفرنج من قدم أبوك بدر بن عبد الله ذو الحسب
ساروا بهم فى وثاق الأسر قد صفدوا بعضا وبعضهم قد غلّ باللبب
هناك كان إلى أصطمبول مقدمهم إلى سليمان يالله من عجب
وبعدها فى زبيد حيث طال على عساكر الروم٢ ضيق الحصر والتعب
أرسلتم المال والأمداد نحوهم وكل غال من المشحوم والذهب

ولكن بعضا من كبراء عشيرته لم يوافقوه على ذلك ، كما عارضوه فى إرسال النجدة لفك حصار الترك فى زبيد ، ونقموا عليه ورموه بالجبن ، وفى مقدمة هؤلاء الناقمين ابنه الأمير عبد الله بن بدر الكثيرى ، ومما زاد الطين بلة سكوته إزاء معارضة أهل هينن للحكم الكثيرى ، وقطع علائقهم بسيون وإعلانهم الاستقلال التامّ ، لذلك جمع الأمير عبد الله بن بدر بعضا من أعيان آل كثير ، وكوّن منهم حزبا يعاكس سياسة أبيه ويعارضه فى أكثر أوامره ، وفى شهر صفر سنة ٩٧٦ دخل على أبيه وهو فى قصره بسيون وخلعه ، وتولى الحكم هو وأخوه جعفر بن بدر ، ولقد أحدث ذلك العزل دهشة عظيمة فى البلاد ، فمن الناس من عاب الأمير عبد الله على خلعه أباه من الحكم وهو منقذ الدولة الكثيرية من الضياع ومحييها بعد موتها ، ومنهم من أعجب بجرأته وأكبر فيه همته وغيرته ، والحقّ أن عزل الأمير عبد الله أباه من الحكم يعد جرأة ليس لها مثيل فى التاريخ الحضرمى ، وهو معذور فى ذلك بعض العذر ، إذ أن

(١) هم جماعة من القرصان البرتغال كانوا يطوفون فى البحر العربى ، فهجموا على الشحر واحتلوها ، ولكن السلطان بدر سرعان ما قضى عليهم وأسر منهم كثيرا .

(٢) يعنى بالروم هنا الترك ، لأن تسمية الترك بهذه الكلمة كانت شائعة فى ذلك الزمان .

أباه لم يهتم بتوسيع نطاق الملك كما كان فى أول أمره ، بل ولم يعمل لاسترداد هينن التى خرجت عن حكمه ، أما الاعتراف بالطاعة للترك فهو وإن كان يظهر للبعض أن فيه عيبا ، فلم يأت بشر للبلاد ولم ينقص شيئا من استقلال الدولة الكثيرية ، إذ لم يكن هناك من الترك من قام بأمر من أمورها أو ناب عنها فى شأن من شئونها الخاصة أو العامة ، فجميع ولاة الأمور كانوا حضرميين ومن صميم آل كثير ، فالاعتراف بالطاعة إنما كان اعترافا اسميا لاغير .

لم يعارض السلطان بدر بوطويرق فى عزله ، ولم يعمل لإعادة مركزه واعتلاء عرش الملك ، ولو نهض لذلك لوجد أنصارا كثيرين من قومه ومن القبائل الموالية لحكومته ومن الدولة العثمانية ومن أمراء اليمن ، لما له من النفوذ العظيم والشهرة الواسعة النطاق ، ولكنه رضى بالعزل وأخلد إلى السكون والصمت ، ولعله رأى أنه إذا قام بالمطالبة يجلب الشقاق والخصام والخراب للبلاد والعباد ، إذ الحرب لابد أن تثور بين الطرفين ، ولا بد أن تسيل الدماء وتذهب أرواح كثير من رجال الدولة وغيرهم ، فهو أخلد إلى السكون حبا فى جمع الكلمة وتأليف القلوب وتوحيد الصفوف وتوطيد السلام ، وفى سنة ٩٧٧ توفى عظمته فى سيون وعمره ٧٥ سنة ، ولقد تولى الحكم نحو خمسين عاما بنى له فى خلالها مجدا لايمحى وذكرا حسنا لايزول ، ولقد ساد لوفاته الحزن والأسى أرجاء البلاد ، وبكاه الشعراء والعلماء والفضلاء ، ونعته الدولة العثمانية وولاة اليمن .

أما السلطان عبد الله بن بدر الكثيرى فقد اتخذ مدينة سيون مركزا لحكومته ، وأرسل جيشه إلى هينن وأخضعها لحكمه ، ثم استولى على الهجرين وحورة ووادى عمد ودوعن ، وتوفى سنة ٩٨٤ وقد ساس البلاد بحزم وكياسة ، وقام بالأمر بعده ابنه السلطان جعفر بن عبد الله الكثيرى ، ولم يكن كأبيه فى السياسة والحزم والعزم ، حاول احتلال بلاد نهد فحاصرهم من نواحى هينن والعجلانية والهجرين وحورة وعندل ومنع وارداتهم من الدخول فى أسواق هينن والهجرين ، فحقدت عليه نهد حتى قتله الظلفان سنة ٩٩٠ ، وقام بالأمر بعده السلطان عمر بن بدر العادل ، ففك حصار نهد وسمح لهم بالسير فى أى بلد يريدونه ، وبذل مجهوده لنشر الأمن فى أنحاء البلاد ، وشجع الناس على نشر العلم ، وأجزل العطايا للعلماء والفضلاء ، فارتاحت الناس

فى عهده ، واطمأنت النفوس ، وكثر الخصب ، وزكا الزرع وزاد الرخاء ، ورخصت الأسعار . وفى سنة ١٠٢١ توفى فى الشحر ، فحزنت عليه الأمة أشدّ الحزن . كان حسن الشمائل محمود الأوصاف وافر العقل كثير العدل ، وكان نصيره وأمينه ومعينه الحميم فى الآراء والأفكار كاتبه الشاعر الكبير السيد عبد الصمد بن عبد الله باكثير ، فقد اختصه بغرر مدائحه وعيون قصائده ، وكان منه بمنزلة البحترى من المتوكل ، والمتنبي من سيف الدولة فمن شعره فيه قوله من قصيدة يمدحه :

حبيبي أقلني فى هواك من الجفا   فقد شفّنى منك التباعد والهجر
وطال سهادى واشتياقى ولوعتى   ومن مدمعى فوق الخدود جرى نهر
عشقتك حتى رقّ فيك تغزلى   ولولاك لم يملأ دفاترى الشعر
صفاتك لايحوى نظامى أقلها   كجود ابن بدر لايرام له حصر
إذا نابنى خطب الزمان فإننى   إلى عمر الخيرات فى ينتهى السفر
مواهبه موصولة بمواهب   إذا ضنت الأنواء واحتبس القطر
إلى جوده تحدى الركائب فى الفلا   يقلقلها الإرقال فى البيد والزجر
إليه انبرت حتى طوت كل فدفد   تساوى لديها حندس الليل والفجر
إلى ماجد لايمنع الوفد رفده   ولا كفه جعد ولا سيبه نزر
وأنفس ذخر عنده بذل ماله   إذا غيره كنز الكنوز له ذخر

ولما مات رثاه بعدّة قصائد منها قوله :

اليوم أطلقت الدموع وأضرمت   بين الضلوع لواعج البرحاء
موت ابن بدر هد أركان القوى   منى وزعزع جانب الحوباء
عمر بن بدر خير من يدعى إذا   خطب أتى بملمـة دهياء
اليوم ندعوه فلا يصغى إلى   داع دعا ، يا ضيعة الشكواء
أضحى (المصبح) بعده متنكرا   والبرج أمسى موحش الأرجاء
قمر هوى من أفقه فأوى إلى   بطن الثرى فهو القريب النائى
نبكى عليه وفى الضمائر لوعة   لاينطفى وهاجها بالماء
ما أنصفته مدامع نبـكى بها   مالم تكن ممزوجـة بدماء

ورثاه بقصيدة أخرى مطلعها :

هوى من سماء المجد كوكبها القطب   فأظلم في أقطارنا الشرق والغرب

قام بالأمر بعده ابنه السلطان عبد الله بن عمر الكثيرى ، واقتفى أثر أبيه ، وقد نافسه فى الحكم أخوه الأمير بدر بن عمر ، ونازعه فى السلطة ، وكادت الحرب تثور بينهما لولا وجود أفراد من عقلاء آل كثير ، بذلوا جهودهم العظيمة فى التوفيق بينهما وإصلاح ما شجر من خلاف ؛ ثم سافر السلطان عبد الله بن عمر إلى مكة لأداء الفريضة ، وتوفى هناك سنة ١٠٤٥ . وكان رحمه الله حسن الخَلق والخُلق ، مهاب النظر ، ولى الملك فأحسن القيام به . ثم قام بالأمر بعده ابنهالسلطان بدر بن عبد الله الكثيرى كان على جانب عظيم من المكر وبعد النظر ، ولكنه كان ظالما جائرا قاسيا مستبدا متعصبا لآرائه ، إذا أراد شيئا أو أصدر أمرا نفذه فى الحال ، حتى ولو كان يخالف الشرع وينافى العقل والعرف ، كان جشعا هلعا فى المال يجمعه لنفسه بوسائل غير شرعية ولاقانونية ، والويل لمن يمتنع عن دفع مايريده . علم أن عمه الأمير بدر ابن عمر الكثيرى نازع أباه فى الحكم وحسده وحقد عليه ، فلا بد أن يعيد ذلك الدور معه ، لذلك احتاط لنفسه فقد استمال قلوب بعض الناس إليه بالعطايا الجزيلة والهبات الوافرة ، فالتفّ حوله المنافقون من رجال الدولة ، وصاروا طوع أمره ورهن إشارته ؛ ولما رأى الأمير بدر بن عمر ميل الناس إلى السلطان بدر بن عبد الله سعى بكل جهده فى تنفيرهم منه وعدم الخضوع لحكمه ، وبذل كل مستطاع لتكوين حزب يناوئه ويعاكسه ، ولكنه لم يفلح فى مساعيه حيث لم ينضم إلى حزبه سوى أفراد من أقربائه الأحرار المخلصين ، ولما رأى خيبة أمله أرسل إلى إمام اليمن يطلب إليه إرسال جيش لاحتلال حضرموت ؛ ولما علم السلطان بدر بذلك غضب على عمه غضبا شديدا وألقى القبض عليه وسجنه ، وحين بلغ الإمام المتوكل على الله إسماعيل ذلك أرسل إلى السلطان بدر بن عبد الله يأمره بإطلاق سراح عمه من السجن ، ويهدده بالويل والثبور إذا لم يطلقه ، ولكن السلطان بدر لم يهتمّ بتهديد الإمام ولم يقم لكلامه وزنا ؛ وفى شهر صفر سنة ١٠٦٥ جهز الإمام المتوكل عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة أحمد ابن الحسن بن الإمام إلى بلاد بنى أرض ليمهد طريقه إلى حضرموت ، فثار آل رصاص

لمحاربته ، ولكنهم هزموا وقتل قائدهم حسين الرصاص ، وقطع رأسه وأرسل إلى الإمام ، ثم زحف الجيش إلى يافع والتحمت الحرب بين الطرفين ، فانتصر عليهم الزيود بعد أن جاءهم المدد من صنعاء ؛ ولما بلغ السلطان بدر بن عبد الله الكثيرى انتصار جيش الإمام على يافع أطلق سراح عمه وأخرجه من السجن ، وأعلن الطاعة للإمام كيلا يأتى الزيود ويحتلوا حضرموت ، فأرسل الإمام صالح بن حسين الجوفى إلى حضرموت فوجد الأمر على حقيقة ، ثم جعل الإمام الأمير بدر بن عمر الكثيرى واليا على ظفار .

لم يكتف السلطان بدر بن عبد الله بولاية حضرموت ، وأراد الانتقام من عمه بدر بن عمر الكثيرى والى ظفار من قبل الإمام ، ففى سنة ١٠٦٨ جهز جيشا وسار به إلى ظفار واحتلها ، وهرب الأمير بدر بن عمر إلى الإمام واستنجد به ، فأمره الإمام بالبقاء فى ضوران ريثما تهدأ الأحوال ، ثم أراد الإمام أن يزيل ما بين الأميرين من البغضاء والشحناء ويصلحهما بالوسائل السلمية ، ولكن بعضا من الشعراء ذكروا له قبيح فعل السلطان بدر بن عبد الله وحرضوه على القيام ضده والأخذ بالثأر للأمير بدر بن عمر ، ولعل هؤلاء الشعراء إنما حرضوا الإمام على محاربة سلطان حضرموت بإيعاز من الأمير بدر بن عمر الكثيرى لينتقم من ابن أخيه ، ثم إن الأمير بدر بن عمر وجد تشجيعا من الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن العمودى ، وكان واليا على مقاطعة من مقاطعات وادى دوعن ، فقد تعهد له هذا بأن يضمّ إلى صفه قبائل دوعن ضد السلطان بدر بن عبد الله الكثيرى ، لذلك ألحّ الأمير على الإمام فى التجهيز على حضرموت وتكفل له بالطاعة والخضوع لحكمه ، فلم ير الإمام بدًّا من التجهيز .

خروج الزيود إلى حضرموت
(سيل الليل)

فى يوم ١٥ من شوال سنة ١٠٦٩ جهز الإمام المتوكل على الله إسماعيل جيشا تحت قيادة أحمد بن الحسن الصفى للاستيلاء على حضرموت والانتقام من السلطان بدر بن عبد الله الكثيرى ، فسار الجيش فى طريق خولان ومأرب وبيحان وبلاد العوالق ، ولما وصلوا وادى حجر لاقوا كثيرا من المصاعب والمتاعب لوعورة الطريق وانقطاع

المدد ، وكادوا يضلون الطريق ويموتون جوعا ، لولا أنهم أكلوا لحوم الحمر ؛ ولما وصلوا عقبة بامسدوس وجدوا جماعة من جيش السلطان بدر بن عبد الله مرابطين هناك ، فزحف الصفي بجيشه وهزمه ، ثم انحدر إلى الهجرين بعد أن ضم إليه بعض قبائل نوّح من أهالي حجر ، وثارت الحرب بينهم وبين آل محفوظ ، وجاء نهد لينضموا فى صف آل محفوظ ، ولكنهم وجدوا الصفي قد احتل البلد وأباحها لعسكره يقتلون ويعذبون وينهبون ويسلبون ، ثم سار إلى هينن فخرج السلطان بدر بن عبد الله بقومه لملاقاته وهم ينشدون قول الشاعر :

كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جرّ الذيول

فثارت الحرب بين الفريقين ودامت أياما كاد الحضارم ينتصرون فيها على العدوّ لولا أنه كان لديه من السلاح ما ليس لديهم ، ولولا أنه كان يعرف من فنون الحرب ما لا يعرفه الحضرميون ، لذلك انتصر عليهم بعد أن سالت الدماء وذهبت أرواح المئات من الطرفين ، ثم سار إلى شبام واستولى عليها قهرا بالسيف ، وكان الزيود فى طريقهم من الهجرين إلى هينن ومن هينن إلى شبام يقتلون كل من يلاقونه أمامهم من الرجال والنساء والولدان ، لذلك سماهم الحضرميون سيل الليل . ولما رأى السلطان بدر بن عبد الله وحشية عدوّه وجلافته وفتكه وتنكيله بالأهالى ، ورأى انتصاراته تترى ، أعلن الطاعة للإمام حقنا للدماء وحفظا لأرواح الضعفاء من الشيوخ والعجزة والنساء والولدان . ولكن الصفي ألقى القبض عليه وأرسله إلى الإمام المتوكل ، فسجنه هذا أياما ثم سمح له بالعودة إلى حضرموت [1] أما أحمد بن الحسن الصفي فقد عاد من حضرموت إلى اليمن ولديه من الغنائم والمكاسب ما ليس له حصر . قال الكبسي : « وقد عاد مولانا أحمد من حضرموت فى أبهة عظيمة ومملكة جسيمة ، وقد فاز بخير الدنيا والآخرة (كذا) » . أراد الإمام أن يولى ابن أخيه الحسين بن الحسن على حضرموت فامتنع ، فأرسل أحد أقاربه إليها ، ولما جاءها لم يقابله الحضارم باحترام

(١) قال الكبسي فى كتابه « اللطائف السنية » ثم تقدم إلى بلاد الهجرين ولم يبق إلى محل السلطان عمر (كذا) غير مسافة يومين (كذا) فتلقاه الحضارم ركبانا ورجالة وقاتلوا فى صف سلطانهم لا محالة فأطلقت عليهم الرصاص المذابة ووجه إليهم الردى أسبابه فقتلوا فى الأودية والشعوب وجروا على الأذقان والجنوب وانهزم السلطان من هينن إلى شبام وقد طرأ عليه بساط الأحكام ودخل الصفي على منازل ذلك البدر ولما سقط فى يد السلطان عاد إلى الطاعة بعد العصيان وصلحت الأحوال ورجع الصفي فى أنعم بال وأطيب حال وأرسل الصفي بالسلطان بدر إلى حضرة الإمام فاستبقاه الإمام أياما ثم سمح له إلى دياره وتوفى بجهته بعد عوده إليها .

ولم يخضعوا له ولم يقيموا له وزنا ولا ثمنا ، فعاد إلى اليمن غير مأسوف عليه ولا محمود ، فاضطرّ الإمام بعد ذلك أن يجعل السلطان بدر بن عمر الكثيرى واليا من قبله على حضرموت ، فكان ذلك ، وفى سنة ١٠٧١ شعر جماعة من عقلاء آل كثير بسوء عاقبة التنافر والتشاحن والتنازع القائم بين السلطان بدر بن عمر وابن أخيه السلطان بدر بن عبد الله ، ووجدوا أن تنازعهما على السلطة مصدر الرزايا ورسول الخراب ، رأوا أن الخلاف القائم بينهما هو السبب الوحيد لاستيلاء الإمام على حضرموت ، ولقتل كثير من الأبرياء ، ولذهاب أموال لاتحصى ، لذلك سعوا بكل مقدورهم لإزالة الشحناء والبغضاء بين الأميرين ولإيجاد الوفاق والوئام بينهما ، ولقد نجحوا فى مساعيهم الشريفة حيث تسامح الأميران وتناسيا ما حدث فيما مضى من شقاق وقتال ، وارتبط كل منهما بالآخر ارتباطا متينا وساد عليهما الحبّ والولاء والوئام ، ففرح الشعب لذلك فرحا عظيما ، وجاءت رؤساء القبائل تهنىء الأميرين بالصلح وتشكرهما لجنوحهما للسلم والإخاء والوئام .

ظل السلطان بدر بن عمر الكثيرى يحكم حضرموت من قبل الإمام ، وكانت العلائق بينه وبين اليمن متينة والصلات قوية . ولما توفى قام بالأمر بعده ابنه السلطان عمر بن بدر ، ثم عيسى بن بدر ، وفى سنة ١٠٧٩ قام أهل ظفار مع جماعة من الحضارم بالتحريض ضدّ الإمام لجور عامله ابن الشيخ زيد خليل ، وحاصروا هذا الوالى فى قصره ومنعوا عنه القوت ، واعتدوا على سبعة وعشرين من رجاله بالضرب وكادوا يقضون عليهم ولما بلغ ذلك إلى الإمام أرسل مولاه عثمان بن زيد ، ولكنه رجع من ظفار خائبا ، فقد كاد يقتله الثائرون . استمرّت هذه الاضطرابات والقلاقل شهورا ، وأخيرا طرد الثائرون الوالى ابن الشيخ زيد خليل ، وقطعوا كل علاقة باليمن وأظهروا الطاعة للسلطان عيسى بن بدر الكثيرى ، وهكذا خلعت ظفار طاعة اليمن قبل أن تخلعها حضرموت ، وفضلت حكم الكثيرى على حكم الإمام ، ولقد كان من المنتظر أن يرسل الإمام جيشا لاسترداد ظفار وإخضاع أهلها لحكمه ، ولكنه لم يفعل لاشتغاله بإخماد الفتن الداخلية التى اشتعل لهيبها فى أرجاء اليمن . ولما توفى السلطان عيسى بن بدر الكثيرى قام بالأمر بعده السلطان حسن بن عبد الله بن عمر الكثيرى .

الدولة الكثيرية

في دورها الثالث

فى سنة ١٠٩٠ استفحل تنازع أمراء اليمن على السلطة واستبد كل منهم فى مقاطعته فكان محمد بن مهدى مستقلا بشئون الحجرية وأعمالها ، والحسن بن الحسين برداع ، وعلىّ بن أحمد بمدينة صعدة وأعمالها ، والحسين بن محمد بن أحمد أبو طالب مستقلا ببلاد حاشد وبكيل ، وحسين بن المتوكل فى صنعاء ؛ قطع كل من هؤلاء بالآخر ، واشتدّ النزاع والخصام ، وكثرت الفتن وثارت القلاقل ، وتعدّد مدّعو الإمامة والزعامة ، وظهر بينهم أفراد لهم معتقدات شاذّة ، فتفاقم الخطب وعم الفساد والظلم.

قال الكبسى فى كتابه (اللطائف السنية) : « وكان الإمام يتوجع من سيرة بعضهم فى الرعية على غير ما يبيحه الشرع الشريف » .

وفى سنة ١٠٩٣ ثار على الإمام المهدى سلاطين يافع وآل رصاص والعوالق ، وحصلت معارك دموية بينهم وبين جنود الإمام فى خرفة وقعطبة والبيضاء ولحج وجبن وأبين والزاهر والحربة والعسال وغيرها من بلاد اليمن ، وكان النصر حليف يافع وحلفائهم . قال الأمير أحمد بن فضل العبدلى فى كتابه (هدية الزمن فى أخبار ملوك لحج وعدن) عند ذكر استيلاء الإمام على حضرموت : « . . . . وهذه أول مرة امتدت فيها يد أئمة صنعاء إلى هذه الجهات ، ثم ضعف أمر أئمة اليمن ، وكثرت الفتن فيهم وتعدّد مدعو الإمامة . وكان أمراء البلدان المذكورة وسلاطينها وقبائلها لم يزالوا يتمسكون بالاستقلال ويناجزون الأجناد الأمامية ، ووقفت سلطنة يافع وقفتها المشهورة فى وجه الدولة القاسمية التى أنهكتها الحروب المستمرة حتى كتب النصر ليافع » . هكذا تزايد اختلال دولة اليمن وعمت فى أرجائها الاضطرابات والقلاقل .

وفى أواخر سنة ١٠٩٣ انتهز السلطان حسن بن عبد الله بن عمر الكثيرى ضعف الدولة الإمامية واختلال أمورها واضطراب شئونها فأظهر الاستقلال التام ، وخلع طاعة الإمام ، وقطع جميع علاقته باليمن وقام بالأمر بنفسه ؛ وكان سياسيا حازما حسن التدبير محبوبا لدى الناس ، حسن السيرة عادلا ، جمع شمل قومه ووحد كلمتهم وقرّبهم

إليه ، حالف نهدا وآل محفوظ وآل مساعد والعوامر وآل تميم ، وقوىّ بينه وبينهم روابط الودّ وصلات الولاء ، وتعاهد معهم على أن يكونوا جميعا يدا واحدة ضد كل من يريد احتلال حضرموت ، فتكوّنت بذلك قوّة عظيمة لو وجهت إلى اليمن لاستولى الحضارم عليها ، وكانت انضمت إلى الحكم الكثيرى .

توفى السلطان حسن بن عبد الله الكثيرى وقد ساس الناس بما عرف من الحزم وحسن التدبير والمحافظة على العدالة والأمن ؛ وقام بالأمر بعده السلطان على بن بدر الكثيرى ، ولم يكن كسابقه فى السياسة وحسن السيرة ، لم يعمل لتنشيط العلائق والروابط بينه وبين القبائل المجاورة له ، ولم يهتمّ بالمحافظة على العدالة ومراقبة الأمن ، وتوفى سنة ١١٠٧ ثم بعده السلطان عيسى بن بدر ، وكان هذا ضعيف الإرادة سليم النية قصير النظر ترك شئون الدولة لمن دونه من الرؤساء والولاة ، وقبع هو فى قصره واعتزل الناس وما يعملون ، وكان يافع أصحاب النفوذ المطلق والكلمة النافذة ، فى شبام الموسطة ، وفى سيون الظبي ، وفى تريم آل لبعوس ، وفى الشحر آل بريك ، كل هؤلاء كانوا يصدرون الأوامر وينفذون باسم السلطان عيسى بن بدر الكثيرى ، ولقد اتجهت أنظار الرعايا إلى الولاة ورؤساء الدولة ، وأمسى السلطان عيسى نسيا منسيا لايعرفه غير أهله ، ولايجتمع به سوى أقربائه ، وهو بذلك مسرور كل السرور بما رزق به من الشهية للطعام واللذّة فى النوم . أصبح يافع (الرتب) فى شبام وسيون وتريم والشحر يصدرون الأوامر وينفذون الأحكام بأسمائهم وتحت مسئوليتهم ، ولقد هبّ جماعة من آل كثير واستحثوا قومهم على القيام ضد يافع لاسترداد سلطتهم المفقودة ، ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، لأن مقاليد الأمور بيد يافع ، والحصون وما فيها من الذخائر تحت أيديهم ، لذلك هدأ آل كثير والتزموا السكوت والصمت غير أن أحد أبطالهم وهو عمر بن جعفر الكثيرى لم يهنأ له عيش ولم يطمئن له بال ولم يهدأ له هاجس ، استنكف الخضوع والخنوع ؛ لم يود أن يكون محكوما بعد أن كان حاكما ومرءوسا بعد أن كان رئيسا ، أزمع وأجمع على إعادة ملكه واسترداد بلاده مهما كلفه ذلك من التكاليف الهائلة ، ومهما اعترضته العراقيل ، وقامت فى سبيله العقبات جسّ نبض قومه وجاس خلال ديارهم لتكوين قوة وتوحيد كتلة للوصول إلى غرضه

الشريف ، فرأى الجوّ غير صالح لذلك والظروف لاتساعده فيما أراد ، ورأى أنه ليس من الحكمة ولا من الشجاعة أن يدفع قومه لحرب يافع الذين بيدهم الحصون والمعاقل والمؤن والذخائر ، فسافر إلى الشحر سنة ١١١٧ للاستطلاع على الحالة السياسية هناك ، فرأى أنه من السهل أن يفاجئ الشحر بقوم من الخارج ، فصار يكاتب إمام اليمن ويستنجده وتكفل بأشياء .

ولما آنس فيه الرضا سار إليه ، وحثه على إرسال النجدة ، فأمر الإمام الحريبي عامل تهامة بجمع المحابيس لديه من حاشد وبكيل وأن يجهزّهم فى البحر للرحيل إلى الشحر ، فتباطأ الحريبي فى تجهيز الجيش ، لأنه يعتقد أن الهجوم على يافع على جانب عظيم من الخطورة ، فأنبأه الأمير عمر بن جعفر الكثيرى أن احتلال الشحر ليس بعسير ، لأن عدد يافع فيها قليل ، وأنهم إذا فوجئوا بالهجوم فليس فى استطاعة قومهم بحضرموت الوسطى أن يرسلوا إليهم المدد لبعد المسافة وطول الشقة ، فأرسل الحريبي جيشا تحت قيادة الأمير عمر بن جعفر الكثيرى ؛ ولما وصل إلى الشحر وقد انتصف الليل وساد المدينة الهدوء والسكون ، هجم بجيشه فهبّ الناس من مراقدهم ، وذعروا لوجود الأعداء بينهم ، وحقّ لهم أن يذعروا ، إذ لم يطرأ على بالهم ذلك الهجوم ، ولم يدر بخلدهم ذلك الاحتلال ، وما كانوا يعتقدون أن الأمير عمر بن جعفر الكثيرى ، وقد كان بالأمس يجالسهم ويسامرهم كضيف كريم يأتى بجيش من اليمن ويحتلّ البلد ، ولكنها السياسة فوق كلّ شيء ، وهو معذور فى ذلك بعض العذر ، لأنه إنما كافح وجالد لاسترداد ملكه الذى اشتراه آباؤه من كندة بالدم ، واستولى عليه يافع عفوا بلا تعب .

ومما يجدر بالذكر أن الأمير عمر بن جعفر لم يسمح لجيشه الزيود بقتل أىّ شخص من يافع وغيرهم ، كما أنه منعهم عن السلب والنهب ، وأذى الناس ، الأمر الذى جعل بعض الجنود ينقمون عليه ، ويرمونه بالجبن ، ذلك لأنهم يعتقدون أنهم لم يأتوا لإنقاذ ملك الكثيرى فحسب ، بل وللنهب والسلب أيضا ، كما فعل سلفهم فى أيام أحمد بن الحسن الصفى (سيل الليل) .

لما تمّ له احتلال الشحر ، استدعى جماعة من قومه وولاهم بعض الأمور ، ثم

عزم على مهاجمة يافع فى حضرموت الداخلية لاسترداد ما بقى من ملكه فى أيديهم ، فوجد أن ذلك مجازفة ، وأنه من الخطورة على جانب عظيم ، فان الحصون والمعاقل فى أيديهم وفى صفهم نهد وآل تميم ، ففضل البقاء فى الشحر ، ثم أعاد الجيش إلى اليمن بعد أن زوّدهم بالهدايا والمال للإمام ، ولما رجع الجيش إلى اليمن ثار يافع ضدّ السلطان عمر بن جعفر ، وخلعوا طاعته ، وأظهروا الاستقلال التامّ ، فانسحب الأمير عمر بن جعفر من الشحر إلى اليمن محسورا مقهورا . كان ذلك كله بدون أن يحدث قتال بين الطرفين ، وإنما لغلطة الأمير عمر بن جعفر نفسه ، فقد أعاد الجنود اليمنية ، ولم يحصن نفسه ولا بلده بقوم من عشيرته . ولما وصل إلى صنعاء مكث هناك حتى إذا قام بأمر اليمن المتوكل القاسم بن الحسين قام يحرّضه على إرسال جيش إلى حضرموت .

وفى سنة ١٢٢٩ انتخب الإمام ٤٠٠ من أبطال دهمة ، وجعل عليهم الأمير عمر ابن جعفر ، فسار بهم إلى حضرموت ، وهجم على الشحر وأخذها بعد قتال دام أياما ثم أرسل إل ٤٠٠ جندى لاسترداد حضرموت الداخلية ، وقد أشعرهم بأن ينتظروا فى عقبة وادى العين لقبائل آل كثير ليهجموا على يافع ، ولكن من سوء حظّ اليمنيين أنهم لما وصلوا إلى عقبة وادى العين لم ينتظروا آل كثير ، فانحدروا على نهد مغرورين بقوّتهم ، مدفوعين بنشوة الانتصار على الشحر ، ولم يعلموا أن أمامهم قوما لايخشون الموت ، ولما علم نهد بقدومهم اتحدت كلمتهم واجتمعت قلوبهم غاضين النظر عما بينهم من التشاحن والتناحر ، وأحاطوا بالعدوّ من كلّ جانب وقتلوهم عن بكرة أبيهم ولم يسلم أحد من ال ٤٠٠ جندى ، فتألم الأمير عمر بن جعفر الكثيرى لذلك أشدّ الألم ، وأرسل للإمام يعتذر له فيما حدث فى اليمنيين ، وكان المنتظر من الإمام أن يرسل جيشا إلى حضرموت يضرب به يافع وآل كثير الذين هم السبب فى هلاك رجاله ، ولكنه لم يفعل لاشتغاله بالفتن الداخلية فى اليمن .

الدولة اليافعية

فى دورها الأول

يافع أعظم قبائل حمير وأشدّها قوّة وأصعبها مراسا وأكثرها عددا، ولبسالتهم وكرامتهم وتفانيهم فى النجدة لغيرهم ، كان يستعين بهم آل رصاص والعوالق والعبادلة [1] حين يهجم عليهم فاتح أو يسطو عليهم جائر ، ويستنجدون بهم عند حلول الكوارث وحدوث النوازل ، فكان يافع يأتون إليهم سراعا ، ويقاتلون فى صفوفهم ضدّ العدوّ دون أن يأخذوا على ذلك أجرا ، وقد استولى يافع على عدن ولحج وأبين فى عهد العثمانيين باليمن وحكموها من سنة ١٠٤٢ إلى ١٠٥٤ ، وحاربوا أئمة صنعاء الذين كانوا يرسلون جيوشهم للاستيلاء على البلاد اليافعية ، واستمرّت الحروب بينهم وبين ولاة اليمن عشرات السنين من عهد السلطان صالح بن أحمد هرهرة ، إلى عهد السلطان قحطان بن عمر هرهرة ، وفى النهاية كان النصر حليف يافع ، حيث طردوا الجنود اليمنية من حدود بلادهم العليا والسفلى وملحقاتها كلحج وأبين والشعيب وجبن ونعرة والربيعتين والظاهر وجبل حرير وحالمين ؛ ثم استمرّت الحروب بعد ذلك بين الفريقين حتى نهاية سنة ١٣٣٧ حيث تدخل الإنجليز بينهم وعقد صلحاً متينا . ويبلغ عدد يافع فى بلادهم العليا والسفلى نحو ١٤٠ ألفا ، ويقال لهم يافع أو اليوافع أوبنومالك

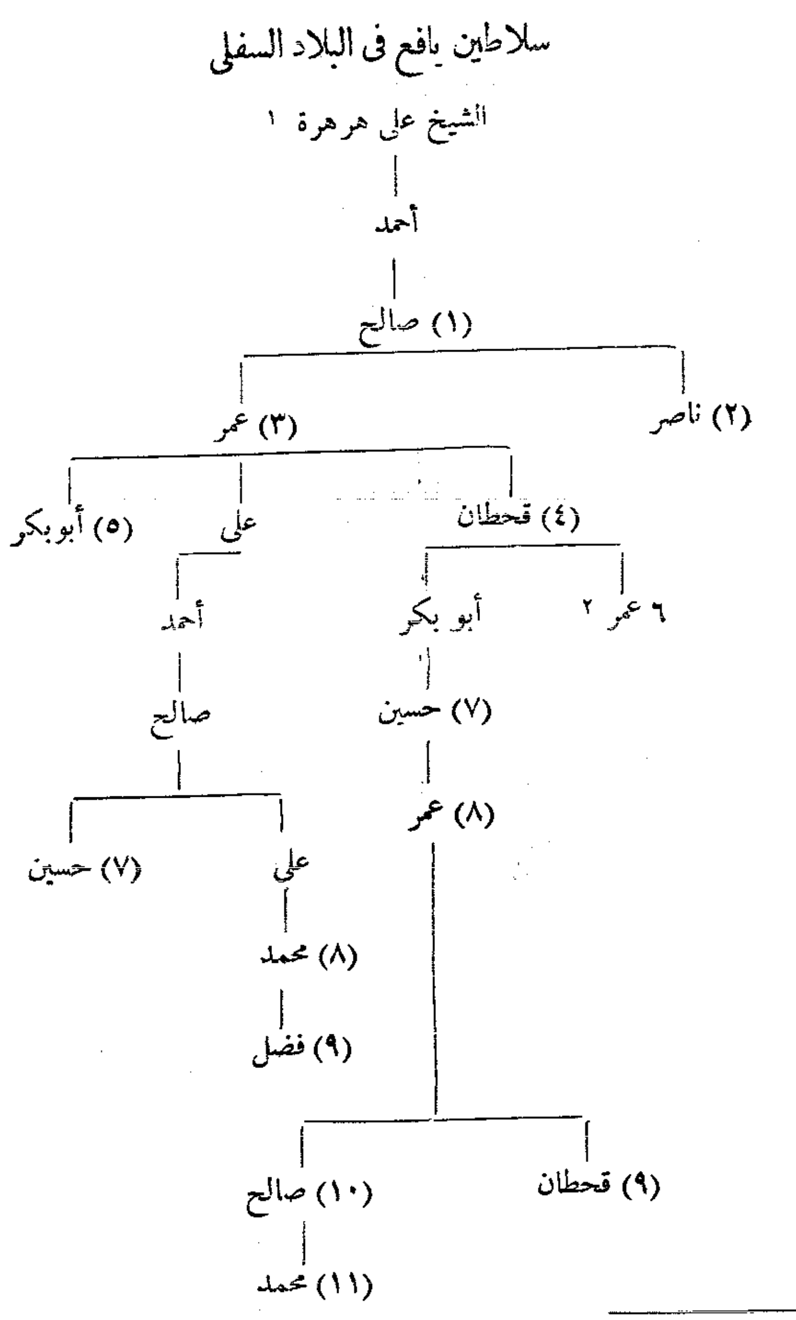
---

(١) العبادلة ومنهم آل محسن سلاطين لحج ، فخذ من آل سلام من ذرية السلطان محسن بن فضل بن محسن ابن الشيخ فضل بن على بن سلام بن على السلامى ، وآل سلام فخذ من يافع من بيت كلد قريتهم فى بلاد يافع تسمى بركات ، وقد كتبت وثيقة بختم السلطان سيف بن قحطان بن عفيف اليافعى هذا نصها : « خطنا الكريم ورسمنا العلى الفخيم شاهد بيد الشيخ سلام بن على العبد لى لأنه منا وإلينا ، وأنه حليف ولا عليه عرضة من أحد ، بل هو من جملة كلد ، وهذا خطنا شاهد بيده ، وحسبى الله ونعم الوكيل . بتاريخ شهر رجب سنة ١١٢٥ هـ » . قال الأمير أحمد بن فضل بن محسن العبد لى فى كتابه (هدية الزمن) : « واما آل سلام فن يافع القارة » . وقال : « ومن المحقق أن الشيخ فضل كر بجموع يافع على الجنود الأمامية التى فى لحج ، وأن السلطان سيف بن قحطان جاء بنفسه إلى لحج وحاصر أصحاب الإمام جملة أشهر حتى أرجع الشيخ فضل ابن على إلى حكم لحج وعدن ، وأخرجوا منها الرتبة الإمامية . وعلاقة الشيخ فضل بن على وصهارته بأمراء يافع وتردده إلى يافع كل ذلك معلوم » . وقال : « ولما قتل أحمد بن صلاح السلامى من السعديين انتقلت زوجته وهى من أميرات يافع بأولادها إلى يافع ، وسكنوا مع أقاربهم من أمراء يافع فى خنفر . . . » .

وهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، وينقسمون إلى قبائل كالموسطة والظبي وبني قاصد ، وتنقسم القبائل إلى أفخاذ وبطون كأفخاذ الموسطة القعيطي والخلاقي وآل نقيب وآل علي جابر وآل علي الحاج والجهوري والرشيدي والسعيدي والضريبي ، وتتفرّع من القعيطي بطون : كآل دهري وآل حداد وآل مدشل وآل مخارش والحمدي والنقيب وغيرهم . وأفخاذ الظبي هم آل هرهرة وآل عفيف والبكري والمرفدي والمصلي والحضرمي والفضلي وغيرهم .

وأفخاذ بني قاصد هم آل يزيدي والبطاطي والذبياني والزغلدي والعمري وآل طاهر بالرابح ، وغيرهم .

سلاطين يافع فى البلاد السفلى



(١) اشتهر الشيخ على هرهرة بالعلم والورع والتقوى والصلاح ، وكان قاضيا فى يافع ولذلك لقب بالشيخ .

(٢) بعد وفاة السلطان عمر انقسم يافع ، فولت الموسطة الأمير حسين بن صالح ، وولت الظبى الأمير حسين بن أبى بكر .

سلاطين يافع بني قاصد

(١) عفيف
|
(٢) محمد
|
(٣) معوضة
|
(٤) قحطان
|
(٥) سيف
|
(٦) معوضة

(٧) غالب — (٨) عبد الكريم

(٧) غالب
|
(٩) علي
|
(١٠) أحمد
|
(١١) علي
|
(١٢) محسن
|
(١٣) عيدروس

أمراء خرفة والضالع من يافع

(١) شعفل
|
(٢) قاسم

(٣) أحمد ← (٤) حسين

(٥) شعفل
|
(٦) صالح
|
(٧) أحمد
|
(٨) أبوبكر
|
(٩) عبد الهادى
|
(١٠) أحمد
|
(١١) حسين
|
(١٢) أبوبكر
|
(١٣) حسن
|
(١٤) عبد الهادى

(١٥) شعفل

سيف
|
(١٧) شايف
|
(١٨) نصر

عقيلى
|
(١٦) على

استقلّ يافع (الرتب) بالأمر فى تريم وسيون وشبام وملحقاتها ، وفى الشحر والمكلا ، وصاروا يصدرون الأحكام بأسمائهم وتحت مسئوليتهم ، ولقد ساعدتهم الظروف على توطيد مركزهم ، وتوسيع سلطتهم حيث لم يقم آل كثير بمناوأتهم ، وإثارة الاضطرابات والمشاغبات ضدّهم عشرات السنين ، كما أن القبائل الأخرى لم تعكر صفاء الجوّ السياسى ، ولم تعبث بالأمن ، فكان السلام يسود الحواضر والرخاء باسطا ذراعيه على البلاد ، وقد هاجر كثير من بيوتات يافع من بلادهم باليمن إلى حضرموت ، وطاب لهم المقام هناك وهناء العيش .

آل غرامة :

وكان أمير تريم الشرقية عبد الله عوض غرامة اليافعى حازما يقظا عالى الهمة عزيز النفس ، علم بحركة بعض آل كثير وتحفزهم لاسترداد ملكهم ، فأرسل رسله إلى يافع فى شبام وسيون ليكونوا على حذر ، ويستعدوا للطوارئ ، وعقد مع آل تميم معاهدة صداقة وولاء يستعين بهم عند مسيس الحاجة ، ثم شرع يعمل للقضاء على دعوة آل كثير ، ولكن من سوء حظّ قومه أنه مات ، وقام بالأمر بعده ابنه عبد القوى بن عبد الله غرامة ، وكان هذا قصير النظر ضيق الفكر طائشا مستبدّا ظالما ، كان مبغوضا لدى الناس حتى لدى بعض عبيده ، وكان متأثرا بسلطة آل باعلوى الروحية إلى أقصى درجة.

يافع (الرتب) فى الثغرين :

أما هؤلاء فكانوا بمعزل عن إخوانهم بحضرموت الوسطى ، وكأن العلائق بينهم كادت تنقطع لإعراض كل من الفريقين عن الآخر ، وكان اعتمادهم عظيما على حاصل الجمارك ورسوم القوافل التى ترد إلى أسواق الشحر والمكلا ، ولم يكن للجمارك ولا لرسوم القوافل حدّ معين ونظام معلوم ينفذ على الجميع ، وإنما كان السماسرة هم الذين يفرضون رسوم الجمارك بحسب عرفهم ، وكذلك كانت الحال فى رسوم القوافل التى ترد إلى شبام ، فإن الأمر كان بيد السماسرة .

آل بريك :

كان ناجى بن على بن بريك اليافعي أمير الشحر . ولما مات قام بالأمر بعده ابنه على ابن ناجى بن بريك ، وكان من أكبر الشخصيات البارزة ، كبير العقل عظيم الحلم عالى الهمة شجاعا جوادا ، ولقد أخضع بحكمته وشدته قبائل الحموم التى كانت تقطع الطريق وتنهب السابلة وتعبث بالسلام [١].

آل كسادى :

كان أمير المكلا المقدام محمد بن عبد الحبيب الكسادى اليافعي ، وفى أوائل أيامه كانت المكلا عبارة عن أكواخ قائمة على أرضها من غير نظام ، وكان ميناؤها خامل الذكر قليل الأهمية ، وكانت الفوضى ضاربة أطنابها هناك ، ولكن فى أواخر أيامه تحسن الميناء وانتظم أمره وأزيلت منه الفوضى وتقدم تقدما محسوسا بفضل الأمير النبيل صلاح بن محمد الكسادى ، فقد بذل كل ما استطاع لإصلاحه وتنظيمه وعمل كل مقدوره فى جذب المسافرين إليه حتى أصبح ينافس ميناء الشحر ويزاحمه ، ويقضى على شهرته ولم يكن اهتمام آل كسادى مقصورا على إصلاح الميناء وتنظيم شؤونه ، بل وجهوا أفكارهم نحو إصلاح مدينة المكلا حيث أقطعوا الناس أراضى من غير ثمن ليبنوا فيها دورهم ، ومنحوا أهل المتاجر التسهيلات حتى انتقل بعض التجار من الشحر والغيل إلى المكلا واستوطنوها ، فانتعشت السوق وازدادت حركة البيع والشراء ، وأخذت ثروة الأهالى تنمو نموا سريعا .

ابتداء ظهور مساعى آل باعلوى السياسية [١]

فى سنة ١٢٢١ [١] حاول إسحاق بن عمر بن يحيى باعلوى الاستيلاء على المكلا . كان فصيح اللسان قوى الحجة كبير النفس كثير المطامع ، وكان متظاهرا بالصلاح والورع والتقوى ، كثير البكاء أمام الناس حينما يسدى لهم نصائحه ويلقى عليهم مواعظه وقد ملك قلوب الناس بتلك المظاهر والمزايا ، واستعبد العوام لأغراضه ونواياه ، ولقد جمع مالا كثيرا من النذور . والقرابين التى تقدم باسم البركة وجلب الرزق .

(١) آل باعلوى ، ويقال لهم أحيانا العلويون سبق ذكرهم فى صفحة ٧٧

سافر إسحاق إلى بعض موانىء البحر الأحمر وجمع من المقاهى والبارات قوما ورحل بهم فى أربعة مراكب شراعية كبيرة ونزل فى بروم ليعد الهجوم على المكلا ، ولما بلغ ذلك إلى الأمير صلاح بن محمد الكسادى اليافعى جمع رؤساء يافع وشاورهم فى الأمر ، وبعد تبادل الآراء أشار عليهم محجم بن على بأن لا فائدة من الانتظار ، وأن الطريقة الناجعة هى الهجوم عليهم ليلا وهم فى غراباتهم ، فجهز الكسادى عشرين سنبوكا من يافع وعبيد وأبحر بهم ، فوصلوا بروم عند مطلع الفجر ، فهجموا على إسحاق وقومه طعنا بالسلاح الأبيض حتى قتلوا أكثرهم ، وفرّ إسحاق وبعض رجاله فى مركب ، وأرسى بشرمة ، وهناك أنزل فلول رجاله ومدافعه وسار بهم إلى الديس بعد أن انضمّ إلى صفه جماعة من الحموم ، فقابلهم حامية الديس من آل غرامة وعبيدهم فانهزم الأعداء شر هزيمة وهرب إسحاق إلى جده ملوما محسورا .

وفى أيام أمير تريم عبد القوى بن عبد الله غرامة اليافعىّ تحرّك نشاط آل كثير وانتشرت دعوتهم واتسع نطاقها ، وكان النبيل عبود بن سالم الكثيرى وهو من أعظم رجالات آل كثير وأكثرهم شجاعة وإقداما يقوم بأعظم قسط من الدعاية لقومه بواسطة محسن بن علوى الصافى باعلوى ، وعبد الله بن عمر بن يحيى باعلوى ، وجعفر ابن شيخ السقاف باعلوى ، وكان هؤلاء ومن يلحق بهم من آل فقيه وآل سبايا يتظاهرون أمام يافع بالصداقة والولاء وحسن المعشر ، وكانوا رحالين بين تريم وسيون وشبام وملحقاتها ، وحينما يأتون تريم ينزلون ضيوفا فى قصر الأمير عبد القوى غرامة اليافعى ، فيستلمهم الأمير ويحتفى بهم احتفاء عظيما ويكرمهم إكراما حاتميا ، ويتظاهر هؤلاء أمامه بالولاء له ولقوم يافع ، ويحطون من قدر آل كثير ويرمونهم بالضعف والتخاذل ليثبطوا همته ، ويوهنوا عزمه ويميتوا فيه روح الحركة والنشاط ، وكان الأمير يأخذ كلامهم عن حسن نية وصفاء سريرة ، ولايعلم أن أولئك الضيوف أعداء فى شكل أصدقاء ، وذئاب فى صورة حملان ، وكذلك يعمل هؤلاء الجواسيس فى سيون وشبام ، ويستطلعون أسرار يافع ومكنوناتهم ، فإذا انتهوا من مهمتهم عادوا إلى آل كثير وقدموا إليهم برامج أعمالهم ودسائسهم ، ولقد مضت على تلك الحال سنوات انتشرت فى خلالها دعاية آل كثير ، وسار الزعيم عبود بن سالم الكثيرى

إلى غرب حضرموت ، وتعاهد مع العوالق والكرب على الصداقة ليستعين بهم عند الضرورة ، ولقد أصبحت تريم فى موقف حرج جدا ، ولكن غرامة لم يأخذ حذره بالرغم عن كثرة تنبيهات بعض آل تميم له النصائح التى يسلونها نحوه ، ليكون على استعداد لما عساه أن يحدث من الطوارىء .

الفتن بين يافع (الرتب) :

كانت أحكام ولاة يافع عادلة ، ومعاملاتهم مع الرعايا حسنة ، ثم ساءت حالهم وتغيرت طباعهم وظهروا بمظهر الكبرياء والقسوة والشدة فى غير الحق . كما أنهم لم يعملوا جديدا لإصلاح العباد ، ولم يبذلوا من أموالهم شيئا لتنشيط العلم وتوسيع نطاقه ، وتشجيع العلماء والفضلاء ، ولم يفكروا كثيرا ولا قليلا فى توسيع نطاق حكمهم وبسط نفوذهم ، ولم يعملوا لتوثيق العلائق وتقوية الصلات بينهم وبين القبائل الخارجة عن حدودهم كنهد والعوابثة والجعدة وقبائل دوعن وغيرهم ، فقد رضوا بالحكم فى دائرة ضيقة فى تريم وسيون وشبام وملحقاتها وفى الشحر والمكلا ، وفاتهم أنهم وبالأخص الذين فى تريم وسيون محاطون بآل كثير ومن يلحق بهم كالعوامر وآل جابر وآل باجرى ، الأمر الذين يلجئهم لأن يأخذوا حذرهم ويستعدوا للطوارئ وحوادث الأيام ، ثم إن المنافسة فيما بينهم على السلطة اتسع نطاقها وتفاقم خطبها وتطاير شررها ، وثارت الفتن والوشايات ، واحتدم النزاع بين روساء يافع فى سيون ، وبين آل عبد القادر القائمين بإمارة نصف تريم ، وآل غرامة القائمين بإمارة النصف الآخر منها : وكان النزاع بين آل عبد القادر وآل غرامة قديما من عهد الأمير عبد الله عوض غرامة ، ولكن كان هذا الأمير يداريهم ويراعيهم ويتنازل لهم عن بعض مطالبهم حفظا للأرواح من أن يذهب ضحية الطمع والجشع وحبا لجمع الكلمة وتأليف القلوب وتوحيد الصفوف : ولكن جاء بعده ابنه الأمير عبد القوى ، وكان هذا طائشا قاسيا ، فازدادت الفتنة بينه وبين آل عبد القادر واشتعل لهيبها ، وثارت الحرب بينهم فى تريم حتى انقطعت حركة التجارة ووقف عمل الفلاحين ، وساد المدينة الخوف والرعب ؛ ولما رأى آل عبد القادر أن لاطاقة لهم بمناوشة آل غرامة ، ساروا إلى زعيم آل كثير

الأكبر غالب بن محسن بن عبد الله الكثيرى [1] فأمده بـ ٢٠٠ رجل ، وكان عدد آل عبد القادر سبعين رجلا مع عبيدهم ، وعدد آل غرامه فى تريم ١٢٠ مع عبيدهم ، ثم جاء إلى تريم عبد القادر بجيشهم تحت قيادة عبود بن سالم الكثيرى على حين غفلة ، فبهت آل غرامه ورأى الأمير عبد القوىّ غرامه أن الجريمة جريمته ، حيث لم يسس آل عبد القادر بكياسة ولين ، كما كان شأن والده معهم . أمسى الأمير فى موقف حرج ، وأظلمت أمامه الدنيا وضاق ذرعا ، فأشارت عليه أمه وكانت أكثر منه صبرا وجلدا على مكافحة المخاطر ومكابدة النكبات بأن يتظاهر لآل كثير بالرغبة فى بيع نصف تريم لهم ، حتى إذا جاء وفدهم للمفاوضة واجتمعوا فى القصر يشعل من تحتهم البارود ليهلكوا عن بكرة أبيهم ، ولكن الأمير عبد القوى امتنع فى بادىء بدء ، ثم عدل عن رأيه وأراد تنفيذ مكيدة والدته ضد آل كثير ؛ ولما اجتمع آل كثير فى قصر الأمير عبد القوى وكانوا ٣٠ رجلا وفيهم من آل باحرى والعوامر ، وفى مقدمتهم عبود بن سالم الكثيرى وعبد الله بن صالح الكثيرى ، انسحب الأمير من الجلسة ، وأراد أخوه أن ينسحب أيضا ليشعلا قنابل البارود فى آل كثير ، ولكن عبود بن سالم الكثيرى أدرك أن مع آل غرامة مكيدة ، فلم يسمح لغرامة بالانسحاب وكان الأمير عبد القوى فى انتظار أخيه ، ولكن والدته أمرته بإشعال البارود عليهم جميعا ، فامتنع الأمير شفقة على أخيه وخوفا من العاقبة ، وقد عاتبته والدته بعد ذلك عتابا مرا ، فاعتذر لها بوجود أخيه بينهم ، فقالت له كلمتها المشهورة « ليحترق أخوك معهم وهب أننى أخرجته سقطا » .

ثم سار إليهم للمفاوضة ، وبعد الغذاء خرجوا جميعا إلى الجامع للصلاة ثم عادوا ، وكان قد تقدمهم فى العودة من المسجد عبود بن سالم الكثيرى وعبد الله بن صالح بن مطلق الكثيرى وثلاثة من جماعتهم ، وجلسوا فى شرفة القصر من الدور الأول ، فرأتهم والدة الأمير عبد القوى غرامه ، وصعدت إلى أعلى القصر ، وأخذت تدفع بكل قوتها

(١) كان المقدام غالب بن محسن الكثيرى جاء من حيدر أباد بثروة عظيمة ، وكان أحد رؤساء جيش ملك حيدر أباد ، وعلت رتبته لدى الملك لشجاعته وإخلاصه ، وكان ثالث المقربين لديه بعد الجمعدار عوض بن عمير القعيطى اليافعى والجمعدار عبد الله بن على العولقى ، وقد وشى به هذان الرجلان لدى الملك حتى اضطر الجمعدار غالب بن محسن الكثيرى للرحيل إلى حضرموت .

جزءا من حائط السطح القائم فوق عبود بن سالم الكثيرى وجماعته لتقتلهم ، فشعر هؤلاء بالحركة وانحازوا إلى ناحية أخرى ، ونجوا من مكيدة تلك المرأة الحسور كما نجاهم الله من مكيدتها الأولى، وأخيرا حصل الاتفاق بين الفريقين على أن يحتلّ آل كثير معاقل تريم وحصونها ، وهكذا خرج الأمير عبد القوى من الأمر مغلوبا ملوما وما أصابه من مصيبة فبما كسبت يداه .

والى تريس :

كان الضريبي اليافعى واليا على مدينة تريس ، وليس عنده من الجند غير أفراد من العبيد ، وفى شهر الحجة سنة ١٢٣٢ مرض وشعر بدنوّ أجله ، ولم يكن له وارث يرثه فى الولاية ، فأرسل إلى الموسطة ولاة شبام من يقوم بأمر تريس ، فتولى أمرها أحد آل نقيب ، وأخذ يسوس شؤون أهل تريس ، ولكن لم يكن عنده من عشيرته من يشدّ أزره ، ويعينه فى أموره غير عدد قليل ، لذلك صار آل كثير يناوشونه حتى إنهم حفروا خندقا على مقربة من قصره إلى البئر التى يشرب منها ومنعوا عنه الماء . ولما اشتد عليه وعلى آله العطش ولم يستطع أن يجلب الماء والزاد من الخارج تخلى عن تريس وانسحب بمن معه إلى شبام واحتل آل كثير البلد .

خروج آل بكر من مريمة :

استأنف آل كثير سعيهم لإزالة يافع من بينهم فأرسلوا فرقة منهم إلى مريمة فى صورة ضيوف ، فأكرمهم بنو بكر وأنزلوهم فى بيوتهم على الرحب والسعة ، ولما طاب لهم المقام ثاروا على بنى بكر ، وكان هؤلاء قليلين وأخرجوهم عنوة واستولوا على مريمة ، وسار بنو بكر إلى شبام .

فتنة شبام :

كان أمر مدينة شبام بيد الموسطة من يافع ، وكانوا على وفاق تام هم ومن فى المدينة من يافع وغيرهم ، ومع أنهم لم يأتوا بخير ولا بشرّ للبلد فقد كانوا محبوبين من الأهالى وفى أواخر عهدهم تنافسوا على السلطة هم وغيرهم من أفخاذ يافع القاطنين فى شبام

وملحقاتها وبعد صلاة عيد الفطر سنة ١٢٣٤ اجتمع يافع أمام الجامع لتهنئة الوالى بالعيد ، وكان من عاداتهم أن يتقدم الجمع من هو أحق وأجدر بالتقدم من الشيوخ والأعيان . وفى ذلك اليوم اختلفوا فيمن يتقدمهم واحتدم الخلاف بينهم ، وفى أثناء ذلك تقدم أحد آل على جابر فقتله أحد الحاضرين من يافع ، فأخذ آل على جابر يسألون أفخاذ يافع الحاضرين عن القاتل ليقتلوه ، ولكنهم أنكروا جميعا ، ثم صار آل على جابر يطالبون الموسطة فى فقيدهم وتفاقم التشاحن والتنازع بين الفريقين وثارت الحرب ، وأخير اعترف أحد آل رشيدى بالجريمة وقتله آل على جابر ، وهدأت الفتن بعد ذلك بين الموسطة وآل على جابر ، ولكن ظل أثرها فى النفوس كامنا فتنافر الفريقان وتقاطعا وكادت الحرب تعود جذعة ، ثم رأي أفراد من أفخاذ يافع فى شبام أن الفتنة لاتزول مادام ولاة شبام من يافع ، وأن هؤلاء لايدينون إلا لمن يتولاهم من غير قبيلتهم ، لذلك طلبوا إلى عمر بن جعفر بن عيسى بن بدر الكثيرى أن يتولى إمارة شبام وله نصف حاصل المدينة ، فقام بالأمر عمر بن جعفر الكثيرى يساعده فى ذلك ابنه منصور بن عمر وعبيده فأخذ الأمير عمر بن جعفر يوطد مركزه ويقوى عضده ، فابتاع عبيدا وضمهم إلى عبيده القدماء وحاول أن يأتى برجال من عشيرته فمنعه يافع وفى سنة ١٢٣٧ توفى وقام بالأمر بعده ابنه منصور ، وكان هذا قاسيا مستبدا عديم السياسة والحزم ، متعصبا لعشيرته كل التعصب ، أخذ يضغط على حرية يافع ويرهقهم بمطالبه ويضيق عليهم من كل جانب ويسومهم سوء العذاب .

وفى شوال سنة ١٢٥٥ سار أغلب من فى شبام من يافع إلى قرى القطن لزيارة أقاربهم ، فاغتنم الأمير منصور بن عمر الكثيري هذه الفرصة وأخرج من بقى فى شبام رجالا ونساء وولدانا ، واحتل المدينة كلها ، وأعلن استقلاله وقطع علائقه بيافع ، وحصن معاقل شبام برجال من عشيرته ، ولقد أحدث ذلك أثرا سيئا فى نفوس يافع وآلمهم أشد الألم ، وهم الجانون على أنفسهم والخاربون بيوتهم بأيديهم ، فليس من السياسة فى شىء أن يولوا الأمير عمر بن جعفر الذى كان جده بالأمس ملكا فى شبام ولكن التنافس على السلطة هو الذى أعمى أبصارهم .

الدولة الكثيرية

فى دورها الرابع

فى سنة ١٢٦٠ ابتاع آل عبد الله قرية الغرف من القرامصة آل تميم بمبلغ ١٢٠٠ ريال ، وأقاموا فيها وجعلوها نواة لدولتهم الفتية . وقد أحدثت هذه البيعة ضجة فى آل تميم ، فنقموها على أصحابهم وألجأوهم لابطالها ؛ فحاول القرامصة إبطال البيعة بإرجاع المبلغ فلم يستطيعوا ، وفى سنة ١٢٦٢ توسط سرّا محسن بن علوى الصافى وزملاؤه من آل باعلوى فى عقد اتفاقية بين آل عبد الله وبين همام صاحب حصن الزناد ، على أن يتخلى عن حصونه لآل عبد الله . ويستلم فى مقابل ذلك مرتبا شهريا مدى حياته ، فكان ذلك ؛ ثم استأنف محسن بن علوى وجماعته العمل ، فساروا إلى الأمير عبد القوى بن عبد الله غرامة . وبذلوا كل جهودهم لديه ليفوّض جميع شئون تريم لآل عبد الله فى مقابل مبلغ كبير من المال ، ولما آنسوا فيه عدم الرضى ، استدرجوه حتى أتوا به إلى بيت عبد الله بن عمر بن يحيى باعلوى ، وهناك أحاطوه بمكرهم وخدعوه حيث وافقهم على أن يفوّض جميع شئون تريم لآل عبد الله ، ويبقى هو كرئيس شرف على عشيرته يافع ، ويتسلم من آل عبد الله ٢٤٠ ريال فى الشهر ، وكتبت على ذلك وثيقة بحضور بعض رؤساء آل باجرى وآلا جابر والعوامر وآل باعلوى . وبعد تلك الاتفاقية دخل آل كثير تريم بطبولهم فرحين مبتهجين ، واستولوا على شئون المدينة . ولقد اندهش الناس لذلك الحادث الغريب الذى لم يكونوا يتوقعون حدوثه ، وتألم الأمير عبد القوى غرامة من تلك المظاهر ، وكاد يصعق من التحسر والتألم ، أما يافع الذين فى القطن وسيون فقد غضبوا لذلك أشدّ الغضب ، وآلمهم سقوط مدينة تريم من بين أيديهم . وبعثوا إلى آل غرامة يحثونهم على القيام لاسترداد تريم ؛ فثارت حميته وفارت غيرته وأخذ يعدّ العدة ويتحين الفرص من حين إلى حين . وفى محرم سنة ١٢٦٣ جمع الأمير عبد القوى غرامة عبيده ورجالا من يافع

وآل تميم واحتلّ بهم المجحف وبعض أطراف تريم وأعلن الحرب ، وجاء خمسون رجلا من يافع من سيون وثمانون من آل تميم وانضموا فى صفه ، فحمى وطيس الحرب فى الطرفين ، واستولى الأمير عبد القوى على حصن الشاطرى وهو أمنع الحصون وعلى المحيضرة أيضا ، فازداد موقف آل كثير حرجا واشتدّ الضيق عليهم وأحاطت بهم الأخطار من كل جانب ، وطال الحصار فاختلّ الأمن واضطربت الأحوال . واستولى الأمير غرامة على جزء كبير من تريم وكاد يحتلها كلها ويحوز النصر ، لولا أن الأمير عبود بن سالم الكثيرى أتى بجيش من غرب حضرموت من الكرب والعوالق ، وانحلوا على الأمير غرامة من ناحية المحيضرة وحصن الشاطرى وحصروا تريم وقطعوا عنه كل المواصلات ، وكاد هو ورجاله يموتون جوعا . وفى ربيع الثانى سنة ١٢٦٣ اضطرّ الأمير غرامة لأن ينسحب ويحوّل عبيده لدولة آل عبد الله على أن تدفع له ٢٠٠ ريال شهريا ، وبقى الأمير غرامة فى تريم أياما ، ثم شعر بالخذلان والخسران ، وأبى أن يمكث فى المدينة كفرد من أفراد الشعب بعد أن كان الحاكم المطلق فيها ، وغادرها إلى سيون ثم إلى المكلا تاركا معاشه لدولة آل عبد الله الكثيرية .

أما محسن بن علوى الصافى وزملاؤه فقد استأنفوا مساعيهم السياسية ضد يافع . كانوا يذهبون إلى يافع للتجسس لآل كثير ، ولقد بذلوا كل مستطاع لتعكير الصفاء وقطع الصداقة بين يافع وآل تميم ، كيلا يجد يافع أنصارا ولا أعوانا ، ولكنهم لم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا .

وكثير من يافع فى سيون لايزالون يحسنون الظنّ فى محسن بن علوى وزملاءه ، ويعتقدون فيهم الخير والبركة ، إلا أن أفرادا منهم أحسوا أن هؤلاء يتجسسون عليهم لآل كثير ، وفى مقدمة هؤلاء الأحرار النبيلان عبدالله هرهرة اليافعى وأخوه عبدالربّ ، فقد سعيا بكل مقدورهما فى تفهيم يافع دسائس هؤلاء ومساعيهم ضدهم . وصادف أن مرّ النبيل عبد الله هرهرة مع ثلاثة من يافع أمام بيت عبد الله بن زين بإسلامة ، فسمعوا محسن بن علوى وجماعته يتهامسون فيما بينهم ، فدخلوا عليهم فوجدوهم يكتبون الرسائل الطويلة للدولة الكثيرية بالشئون السياسية فى سيون ، وقد بهت الجواسيس حينما رأوا

اليافعيين أمامهم ، ولكن محسن بن علوي الصافي تجلد وثبت في مكانه كأنه لم يحدث شيء ، ولعله أراد أن يتظاهر بالشجاعة والإقدام ، وصار يهدد اليافعيين بالويل ، فثارت ثائرة عبد الله هرهرة وجعل يضربه ضربا مبرحا بعصا كانت في يده ، ومحسن ابن علوي يصيح بأعلى صوته ، ثم اعتقلوه هو وجعفر بن شيخ السقاف وعبدون السبايا وعمر بن عبد الرحمن فقيه ، وساقوهم في الشارع على مرأى من الناس ، ثم حبسوهم في دار الصبان . وأرسل محسن بن علوى إلى رؤساء يافع : أن أطلقوا سراحنا وإلا اقتلونا ، فهذا شرف لنا وأحبّ إلينا من السجن . فأجابه النبيل عبد الله هرهرة : أما القتل فنحن ننزّه سيوفنا عن أن ندنسها بدمائكم ، وأما إطلاق سراحكم فذلك أمر ليس لكم فيه كلام . وبعد مرور عشرين يوما أطلق يافع سراحهم ، ونفوهم من سيون .

وقعة وادى جثمة :

أرسل يافع في الشحر ذخائر وأقواتا ليافع في سيون ، فعلم آل كثير بذلك وتعرّضوا للقافلة ، وبلغ يافعا ذلك فخرجوا لحمايتها ، والتقى الفريقان في وادى جثمة ، فثارت الحرب بينهم وقتل من الفريقين كثيرون ، وكان النصر حليف آل كثير . أما القافلة فقد انسلّ بها جمالوها في أثناء الحرب إلى أسفل الوادى ، وانحدروا إلى الناحية الشرقية في طريقهم إلى سيون ، ولكن جماعة من العوامر استولوا عليها وأتوا بها إلى تريم .

سقوط سيون :

لقد كان انكسار يافع في وادى جثمة أكبر مشجع لآل كثير على احتلال سيون وكأنه انكشف لهم ضعف يافع في سيون وعدم القدرة على المقاومة والدفاع ، فقد جهز الأمير عبود بن سالم الكثيري ألفين من عشيرته ومن العوامر وآل باجرى وآل جابر والحموم وسار بهم إلى سيون ، وحاصرها ثلاثة أيام ، ثم أمر رجاله بالهجوم من الناحية الشرقية ، وهجم هو بجماعة منهم من الناحية الغربية ، فهلع الناس مما رأوا

وتوقعوا شرّا مستطيرا ، ولكن القائد عبود بن سالم أصدر أوامره لرجاله بعدم إيذاء أيّ شخص لا يريد الحرب ؛ أما يافع فقد حاولوا الدفاع عن أنفسهم فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، فغلبوا على أمرهم واحتلّ سيون آل كثير .

هكذا أصبحت دولة آل عبد الله الكثيرية تخطو خطوات واسعة نحو الأمام ، وتزداد قوتها ويتمدد نفوذها ، وتحتل مدينتين هما من أعظم مدن حضرموت وأوفرها عمرانا وحضارة ، والفضل كل الفضل فى ذلك يعود إلى البطلين العظيمين السلطان غالب بن محسن الكثيرى ، والقائد الأمير عبود بن سالم الكثيرى ، فقد عرفا بحزمهما وحكمتهما وسياستهما كيف يوحدان صفوف قومهما ، ويؤلفان بينهم وبين القبائل المجاورة لهم ، ويجعلان هذه القوّة فى قبضة يدهما يصرفانها كيف شاءا ويرسلانها أنى أرادا ، وبذل السلطان غالب بن محسن أموالا كثيرة للوقوف على أحوال يافع السياسية وما هم عليه من ضعف أو قوّة ، من خصام أو وئام بواسطة أولئك الجواسيس والعيون التى كان يرسلها من وراء الستار . وهنا لاننسى فضل أولئك الجواسيس على آل كثير فقد أدّوا واجبهم على أحسن ما يرام ، وفازوا بأغراضهم المنشودة بفضل سلطتهم الروحية التى نفذت فى أحشاء الشعب فملكته ، وأضاعت منه رشده وأعمت قلبه وأصبح ينقاد لهم ولمن على شاكلتهم من أصحاب السلطة الروحية كما تنقاد الأنعام للرعاة ولأصحاب السلطة الروحية من رؤساء الأديان فى المشرق والمغرب حظّ وافر فى تعبئة الجيوش وإثارة الحروب ، ولكن أكثر رؤساء الدين المسيحى فى الغرب إنما أوقدوا الحروب للمصلحة العامة ، وضد مخالفيهم فى الملة والعقيدة ، كرجال الدين فى روما الذين بذلوا كل مستطاع فى توحيد أمم أوروبا ضد المسلمين أيام الحروب الصليبية ، ولكن أصحاب السلطة الروحية من المسلمين إنما يبذلون مجهودهم لإثارة الفتنة وزرع الخصام بين المتصلين بهم فى الجنسية والملة ، ويعبئون جيش أحمد ليسحقوا به جيش محمود ، هكذا يأكل بعضهم بعضا ، وهم لايستطيعون أن يعملوا غير ذلك ، وقد يستطيعون أن يعملوا للنفع العام ، ولكن فى ذلك كسادا لجيوبهم وفواتا لحطام الدنيا ، فهم يعبدون المادة ويجرون وراءها ، ولا يضرّهم من أىّ وعاء خرجت ، ولالأىّ غرض منحت ، ولا يبالون بنتائجها وعواقبها مهما اشتد خطرها وتفاقم خطبها .

تأثير سقوط سيون فى يافع :

كان لسقوط سيون فى نفوس يافع أعظم أثر ، فقد اجتمعت كلمتهم وآزمعوا على استردادها بأىّ حال ، ففى ليلة ٢٧ من شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٥ سرى منهم ومن عبيدهم نحو ١٣٠٠ رجل ووصلوا سيون عند مطلع الفجر ، فهجموا عليها وكان فى معاقل سيون نحو ٣٥٠ رجلا مسلحا من آل كثير ومن الحموم والعوامر ، فالتحمت الحرب بين الفريقين وفى الفجر احتلّ يافع سيون ، وكان عدد القتلى من يافع أربعة منهم عبد الربّ بن سالم هرهرة والجرحى ثلاثة ، وقتل من الفريق الآخر عشرة وجرح كثيرون . حدث ذلك كله دون أن يعلم آل كثير فى تريم وغيرها ، لأن يافع أحاطوا بسيون وحاصروها من جميع نواحيها. ولما بلغ ذلك إلى آل كثير فى تريم أزمعوا وأجمعوا على أن يستردوا سيون ويجازفوا بأرواحهم فى سبيل تخليصها من أيدى يافع ، وقد انضمّ فى صفهم آل جابر والعوامر وآل باجرى ، فتكوّنت من هذه القبائل ثلاثة آلاف مقاتل وزحفوا على سيون ليلا والسكان غارقون فى نومهم من جرّاء القلاقل والاضطرابات التى حلت بهم من حرب يافع ضد آل كثير ، ولم يطرأ ببال يافع أن آل كثير يجتمعون بتلك السرعة العظيمة ويهجمون بتلك القوّة على سيون بعد انكسارهم الذى لم يمض عليه سوى أيام معدودات ، ولكنها سياسة القائد البطل عبود بن سالم ، وهى سياسة حازمة ، زحفوا على سيون فهبّ الناس من مراقدهم ، وأخذ يافع حذرهم وجعلوا يدافعون دفاع المستميت ، ولكن سيل آل كثير كان جارفا ، فقد احتل آل كثير سيون وقتل من الفريقين خلق كثير .

محاولة يافع احتلال سيون :

فى سنة ١٢٦٧ اجتمع ٤٠٠ رجل من (كالد) وعليهم صائل و ٣٥٠ من (يافع التلد) وعليهم سالم بن على بن الشيخ على هرهرة ، وساروا إلى سيون لاحتلالها ، وكان أميرها يومئذ السلطان غالب بن محسن الكثيرى يحيط به من الأنصار والأعوان ٥٠٠ و ٣٠٠ من العوامر وآل باجرى . زحف يافع على سيون فثارت الحرب بين الفريقين

وبدأ آل كثير ينسحبون من المدينة أفرادا وجماعات ، وكاد يافع يحتلونها لولا أن صائل خان قومه حيث استلم عشرة آلاف ريال من آل كثير ، وتظاهر بالانخذال والانكسار وسحب أغلب رجاله ، حتى ظن أنصارهم الذين ثبتوا وبلوا بلاء حسنا أن النصر فى جانب آل كثير ، فانسحبوا ولم يبق منهم سوى سالم بن على هرهرة و ١١ شخصا من رجاله اختفوا فى دار وأسر آل كثير ١٢ رجلا من عبيد يافع وربطوهم بالحبال ، ثم وضعوهم فى حفرة ودفنوهم أحياء ؛ أما ابن هرهرة وأعوانه فقد علم آل كثير بوجودهم ، فساروا إليهم وأحاطوا بهم من كل جانب ومنعوا عنهم القوت والماء ، فاضطر ابن هرهرة وجماعته للاستسلام ، فأخذوهم وسجنوهم مقيدين بالحديد ، وجعلوا عليهم عبدين يحرسانهم ، وفى ذات ليلة حدث فى سيون زواج عند أحد الأعيان ، فذهب أحد الحارسين للرقص [1] ، فانتهز ذلك يافع وأتوا إلى العبد الحارس وأخذوا يمازحونه ، حتى إذا أنسوا فيه الغفلة وثبوا عليه وربطوه بحبل فى عنقه وشدوه حتى فارق الحياة ، ثم قطعوا قيودهم بمبرد كان أهداه لهم فى وسط الخبز أحد الموالين لهم من أهل المدينة ، ثم انسلوا من الدار أفرادا ، وقد انكسرت رجل أحدهم وهو من بنى أرض حين نزل من الدور الأول إلى الأرض ، فصاح فى جماعته أن احملونى معكم وإلا صحت بأعلى صوتى ، فتركوه ولم يهتموا به ، فصاح بكل صوته ، فجاءه بعض آل كثير وقتلوه وأسروا ثلاثة من يافع ، والتجأ سالم بن على هرهرة وستة من رجاله إلى ديار آل منيبارى ، فرحب بهم هؤلاء وأكرموهم ، ثم علم السلطان غالب ابن محسن الكثيرى بذلك ، فأرسل إلى آل منيبارى يطلب منهم اليافعيين ، فامتنعوا فى بادىء بدء ثم سلموهم له ، وصادف أن ذهب بعض آل منيبارى إلى شبام فعيرهم السماسرة ولاموهم على تسليمهم اليافعيين للسلطان غالب بن محسن ، فوقع ذلك اللوم فى نفوس آل منيبارى وأزمعوا على أن يعيدوا اليافعيين من عند السلطان غالب ويذهبوا بهم إلى يافع فى الحوطة ، فسار ١٦ رجلا منهم إلى سلطانهم غالب بن محسن الكثيرى فوجدوه فى قصره وحوله ٨ من عبيده ، وطلبوا إليه تسليم يافع إليهم ، فامتنع السلطان فقام آل منيبارى وأغلقوا الأبواب وهددوه وعبيده بالقتل إذا لم يسلم إليهم اليافعيين ،

(١) الرقص فى حضرموت ، ويسميه الحضارم « الشرح » يخالف الرقص العصرى المعروف فى أكثر مظاهره وحركاته ، وسيأتى الكلام عنه فى الجزء الثانى .

فأجابهم إلى ذلك ، وسار آل منيباري باليافعيين إلى شبام في طريقهم إلى الحوطة ، فأثنى السماسرة على مروءتهم وشهامتهم وأمرهم الأمير منصور بن عمر الكثيري أن يطالبوا يافعا بفكّ أسرى آل كثير الذين عندهم ، فقالوا إننا سنسلم اليافعيين ليافع وهم إن شعروا من تلقاء أنفسهم بالواجب فياحبذا ، ثم ساروا إلى الحوطة عند الأمير محمد بن عمر القعيطي اليافعي والماس عمر وسلموهم إلى يافع ، فأكرم يافع آل منيباري واحتفوا بهم احتفاء عظيما ، وحينما أرادوا العودة إلى ديارهم سلموا إليهم أسرى آل كثير وعددهم ثمانية ، منهم ثلاثة من آل عيسى بن بدر ، وخمسة من عبيدهم كانوا أسروا في واقعة العقاد ، وهكذا قوبلت الحسنة بأحسن منها .

وقعة مرير المشهورة :

بعد أن احتل آل كثيرسيون ، طمع السلطان غالب بن محسن الكثيري في احتلال الشحر لتكون ميناء لملكه ، وليكون في غنى عن المرور في ثغر المكلا ، وليوطد مركز دولته في الداخل بما سيجلبه من السلاح وغيره ، ولقد حرّضه على ذلك محسن بن علوى السقاف وعبد الله بن حسين بن شهاب وإسحاق بن عقيل وحسين بن عبد الرحمن بن سهل وغيرهم من آل باعلوى ، وألحوا عليه بإرسال الأمير عبود بن سالم الكثيري إلى الحجاز ليأتي بقوم للحرب ، ويهجم بهم على الشحر من ناحية البحر ، ويهجم هو بجيشه من ناحية البرّ ، فسافر الأمير عبود إلى الحجاز وجمع قوما من الحجازيين والشوام والأتراك ، أغلبهم لا علم لهم بالحرب ولا طاقة لهم بويلاتها ، وسار بهم إلى الشحر بعد أن استولى على خمس مراكب كانت راسية في ميناء الحديدة لبعض تجار آل بريك .

ووصل إلى بروم يوم ١٠ من رمضان سنة ١٢٦٦ ، ولما علم النقيب محمد بن عبد الحبيب الكسادي اليافعي أرسل جيشا إلى بروم تحت قيادة ابنه الأمير صلاح بن محمد ، وهناك ثارت الحرب بين الفريقين في البرّ والبحر ، فانتصر الكسادي وقتل كثيرون من الفريقين ؛ أما الأمير عبود بن سالم الكثيري فقد سار بجيشه إلى شرمة ، وكاد يغرق ورجاله لشدة الأنواء ، ولما بلغ ذلك إلى آل بريك أنشأوا مراصد في الجبل وكمنوا فيها ، ولما نزل الأمير عبود برجاله هجموا عليهم وأثخنوهم في التنكيل بهم ،

واستولوا على ثلاثة مراكب من مراكب قوم الأمير عبود ، وسار الأمير عبود إلى قصيعر ؛ ولما علم السلطان غالب بن محسن الكثيرى باندحار الأمير عبود وخذلان جيشه ، جهز جيشا من عشيرته ومن العوامر والحموم وانضمّ في صفه عبدالله القحوم العمودى مع من تبعه من قبيلة الدّين وأربعين شخصا من آل باعلوى ، منهم محسن ابن علوى السقاف ، وعبد الله بن حسين بن شهاب ، وإسحاق بن عقيل ، وسار هذا الجيش الخليط شطر الشحر ، ولما وصلوا إلى دفيقة تركوا بعض ذخائرهم هناك وجعلوا عليها آل باعلوى وبعض حملة السلاح ، وانقسم الباقون فرقتين : إحداهما اتجهت إلى الشحر من ناحية البحر ، والأخرى من ناحية البرّ . ثم أثاروا الحرب على الشحر من البرّ والبحر ودامت الحرب بضعة أيام ، وكاد آل كثير يحتلون الشحر لولا أن أمير المكلا الكسادى اليافعى أمد أهل الشحر بـ ٥٠٠ جندى تحت قيادة ابنه الأمير صلاح بن محمد ، جاء هـذا المدد فهجم على حصن مرير الذى احتله جنود الأمير عبود بن سالم ، وكأنّ الموت يدفع جنود الكسادى دفعا ، وكأنهم اختاروا الموت على الحياة ، فقد كانت الطلقات النارية تتساقط عليهم مدرارا من الحصن ومن المراصد الأخرى ، ولكنهم استمروا فى الحملة بينما القتلى منهم يتساقطون على الأرض أفرادا وجماعات ، وأخيرا استولوا على الحصن وما حوله من المراصد ، وانسحب جنود آل كثير القهقرى بعد أن قتل منهم خلق كثير ، وهرب أهل دفيقة تاركين وراءهم الذخائر ، وقد استولى عليها جنود الكسادى اليافعى ، وهذه الوقعة تسمى وقعة مرير ، وهى من أكبر الوقائع بين يافع وآل كثير ، فإن عدد القتلى تجاوز ألف نفس ، أما الجرحى فكثيرون .

نهوض يافع لاسترداد سلطتهم من جديد :

قبع يافع فى خشامر وخمور وفى غيرهما من قرى القطن ، وكأنهم كرهوا التنازع والتناحر على السلطة والملك ، وتركوا الأمر كله لآل كثير يحكمون البلاد ويسوسون العباد كما يشاءون ، دون أن ينافسهم فى الأمر منافس ، أو يعترض سبيلهم معترض ، أو ينازعهم أحد فى الحكم والسلطان .

كره يافع الحكم وقطعوا الأمل فى استرداد سلطتهم وإعادة ملكهم ، ورضوا

وقنعوا بالقبوع فى ديار القطن ، ولكن أمير شبام منصور بن عمر الكثيرى أخذ يشنّ الغارات عليهم من حين إلى آخر ويقلق راحتهم ويعكر جوّهم ويزعجهم بالاضطرابات والمشاغبات . ولما اشتدّت عليهم مظالم آل كثير وتشعبت مطامعهم فيهم وبالأخصّ فى آل خلاقى ، اجتمع أعيان يافع وتشاوروا فيما يكبح مطامع الأمير منصور وقومه ، ويردع عنهم مظالمهم التى أخذت تزداد شيئا فشيئا ، فسافر وفد منهم إلى الجمعدار عمر بن عوض القعيطى اليافعى[1] واستنجدوا به وطلبوا إليه أن ينصرهم ، فأجابهم إلى ذلك وسافر وإياهم إلى خمور وأرسل إلى يافع الذين فى بلادهم باليمن ، فجاءه نحو ٥٠٠ رجل ثم جهز بنحو ١٥٠٠ من يافع وعبيد ، وحصروا سعيدية وشبام شهرا فاحتلوا سعيدية عنوة سنة ١٢٧٤ ، وكان عدد القتلى منهم خمسة ومن آل كثير ثلاثة ، وظلوا محاصرين شبام أياما قطعوا خلالها جميع المواصلات ؛ ولما شعر الأمير منصور بن عمر الكثيرى بخطورة الموقف وخاف سقوط شبام من بين يديه ، بعث إلى يافع من يسعى بالصلح على أن يحتلوا نصف شبام كما كانوا سابقا ويبقى النصف الآخر له ، فتراضى الفريقان بذلك وكان ذلك سنة ١٢٧٤ .

قدوم الشريف حسين :

كان الأمير عمر بن عوض القعيطى اليافعى طلب إلى الشريف حسين أحد أمراء اليمن أن يمدّه برجال من نخبة قومه ليستعين بهم ضد آل كثير ، فجاءه الشريف حسين على رأس ٢٠٠ فارس ، ولكن بعد أن تمّ الصلح بين يافع وآل كثير ، وأراد الأمير عمر بن عوض أن يدفع لهم مصاريفهم ويرجعهم إلى بلادهم ، ولكنهم أبوا إلا الحرب ضد آل كثير ، فلم يجبهم الأمير إلى ذلك فثارت ثائرة الشريف حسين وهاج ، واتسع نطاق الخلاف بينه وبين يافع حتى تلاحى هو والأمير محمد بن عمر

(١) كان الجمعدار عمر بن عوض القعيطى اليافعى من هاجر إلى الهند سنة ١٢٠٧ ، ولذكائه ونشاطه وشجاعته ودهائه نال لدى ملك حيدر أباد الدكن حظوة كبرى وأولاه أعظم منصب فى الجيش ، واتخذه نصيرا له ومعينا فى شئونه العامة ، ولقد جمع ثروة عظيمة بذل كثيرا منها لنصرة قومه يافع بحضرموت ، وأوجد لهم ملكا وبوأهم مقعدا عليا ؛ فهو يعتبر المؤسس الأول للدولة القعيطية اليافعية الفتية . وكان له من الأولاد الذكور خمسة وهم محمد وعبد الله ، وعوض وهو بطل التاريخ وبيده القيادة وإدارة السياسة ، وصالح ، وعلى وكلهم بعثهم إلى حضرموت ، إلا صالح بن عمر فقد أبقاه فى حيدر أباد يدير أملاكه .

القعيطي وهدد كل منهما الآخر ؛ وفي صبيحة اليوم الثاني ثارت الحرب بين الفريقين في المسحرة ، فانهزم الشريف وقومه وقتل ابنه وبعض رجاله ، وقتل من يافع اثنان وانسحب بفلول جيشه إلى بلاده مكسوفا محسورا .

قتل الأمير منصور بن عمر الكثيري :

أولم الأمير عوض بن عمر القعيطي اليافعي وليمة غداء في شبام بواسطة مولاه الحاج الماس الحبشي ، ودعا إليها رؤساء يافع والأمير منصور بن عمر الكثيري ، فأراد الأمير منصور الذهاب للوليمة ، فاعترضته زوجته وكانت يافعية وحاولت منعه عن الذهاب ، وكأنها شعرت أن هناك مكيدة دبرت ضده ، وقالت له : إني أخشى أن تذهب ضحية السياسة ، وإني لأرى الدم يلوح على وجهك . ولكن الأمير لم يصغ إليها ولم يقم لكلامها وزناً ، فسار وبصحبته خمسة من عبيده ، ولما دخل قاعة الجلسة في القصر السلطاني أمسك يده سالم بن علي بن هرهرة ، وأتى نفر من العبيد وطعنوه عدة طعنات حتى فارق الحياة ، ثم أعلن يافع الاستقلال التام بجميع شئون شبام وذلك سنة ١٢٧٤ .

خروج آل عمر بن جعفر الكثيري من هينن :

كان السلطان بدر بوطويرق الكثيري قد احتلّ مدينة هينن وبنى هناك حصنا على تلّ مرتفع يسمى حصن فرحة ، وجعل عليها نائبا من عشيرته يحكم البلاد ، ويبعث إليه بالحاصل من العشور ، وقد استقرّ فيها في نهاية آل جعفر بن عمر الذين كان آخر من حكم منهم الأمير طالب بن بدر الكثيري ، ومن سوء حظّ هذا الأمير أن اشتدّ القحط في عهده في هينن حيث انقطع المطر سنين ، فأجدبت الأراضي وأقفرت ، ومات كثير من النخل ، وقد ضاق ذرعا وأظلمت الدنيا أمام عينيه بعد أن احتلّ يافع شبام ، لذلك اضطرّ الأمير أن يرحل بأهله إلى جاوة ، ويترك البلد للشعب ، وكان ذلك سنة ١٢٧٥ ؛ فأصبحت هينن بعد مغادرة آل عمر بن جعفر لها في اضطراب مستديم ، فقد فقد الأمن وانتشر الرعب في قلوب الضعفاء ، وانقطع ورود القوافل

فكسدت السوق ، ثم جاءها سالم بن على بن هرهرة اليافعى واحتلها ونادى بنفسه حاكما عليها ، فعاد الأمن وهدأت الخواطر واطمأنت النفوس ، ولكن الأمير سالم لم يمكث طويلا فى هينن يحكم الناس ويسوس شئونهم ، فقد عاد إلى شبام سنة ١٢٨١ ، ولعل ذلك كان لفقر البلد وقلة موارد الخير فيه .

حرب السحيل :

كان لقتلة الأمير منصور بن عمر الكثيرى أعمق أثر فى نفوس آل كثير وأكبر وقع فيهم ، فقد اجتمعت كلمتهم واتحدت قلوبهم ضد يافع بالرغم عن وجود النزاع والخلاف بين بعض أفخاذهم ، والمصائب من أكبر الأسباب التى تزيل ما بين القبيلة الواحدة من التنازع والتناحر ، وتوجد بينهم روح التعاون والتناصر ضد العدوّ المهاجم رابط آل كثير فى سحيل آل مهرى ، وأخذوا يؤذون المارين بالنهب والسلب ، ويقطعون السابلة ويلقون الرعب والجزع فى أطراف مدينة شبام ، ولما أنسوا من يافع السكون والجمود ، أخذوا يشنون الغارة على شبام آناء الليل وأطراف النهار لاحتلالها وإعادة سلطتهم واسترداد إمارتهم عليها ، ولكن كانت غاراتهم تذهب هباء ، فقد حصن الأمير عوض بن عمر القعيطى اليافعى قلاع شبام برجال من عشيرته ومن العبيد ، ثم عقد صلح بين الفريقين ، وقبل انتهاء الصلح بيوم جهز أحمد عامر الحضرمى اليافعى أحد كبار قواد الجيش أتباعه وكانوا ٣٠٠ رجل وأراد الهجوم على آل كثير فى سحيل آل مهرى ، فلم يوافقه الأمير عوض ورؤساء يافع وحاولوا منعه ريثما ينتهى الصلح ولكنه أبى الانتظار ، فسار بقومه إلى سحيل آل مهرى ، وثارت الحرب بين الفريقين واحتل أحمد عامر أكثر الحصون ، ولكن جاء من سيون وتريم ٢٠٠٠ رجل من آل كثير ، وأحاطوا بأحمد عامر وقومه ، وكادوا يقضون عليهم ؛ وعلم يافع الذين فى شبام وقرى القطن بخطورة موقف أحمد عامر ورجاله ، فلم يغيثوه بحجة أن الصلح لم ينته بعد ، وأن أحمد عامر سار من غير رضاهم ، ولما انتهت مدة الصلح أدركوه بـ ١٠٠٠ رجل من يافع ، فحمى وطيس الحرب ، وقتل من الفريقين كثيرون ، وانتصر يافع ، واحتلوا السحيل ، وانسحب آل كثير جميعا إلى سيون وتريم .

محاولة آل كثير احتلال الشحر :

لم تضعف عزائم آل كثير و تخبُ هممهم من صدمة الشحر ، ولم يقطعوا الأمل فى احتلالها ، ولم ييأسوا من امتداد سلطتهم إلى البحر ، بل أخذ زعماؤهم يوقظون فى القوم الحماسة ، ويبعثون فيهم النشاط للعمل .

وفى شهر رجب سنة ١٢٨٢ جهز السلطان غالب بن محسن الكثيرىّ نحو ٣٠٠٠ من آل كثير والعوامر وغيرهم ، وفى مقدمة هذا الجيش القائد عبود بن سالم الكثيرى وعبد الله بن صالح بن مطلق الكثيرى ، وعايض بن سالمين بن طالب الكثيرى ، وهادى بن سيف ، وكان هذا تكفل بربع مصروفات التجهيز ، والثلاثة الأرباع الأخرى على السلطان غالب بن محسن ، زحفوا على الشحر فجأة . ولم يكن آل بريك وغيرهم من سكان المدينة على استعداد للحرب ، ولذلك فقد احتلّ آل كثير الشحر دون أن يلاقوا أمامهم مقاومة شديدة .

صدى سقوط الشحر فى يافع :

احتلّ آل كثير الشحر وكان يافع فى شبام ، وقرى القطن هامدين خامدين والكسادى وقومه فى المكلا ، والسلطان عوض بن عمر القعيطى فى حيدر آباد بالهند ، فجمع يافعا هناك واستشارهم فى استرداد الشحر فعاهدوه على ذلك .

ومن أهم الأسباب التى ألجأت السلطان عوض بن عمر للحرب هو ما بلغه أن آل عولقى يوالون آل كثير ويناصرونهم ضد يافع ، فقد سعوا فى إيجاد تحالف بينهم وبين آل كثير وآل عمر باعمر أهل الغيل ، وأزمعوا على احتلال الشواطئ وطرد يافع منها ، وكان زعيم آل عولقى وهو عبد الله بن علىّ العولقى الموجود فى حيدر أباد يومئذ ومن أكبر أصدقاء السلطان عوض بن عمر القعيطى يمدّ تلك الحركة بالمال ، ويقوم بأعظم قسط فى تنشيط الهمم ، وإيجاد جبهة قوية على الساحل لإجلاء يافع ، وإنشاء دولة جديدة له على أنقاض الدولة اليافعية ، وقد غضب عليه السلطان عوض بن عمر وقابله وجها لوجه وأوعده أنه ذاهب إلى حضرموت لدكّ حصن الصداع [1] واحتلال

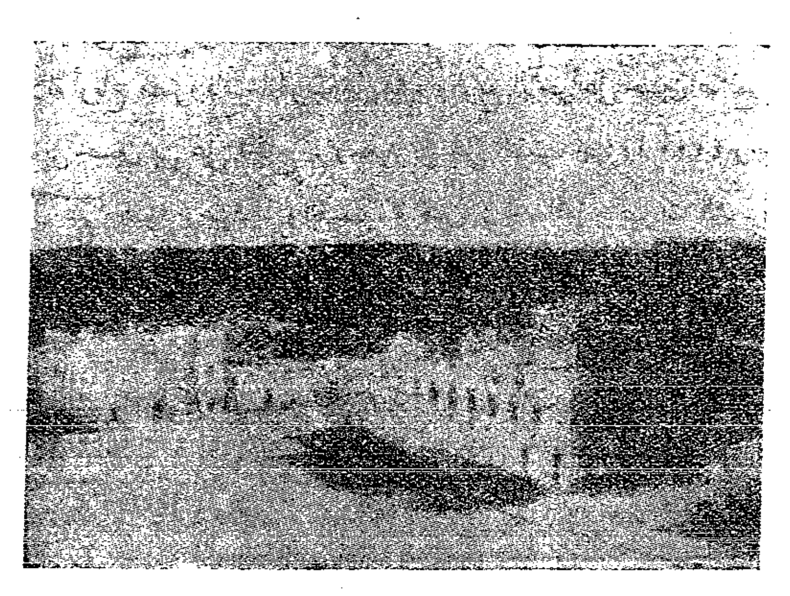
(١) هو حصن منيع جدا قائم على مقربة من غيل باوزير ، بناه الجمعدار عبد الله بن على العولقى ، وأسكن فيه أهله ، وأحاطه بقلاع صغيرة يقيم فيها الحرس من العبيد وغيرهم .

الشحر وغيل باوزير ، ثم غادر السلطان عوض بن عمر الهند إلى المكلا وبصحبته جماعة من عشيرته يافع و ٤٠٠ من الهنود ، وهناك فاوض أمير المكلا صلاح بن محمد الكسادي اليافعي فى الأمر ، فتعاهد على استرداد الشحر من أيدى آل كثير ، على أن تكون ثلاثة أرباع مصروفات الحرب عليهما ، والربع الآخر على حسين صالح المصلى وسعيد بن حسين بن على الحاج ، وسعيد بن على النقيب جهزوا ٤٠٠٠ رجل من يافع وآل تميم وهنود وعبيد ، وانقسموا فرقتين : إحداهما حاصرت الشحر بحرا وعليهم صالح حبيب بن على جابر ، وسالم بن على بن الشيخ على اليافعي ، ومحسن بوبك الحداد اليافعي ، وسعيد أحمد الحضرمى اليافعي ، وعمر عوض القعيطى اليافعي ، وحسين صالح الجهورى اليافعي . والأخرى حاصرتها من شمالها وغربها ، وفى مقدمة هذا الجيش السلطان عوض بن عمر القعيطى اليافعي ومحسن بن نقيب اليافعي ، وعبد الله عوض القعيطى اليافعي .

حاصروا الشحر يومين ، وفى اليوم الثالث أثاروا الحرب ، وفى اليوم الرابع زحف يافع على المدينة وأخذوا يستولون على ديار كثيرة . ولما رأى آل كثير تقدم يافع وحملاتهم المتوالية انسحبوا من الشحر وبقى السلطان غالب بن محسن الكثيرى فى الحصن مع حاشيته واختبأ جماعة من آل كثير والعوامر فى دار باجمال فى دفيقة ، ومن هؤلاء عبود ابن سالم وعايض بن سالمين بن طالب وهادى بن سيف وعبد الله بن صالح بن مطلق ونفر من أعيان العوامر . احتل يافع الشحر فاضطر السلطان غالب بن محسن الكثيرى للتسليم وطلب إليهم أن يسمحوا للنساء والأطفال بالرحيل من المدينة فأجابوه إلى ذلك وخرج النساء وأولادهن وقد لبس السلطان غالب بن محسن لباس امرأة وخرج دون أن يشعر يافع به .

ثم استولى يافع على كل من الشحر ، وكان عدد القتلى منهم نحو ٩٠ ومن آل كثير نحو ١٣٥ وعدد الجرحى من الفريقين كثيرون . أما الذين فى دار باجمال فقد أراد السلطان عوض بن عمر القعيطى أن يصوّب عليهم المدفع ويبيدهم عن بكرة أبيهم لأنه رأى أن هؤلاء وهم الأعيان البواسل إذا أطلق سراحهم يعودون إلى قومهم

فيثيرون الحرب من جديد ، ولكن رؤساء يافع لم يوافقوه على ذلك فأطلقوا سراحهم باحسان



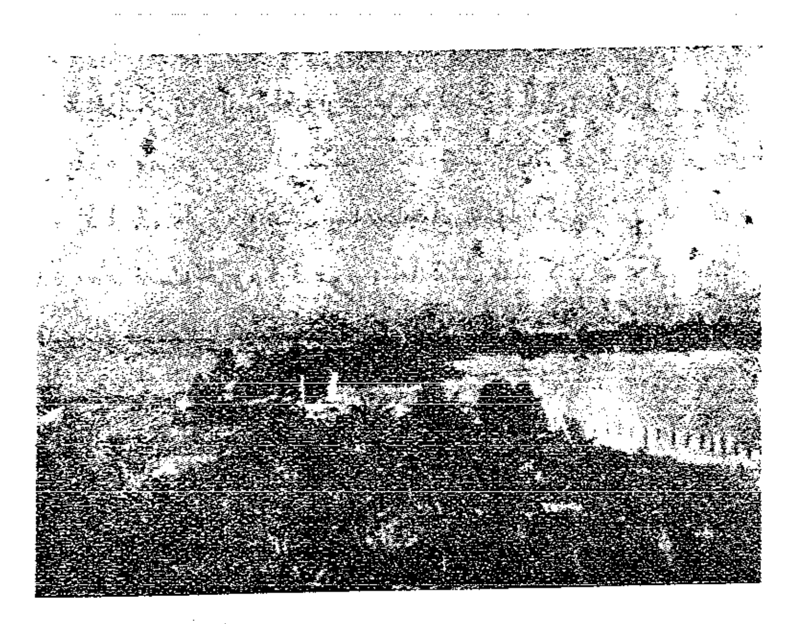
« غيل باوزير كما هي الآن »

احتلال غيل باوزير :

ثم أراد يافع أن يزحفوا على الغيل ولكنهم خافوا أن يمدّ آل كثير أهل الغيل بجيش ويتحد هؤلاء مع آل عمر باعمر والعوالق ضدهم ، لذلك أرسلوا ٢٠٠ رجل من يافع وآل تميم إلى النويدرة لمحاصرة تريم تحت قيادة عبد الخالق الماس عمر ، واستصحب هؤلاء جماعة من الحموم ، وحينما وصلوا حدود الحموم وفى بقعة عديمة الماء ، أثار جماعة الحموم الحرب على رفقائهم من يافع وآل تميم ، وقتلوا منهم غدرا ٣٥ رجلا ، وسار الباقون من يافع وآل تميم إلى تريم وحاصروها . وفى أثناء حصارهم الذى امتد إلى أربعة شهور ، جهز السلطان عوض بن عمر القعيطى ١٦٠٠ تحت قيادة سعيد أحمد الحضرمى اليافعى ، وسعيد بن على النقيب اليافعى ، وسعيد حيدر البكرى اليافعى ، وكان هذا رئيسا على الهنود حيث كان يعرف لسانهم ، ثم زحفوا إلى

الغيل،وكان فيها من آل عمر باعمر ٢٥٠ ، ومن البدو ٢٠٠ ، ومن آل كثير ١٥٠ وفى مقدمتهم عبود بن سالم الكثيرى ، وعايض بن سالمين طالب الكثيرى . وكان العوالق ومن يلحق بهم فى حصن الصداع على أتمّ استعداد لمناصرة آل عمر باعمر ضد يافع . حاصر يافع الغيل يومين ثم أتاهم السلطان عوض بن عمر وأمرهم بالهجوم .

وفى فجر اليوم الثالث من الحصار زحفوا إلى الغيل ، وكان السلطان عوض ابن عمر فى مقدمتهم يستحثّ هممهم ويثير فيهم الحماسة ، ودامت الحرب إلى آخر النهار حتى إذا جاء الليل لم يبق فى البلد من المدافعين سوى جماعة من آل عمر باعمر ، سلموا أنفسهم ليافع ، واحتلّ يافع الغيل ،وكان عدد القتلى من آل عمر باعمر وأنصارهم ٧٨ رجلا ، ومن يافع وأنصارهم ٤٥ رجلا ، والجرحى فى الفريقين كثيرون .



« منظر من غيل باوزير »

أما الأسرى من آل عمر باعمر وعددهم ٦٠ رجلا ، فقد أرسلوا إلى الشحر وسجنوا هناك . ثم زحف يافع إلى حصن الصداع ، وحاصروه وحاولوا الهجوم عليه ، فلم يستطيعوا إذ كان محاطا بالمرابطين من كلّ أنحائه وحفروا خندقا تحت الأرض إلى الحصن ، فخاب سعيهم وقتل منهم خمسة ، ودام الحصار بضعة شهور ، وكاد العوالق

وأنصارهم يموتون جوعا ، فاضطرّوا للتسليم ، واحتلّ يافع الحصن وملحقاته ، وسمحوا لهم بالرحيل إلى آل عمر باعمر فقد أرسلوا إلى الشحر وسجنوا [١] .

أما الجيش الذى أرسل لمحاصرة تريم فقد اتفق الفريقان على الصلح ، على أن يدفع آل كثير مصروفات الحصار ، ثم عاد يافع وآل تميم إلى المكلا .

استقلال نهد :

كان السلطان بدر بوطويرق الكثيرى قد احتلّ أكثر بلاد نهد وأدخلها تحت حكمه ، وكان آل عمر بن جعفر الكثيرى هم الولاة بالنيابة ، وكان بنو بكر فى سدبة يتولون شئون الناس ويذودون عن حوضهم من اعتداء آل محفوظ وغيرهم ، وكانت إمارة لحروم وعندل فى حوزة أحمد محسن الحثامى البكرى اليافعى ، ولما توفى أمير سدبة أحمد عبيد البكرى وليس له وارث يرث الإمارة أمسى الأهالى فى فوضى ليس لهم رئيس يقوم بأمرهم . وسافر الأمير أحمد محسن البكرى اليافعى إلى حيدر أباد للارتزاق ، إذ لم تقم لحروم وعندل بسد حاجياته ، ولم يكن له من عشيرته من يقوم بالأمر بعده ، فأصبحت لحروم فى فوضى ، أما عندل فقد كان القائم فيها بشئونها عامر جعيم المرفدى اليافعى بالنيابة عن أحمد محسن البكرى ، ولم يكن لهذا الوالى أنصار من عشيرته ولا من غيرهم من حملة السلاح ، فهو بمفرده بين آل با جابر وغيرهم من سكان عندل وكان ضعيف الإرادة ، عديم السياسة ، انحلت سلطته وتلاشت هيبته ، فأمسى نسيا منسيا ، وفى ذات يوم خرج من حصنه إلى جبل عندل فشاهده جماعة من آل منيف أهل لخماس ، فساروا إليه وقتلوه ، ثم ساروا إلى حصنه ونهبوا ما فيه من المال والطعام وهدموه وردموا بئره .

وكان لاندحار آل كثير من الشحر وشبام واستيلاء يافع أكبر مشجّع لنهد فى الاستقلال وخلع طاعة آل كثير ، وأخذوا يهيئون أنفسهم ويعدون العدة للاستقلال

(١) قيل إن السلطان عوض بن عمر القعيطى حينما غضب من الجمعدار عبد الله بن على العولقى أوعده بأن يحتل حصن الصداع ويهدمه ويبعث بتراب منه إلى حيدر أباد ويذره تحت جامع شار مناره ، وفعلا كان ذلك ، وتوفى الجمعدار عبد الله على العولقى حزينا آسفا .

ففى سنة ١٢٨٤ ثار آل منيف على القفم [1] واحتلوه ، ثم ساروا إلى صاحب الدهيل الأمير صالح بن عمر بن جعفر الكثيرى وقتلوه واستولوا على الدهيل وعلى لحماس ، وهكذا نالت نهد استقلالها ، التام ، ولم يكن بينهم من ينافسهم على الحكم والسلطان .

محاولة آل كثير احتلال الشحر لآخر مرة :

فى سنة ١٢٨٦ جهز السلطان غالب بن محسن الكثيرى جيشا من قومه ومن العوامر وآل باجرى وآل جابر ، وزحف بهم إلى الشحر ، فثارت الحرب ، ولقد صدق آل كثير الحملة وأخذوا يندفعون إلى الأمام ويحتلون أطراف الشحر ، ولما رأى يافع أن النصر فى جانب آل كثير هموا بالانسحاب ، وكان السلطان عوض بن عمر القعيطى فى حصنه ، وعنده من عشيرته ٣٠ رجلا وفى مقدمتهم وزيره عبد الله عوض بن على القعيطى الذى قتل فى ذلك اليوم . أراد السلطان عوض أن يتخلص من الحياة هو ومن حوله من رجاله، فوضع البارود تحت الحصن وأمر أحد عبيده أن يفتح باب الحصن ويسمح لآل كثير بالدخول ، حتى إذا دخلوه أشعل البارود فيموت جميع من فى الحصن ، ولكن محمد حسين الشاحث عيرّهم ولامهم على يأسهم من النصر ، وأخذ يثير فيهم الحماسة بذلاقة لسانه وسرعة بداهته حتى عادوا للحرب واندفعوا فى شوارع المدينة كالسيل الجارف يقاتلون . ولقد ظن آل كثير أن مددا عظيما جىء به ليافع ، فانسحبوا إلا عبود بن سالم وهادى بن سيف وعبد الله بن صالح وغيرهم من رؤساء آل كثير ، فقد ثبتوا فى أحد الحصون وأحاط بهم يافع ، فطلب عبود بن سالم الكثيرى وجماعته الأمان منهم ، وطلب أن يستصحبه حسين بن صالح المصلى اليافعى إلى خارج الشحر ، فأجابوهم إلى ذلك،وأنزلوهم من الحصن بما يليقون به من الاحترام وكان عدد القتلى من يافع ٤٥ ومن آل كثير ٩٥ . وعدد الجرحى من الفريقين كثيرون

وقعة المحليل (المحترقة) :

كأنّ احتلال يافع الشحر بعث فيهم الحركة وحبّ النضال ، وكان انتصار القعيطى والكسادى وفوزهما فى القيادة جعلهما يطمحان فى توسيع نطاق الملك وامتداد

(١) هو حصن شاهق واقع على مقربة من شراح ، بناه السلطان بدر بوطويرق الكثيرى .

السلطان ، فأراد الهجوم على آل كثير فى ديارهم بسيون وتريم ، فجهز ١٤٠٠ رجل من بينهم نحو ٤٠٠ من الهنود و ٢٠٠ من يافع المقيمين فى شبام وقرى القطن ، واقترض الأمير صلاح بن محمد الكسادى اليافعى من السلطان عوض بن عمر القعيطى اليافعى مائة ألف ريال ليقوم بنصف مصاريف الحرب وتبقى فى ذمته ، وسار بالجيش إلى شبام ثم زحفا شطر آل كثير ، وكان آل كثير قد بلغهم قدوم يافع لحربهم ، فتعرّضوا لهم فى المحترقة وهناك ثارت الحرب بين الفريقين ، وأخذ يافع يندفعون فى حدود آل كثير واستمرّت الحرب إلى الليل ، ووضع آل كثير البارود فى بعض حصونهم وتخلوا عنها ، حتى إذا دخلها يافع أشعلوا فيهم البارود ، فصعد أحدها جماعة من يافع فانفجر البارود وقتل ثلاثة منهم ، ثم اندحر يافع وانسحبوا ، وثبت الهنود وعليهم سعيد حيدر البكرى فى مراكزهم ، ولكنهم لما رأوا يافع ينسحبون انسحبوا وعاد جميعهم إلى شبام. وكان عدد القتلى من يافع والهنود ٤٠ رجلا وسميت هذه الوقعة وقعة المحايل أو المحترقة وكانت فى أواخر سنة ١٢٨٦ ، وفى اليوم الثانى من تلك الوقعة زحف يافع على قارة آل عبد العزيز واحتلوا أغلب بيوتها ، ثم انسحبوا بعد أن جاء لآل عبد العزيز المدد من سيون . وقد قتل فى هذه الوقعة القائد الباسل أحمد عامر الحضرمى اليافعى ، كان هجم على أحد الحصون وأخذ يفجر حائطه ، فرآه من فى الحصن فألقوه حجرة كبيرة على رأسه .

وقعة الغبيضات :

ثم أراد السلطان عوض والأمير صلاح أن يثيرا حربا على آل كثير من ناحية الشرق ويأتيا بجيشهما من ناحية الغرب لتتوزّع قوة آل كثير ويقلّ عددهم وتضعف صفوفهم ، فأرسلا جيشا تحت قيادة عبد القوى غرامه اليافعى . ولما بلغ ذلك آل كثير جهز السلطان غالب بن محسن جيشا من عشيرته ، ومن العوامر وآل جابر وآل باجرى ، وجعل عليهم عبد الله بن على بن جعفر بن محمد الكثيرى ، وعبد الله بن أحمد عم السلطان غالب ، وكمنوا ليافع فى وادى الغبيضات ، ولما انحدر يافع من أعلى الوادى

أحاط بهم آل كثير وأثخنوا فى التنكيل بهم ، فانسحب يافع وعادوا إلى الشحر ، وكان عدد القتلى منهم سبعين ، منهم قائده عبد القوى غرامه وحسين بن صالح الجهورى وابنه عبد القوى وقتل من آل كثير ثلاثون وجرح من الفريقين كثير .

ولما بلغ السلطان عوض انكسار يافع من الغييضات باد بالجيش إلى الشحر ، ثم عاد الأمير صلاح بن محمد الكسادى إلى المكلا ١ .

مساعى آل باعلوى السياسية للملك :

فى ذلك الحين ظهر جماعة من آل باعلوى أرادوا الملك ، فسعوا له سعيا حثيثا ، وكان فى مقدمة هؤلاء عقيل بن عبد الله بن يحيى باعلوى ، كان هذا الرجل سياسيا ماهرا فى فنون الإغراء والتحريش ، حادّ الذكاء سريع البداهة قوىّ الحجة عالى الهمة كبير النفس ، بيد أنه كان سيىء الحظ ، تأتيه الأمور بعكس ما يريد ، سعى لآل كثير ضد يافع توصلا إلى أغراضه فلم يفلح بغير الخسران ، وسعى ليافع ضد آل كثير فكان عاقبته الوبال . لكن ذلك لم يضعف همته ويوهن سعيه ويخمد حركته وراء مآربه ، فقد ذهب إلى الحموم ليجمع جيشا منهم ضد آل كثير ، فرأى أن الأمر يفتقر إلى المال ، ثم ذهب إلى آل تميم لذلك الغرض ، فرأى أن الحاجة تدعو إلى الإنفاق أيضا ، لذلك كتب إلى أخيه عوض بن عبد الله بن يحيى باعلوى بسنقفورة وطلب إليه أن يجمع مالا يتوصل به إلى أغراضه ومطامحه ، وكان عوض رجلا متظاهرا بالورع والصلاح حتى وثقت به الناس الثقة التامة ، فهبّ يعمل بجمع المال ، وما هى إلا بضعة شهور حتى جمع مالا كثيرا من العطايا والهبات ، وصار له عملاء فى بعض البلدان ، ومن أكبر عملائه سلطان كوتيه وسلطان فارى ، فقد كانا يرسلان له التبر أرطالا رغبة فى البركة وطول العمر ، وكان بعض التجار يثقون به ويودعونه أموالهم ، ومنهم بعض الأجانب مثل هافر تقلرى ومرتين ديس ورى منر ، وبعد أن جمع أموالا جمة هرب خفية إلى عدن

---

(١) قيل إن نزاعا حدث فى شبام بين السلطان عوض والأمير صلاح ، وأن الأمير محمد بن عمر القعيطى انضم إلى الأمير صلاح ، ولكننا لانعرف شيئا عن أسباب ذلك الخلاف ، وليس بين أيدينا دليل يثبت صحة ذلك .

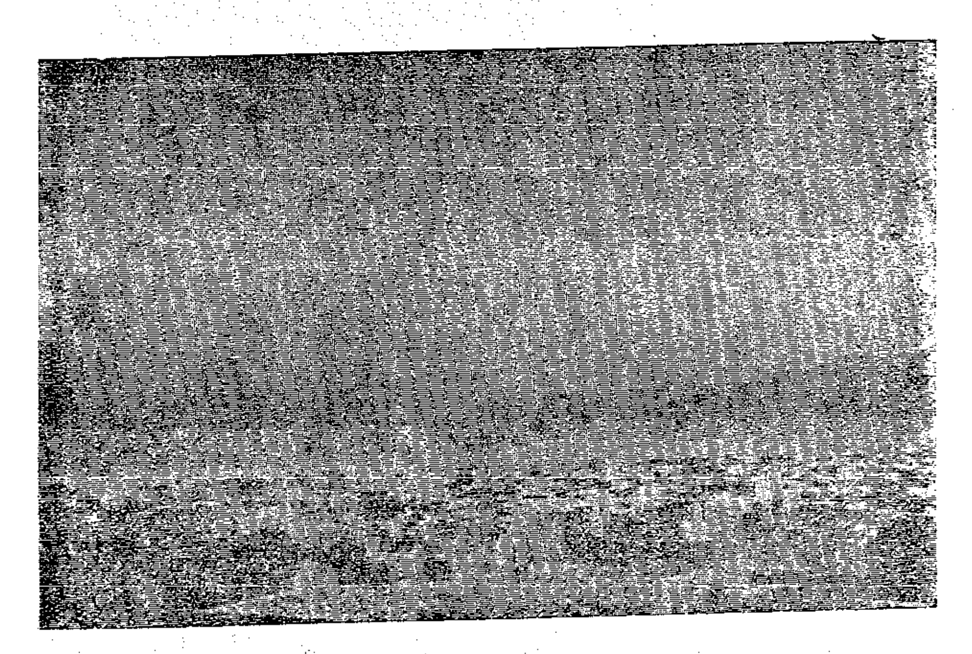
ومنها مشى برا إلى حضرموت ، ثم ذهب إلى آل تميم وحرّضهم على احتلال تريم وأمطر عليهم العطايا ، فأصبح آل تميم يشاكسون ويناوشون آل كثير فى تريم ولكنّ من غير جدوى ، وعاد عوض بخفى حنين . ثم إنه رأى أن يستند إلى يافع ويستعين بقوتهم ضد آل كثير ، فسافر إلى المكلا ونزل ضيفا فى قصر الأمير صلاح بن محمد الكسادى اليافعى ، وبذل غاية جهده فى تحريكه للهجوم على سيون وتريم ، ولكنّ الأمير لم يرض بذلك وأجابه بأن الظروف تقتضى المحافظة على مركزه والدفاع عنه . ولما رأى أن الأيام تذهب عليه سدى والليالى تمرّ بدون جدوى عاد إلى بلده ، ثم ذهب إلى السلطان غالب بن محسن الكثيرى يحرّضه على احتلال الشحر متعهدا له أنه سيضمّ إلى صفه الحموم فلم يفلح أيضا ، ثم رأى أن يرحل إلى المكلا ويكبر آل كثير فى عيون يافع ويعظم قوتهم أمام الأمير صلاح ، وفعلا سار إليه وأنبأه أن آل كثير ومن يلحق بهم على أتم استعداد لاحتلال المكلا فلم يفلح أيضا ، وعاد إلى سيون ، وهناك وجد جماعة من آل باعلوى وعلى رأسهم محسن بن علوى السقاف يتباحثون فى الوسائل التى تعيد الحرب جذعة بين يافع وآل كثير معتقدين أنهم لن ينالوا آمالهم إلا إذا اصطدمت الدولتان اصطداما يقضى على حياتهما أو حياة إحداهما ، ساروا إلى السلطان غالب ابن محسن الكثيرى وإلى أخيه الأمير عبد الله وإلى الأمير عبود بن سالم لتحريضهم على احتلال الشحر ، ولكن من حسن حظ الدولتين ومن سوء حظ هؤلاء لم ينجحوا كثيرا ولا قليلا فيما أرادوه .

وفاة السلطان غالب بن محسن الكثيرى :

فى شهر رجب سنة ١٢٨٧ توفى السلطان غالب بن محسن الكثيرى فى سيون عن ٦٤ سنة قضى أغلبها فى الحرب والإمارة ، وكان قائدا مقداما وسلطانا حازما عادلا فى حكمه رحيما . كان أعظم رجل فى آل كثير بعد السلطان بدر بوطويرق وأعظم شخصية بارزة ، أنفق ثروته لخدمة قومه وإعلاء شأنهم ورفع مقامهم ، أحيى العظام وهى رميم ، أحيى ملك آبائه بعد اندثاره ، فهو يعتبر المؤسس الأول للدولة الكثيرية الفتية .

امتداد سلطة يافع على الشواطئ :

فى أواخر سنة ١٢٨٧ أرسل السلطان عوض بن عمر القعيطى ٣٠٠ رجل من يافع إلى قرية الحامى واحتلوها من غير حرب ثم سار الجيش إلى رأس باغشوة واحتلوها بدون حرب ثم احتلوا القرن والديس دون أن يلقوا أمامهم مقاومة شديدة ، وفى أواخر سنة ١٢٨٨ أرسل إلى قصيعر ٥٠٠ رجل من يافع وكان فيها جماعة من الحموم فثارت الحرب بين الفريقين وقتل من الحموم سبعة ومن يافع ثلاثة واحتلوها .

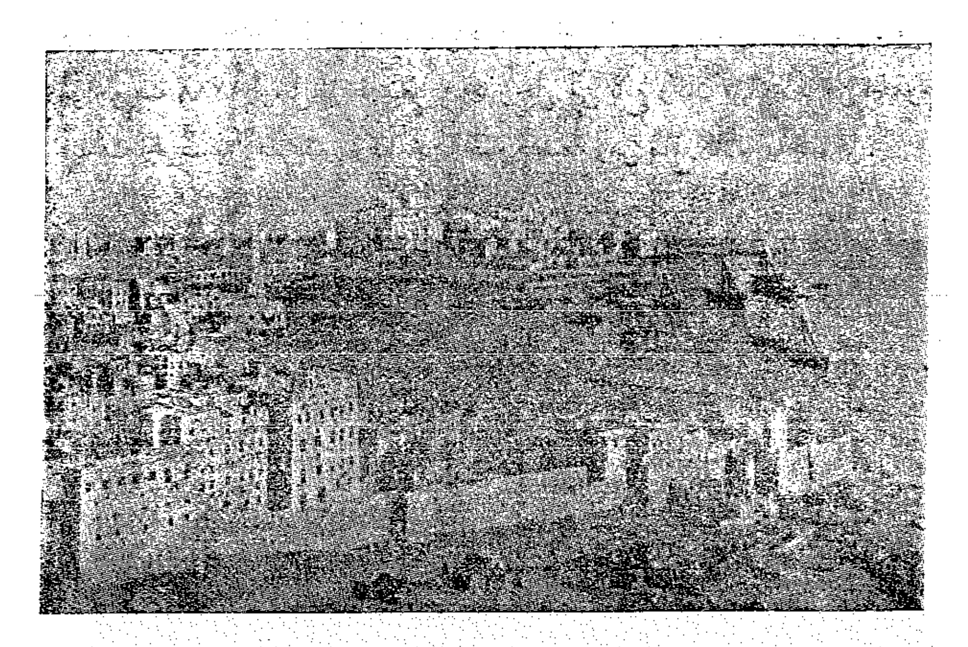


« سيون كما هى الآن »

محاولة آل كثير احتلال شبام :

فى شهر ذى الحجة سنة ١٢٩١ سار كثير من يافع من أهل شبام إلى قرى القطن لقضاء أيام العيد بين أقربائهم ، ولم يبق فى المدينة منهم سوى الأمير عبد الله بن عمر القعيطى و٢٩ رجلا من يافع و١٥٠ من العبيد ، فانتهز هذه الفرصة آل كثير وهجموا يوم الزينة على شبام ودخلوها ، وأخذ بعضهم يكسرون أبواب الدكاكين ، وينهبون

المتاجر والنقود ، وكان يافع أرسلوا إلى قومهم فى قرى القطن يطلبون منهم المدد ، فجاءهم أولا سبعون رجلا من آل على جابر ، ثم جاء ٥٠٠ رجل من أفخاذ يافع ، فزادت الحرب اشتعالا فى شبام ، وأقفرت شوارع المدينة من الناس سوى يافع وآل كثير ، وكان الأمير عبد الله بن عمر القعيطى يطوف على المراصد اليافعية راكبا



« المكلا »

فرسه يحثهم على الإقدام والاستمرار فى الحرب إلى النهاية . وكان يمرّ أحيانا بين آل كثير فيحسبونه أحدا من آل باعلوى ، إذ كانت ملابسه بيضاء ، وكانت عمامته كبيرة ، فانكسر آل كثير ، وانسلوا من شبام أفرادا وجماعات ، وكان عدد القتلى من يافع ٧ ، ومن آل كثير ٢٥ ، دفن منهم عشرون فى بقعة أمام باب شبام يقال لها الآن نخل عشرين .

اهتمام الكسادى بالمكلا :

اهتمّ الأمير صلاح بن محمد الكسادي بالمكلا ، فقد بذل أقصى مجهوده فى تدبير شئون الرعايا ، والإشراف على مصالحهم العامة ، وتنظيم الجيش ، وكانت حالة المكلا

يومئذ أحسن من الشحر . وأكثر رخاء ، وأوفر راحة وهناء ، حتى هبطها خلق كثير من حضرموت الداخلية ومن عدن ، وما انفكت نفسه تطمح فى توسيع ملكه ، ومدّ نفوذه . فأرسل إلى دوعن جيشا تحت قيادة النقيب مجحم ، فاحتلّ قرى كثيرة

وفى أثناء الحرب توفى الأمير صلاح بن محمد الكسادى اليافعى ، فزلزل الناس لوفاته زلزالا شديدا ، وكادوا يصعقون لشدة الحزن عليه ، فقد كان رجلا شهما كريما شريفا . لقد كان لهم أبا شفوقا يؤلمه ما يؤلمهم ، ويفرحه ما يفرحهم .

وقام بالأمر بعده ابنه الأمير عمر بن صلاح الكسادى اليافعى ، وكان لا يقل عن أبيه فى الحكم والحزم والإخلاص لشعبه ، والتفانى فى خدمته ، كان عزيزا إلى أقصى درجات العزّ شريفا إلى أقصى درجات الشرف .

وقد كان يقوم مقام أبيه فى الحكم وتدبير شئون الأهلين ، ويتولى قيادة الجيش فى ساحات القتال .

انتهى الجزء الأول ، ويليه : الجزء الثانى

بحمد الله وحسن توفيقه تم طبع الجزء الأول من كتاب « تاريخ حضرموت السياسى » مصححا بمعرفة لجنة من العلماء برياسة الشيخ مرسى سلامة لاشين من علماء الأزهر الشريف بشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر .

[١٤٧ / ٩ / ٢٠٠٠ / ١٩٥٦]

القاهرة فى { ١٩ صفر سنة ١٣٧٦ هـ
٢٤ سبتمبر سنة ١٩٥٦ م }

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبى

فهرس

الجزء الأول من تاريخ حضرموت السياسى

صفحة

صفحة

صفحة